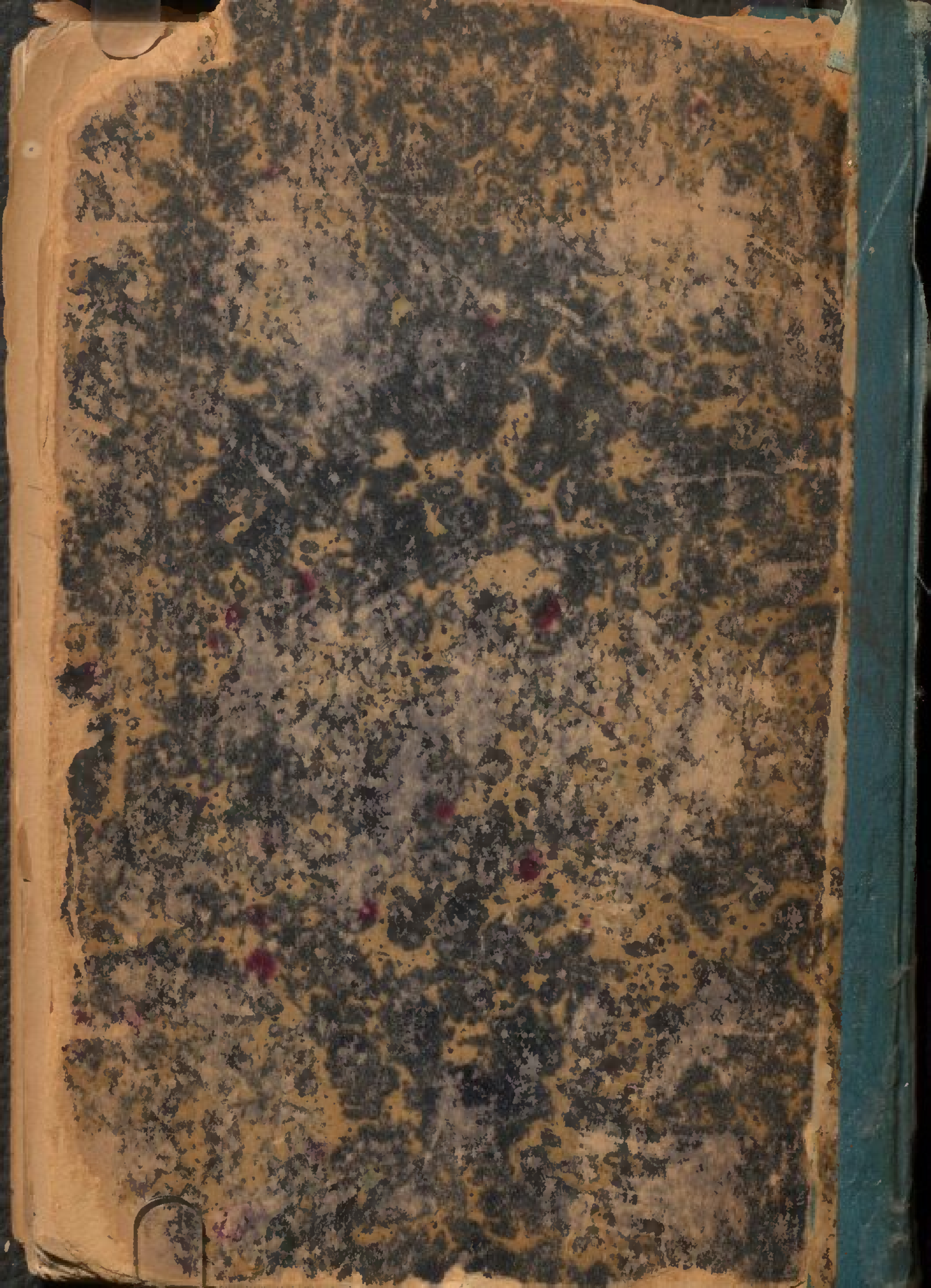


Arabic

Fasl al Khetāb fi El Waāz
By al Sayed Garmanous Farahat
on the Science of Preaching

Jesuit Press, Beyrout
1896.

translation
treatise on
Preaching by Fenelon

فصل الخطاب في الوعظ

للحبر العلّامة والإمام الفهّامة

السيّد جرمانوس فرحات

مطران الأُمَّة المارونيَّة في مدينة حلب المحميَّة

رحمهُ الله

مع ثلاث محاورات في علم الخطابة

وضعها

السيّد فنيلون اسقف كمبراي

احد أئمَّة البلغاء ومشاهير الخطباء عند الفرنسيس

ترجمها من الفرنسويَّة بالعربية العالم العامل والاستاذ الفاضل

سعيد افندي الخوري الشرتوني اللبنانيّ

عُني عنهُ

طُبع بالمطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين

بيروت سنة ١٨٩٦

تقدمة الكتاب

ان كل بضاعة تُرسَل الى حيث تروج كما ان كل امرئ يُتحَف بأحبّ الاشيــاء اليهِ وأَليقها بهِ فلا يُهدَى الى الراهب عِقْد ولا الى العذراء مِسْحٌ . وبعدُ فإِذ ان نشر هذا الكتاب بمنزلة انفس تحفة عند القائمين برعاية الأُلفة البشرية عموماً . وعند رُعاة الامم المسيحية خصوصاً رأَيت من المناسب ان ارفعهُ تقدمةً لمن يحبّ انتشار فوائدهِ ممن يعرف قيمةً لبقاء جميل الذكر على وجه الدهر واذ وجدت القاصد الرسوليّ الجديد المطران بطرس دوڤال الذي كأَنما الله اشار بجهارة منظرهِ . الى صفاء جوهرهِ . وبجمال ظاهرهِ الى كمال باطنهِ على حدّ قولهِ تعالى : كونوا حكماء كالحيَّات وودعاء كالحمام انجذب قلبي اليهِ من حيث تصوّرتهُ أَجود مثالٍ لمن يتبوأ مقام القصادة الرسولية فشرَّفت هذا الكتاب باسم سيادتهِ . وادخلتهُ في ظلّ عنايتهِ راجياً ان تظفر تقدمتي عندهُ بحسن القبول . وان يلاقي كلامي في نفسهِ ما هو خليق بصدق المقول

الابن المطيع

بيروت في غرة آب سنة ١٨٩٦ سعيد الخوري الشرتوني

مقدمة

احمدك اللهمَّ يا مَن بَثَّ لمناهدة الفسادِ بُعوثَ رسلهِ وانبيـائهِ . وعقد لخطباء الصلاح اللواء على كتائب احبَّائهِ واصفيـائهِ . وجعل لظهراءِ الدين والعلم والأدب المقام الاعلى عند رؤساء بيعتهِ . اذ ردَّ بهم الغارة عن حوزة كنيستهِ . حمدًا تبيضُّ بهِ وجوه المتَّقين . وتُجنَى منهُ جناةُ النجاة يوم الدين

اما بعد فيقول العبد الفقير الى اللطف الربانيّ . سعيد بن عبد الله ابن ميخائيل بن الياس بن يوسف ابن الخوري شاهين الراميّ المارونيّ الشرتوني اللبناني . اني لما رأيتُ التشاغل بوضع ما يفيد علمًا او تهذيبًا من افضل ما يتقرَّب بهِ العبد الى ربّهِ . ويعلي قدرهُ عند عقلاء خلقهِ . ولا سيما في عصر حفل بالمتهالكين على نشر ما يهلك الآداب . ويفسد العقائد الصحيحة ويشوّه اسم رؤساء الأديان وخدَّام معابد الله ويدعو الناس الى خلع نـير السلطة والديانة ليتمتَّع كلٌّ بما يشتهيهِ . ويجري على حكم ما يرتئيه . أقبلتُ على الانشاء والتصنيف وان كانت البضـاعة قليلة . ووسائلي اليهِ عليلة . من حيث مواردهُ عندنا وعرة الطريق اذ لم يُوفَّ العلم في ديارنا حقَّ كرامتهِ . ولم يُوزَن المرء بقدر فضلهِ ودرايتهِ . حتى ينـال من الرزق ما يسهّل عليهِ اذكاء مصابيح العلم بين جماعتهِ . فمن ثمَّ كان تشاغلي بهذا استرضاء للخالق الجواد . وتوفُّرًا على نفع العبـاد . واسعافًا لرَغبة حلية هذا الأوان . واحكم حكماء الزمان . سيّدنا البابا لاون الثالث عشر المتربّع في دست رئاسة الكنيسة الجامعة الذي غدت مناشيرهُ الحكيمة ضياء الخافقين . وعزَّز الله

برأيهِ وعملهِ الدين الكاثوليكي في المشرقين . فذلك الحبر الاعظم يستحث العلماء من اهل الديانة الكاثوليكية . على نشر الكتب والصحف العلمية والأدبية . ردًّا لما يُذاع في هذا الزمان من الاسفار والصحف المضرَّة بقواعد الألفة البشريَّة . وصونًا للمبادئ التي تثمر بها شجرة الانسانية

ولما كانت صناعة الخطابة التي أُلقيت اليها ازمَّة القلوب لم يقُم في هذا الزمان على تجاري فرسان الكلام . وتباري ركبان الاقلام . من يفرد لها كتابًا يهدي السبيل الى صافي مواردها . وينير الطريق الى ارتياد معاهدها . حتى كأنَّها معلومة السُنَن لكل من شاء ان يتسنَّم المنابر . ويخطب العامَّة والخاصَّة من الاصاغر والأكابر . حدَّثتني الهمَّة القاصرة . والعزيمة الفاترة . ان انشئ لتلك الصناعة الجليلة كتابًا يكون لخزائن فوائدها مفتاحًا . ولِمَن يؤمُّ طرقها مصباحًا . آملًا بتجديد رونقها ان ارى آداب الانجيل يانعة الثمار . وفساد الاخلاق مؤذنًا بالانكشاف عن الديار . لكن اتَّفق لي امام الشروع في العمل شرف الاجتماع باحد احبارنا الاجلاَّء . وساداتنا النبلاء . المتعطرة بنفحات فضلهم الارجاء . المستنيرة بانوار معارفهم الانحاء . المطران الياس الحويك الموصوف بالعلم والفضل والرأي . فجرى في مجلسهِ حديث جرَّ الى ذكر ذلك فارتاح اليهِ كارتياح الحبيب الى لقاء حبيبهِ . لكنهُ استحسن ايَّدهُ الله ان اطبع كتاب فصل الخطاب في الوعظ للعلاَّمة الطيب الذكر المطران جرمانوس فرحات . وان أُضيف اليهِ من القواعد والفوائد ما يجعلهُ منهلًا غزيرًا صافيًا يروى من يردهُ من طلاَّب الخطابة في المعابد والمنتديات . اذ لا فرق بين الخطابة والوعظ الا من حيث المقصود . فما يحتاج اليهِ الواعظ هو نفس ما

يحتاج اليهِ الخطيب. فمن احسن اعتبارهُ في قواعد الوعظ فلا يخفى عليهِ اعتبارهُ في قواعد الخطابة. فعدلت عن رأيي الى رأي السيد المشار اليهِ وتصفحت ذلك الكتاب فوجدتهُ مشتملًا على جلّ ما لابدَّ منهُ للمخاطب والواعظ. الا انهُ لايفي بكل حاجات العصر فكاشفت بمقصدي احد علماء اليسوعيَّة الاجلاَّء فمدح لي محاورة في علم الخطابة لجليلٍ من مشاهير خطباء الفرنسويين وبلغاء كتابهم المطران فنيلون السائر الذكر مسير الشمس والقمر. واشار عليَّ بترجمتها فترجمتها من اللسان الفرنسوي الى اللسان العربي فصار بها هذا الكتاب فصل الخطاب. فمن اراد ان يتخرج في هذه الصناعة فيكفيهِ للاطلاع على اصولها وفروعها ان يتنوَّر بنور هذا المجموع الذي احد جزئيهِ لأشهر خطباء زمانهِ وعلماء أوانهِ. من مطارنة المشرق. والآخر لأشهرهم من مطارنة المغرب. يفصل بينهما نبذة من خُطَبٍ خطبتُها في بعض اخويَّات مدينة بيروت الزاهرة ابطالًا لما هو مستفيض من الاوهام العصريَّة وتعزيزًا للمبادئ الدينيَّة. وقد رفعت خبر الشروع في هذا العمل الى مقام كل من الحبرين الاجلَّين يوحنا بطرس بطريرك طائفتنا المارونية. وغريغوريوس يوسف الاوَّل بطريرك الروم الكاثوليكيين فتكرَّم كلٌّ منهما بجوابٍ يعلن ان ذلك كان من اكبر دواعي الابتهاج عندهُ ويقوّي الامل الضعيف اذ يخيّل اليك أن الكتاب لايكاد يتمُّ طبعهُ حتى تنتشر فوائده بحول الله تعالى وهذه صورة جواب كلٍّ من البطريركين المشار اليهما ايَّدهما الله واطال ايَّامهما بمنّهِ وكرمهِ

الى حضرة ولدنا المعلم سعيد افندي الخوري الشرتوني المحترم

ايها الابن العزيز السلام والبركة الرسولية

انَّ من افضل الأُمور التي كنَّا ولم نزل نتوخاها لنصرة الدين والآداب المسيحية ونودّ من صميم الفؤاد ان يزدان بها اكليروس طائفتنا ولا يألو جدًّا في اتقانها امرًا لازمًا جدًّا لدعاة الدين ولا سيما في هذا العصر اذ قد اشتدَّ مسيس الحاجة اليهِ أَلا وهو اتقان فنّ الخطابة الروحية الذي بهِ تنعش النفوس الذابلة وتحيا القلوب الميّتة وتستنير العقول المظلمة وتتّجه اهواء النفوس الى باريها منصرفةً عن التعلق بالمطالب الدنيويّة . واذ كان ذلك يستدعي نشر كتاب جامع لقواعد هذا الفنّ مشتمل على اخصّ ما يحتاج اليهِ الخطيب في انشاء المواعظ والقائها فالله يعلم ايّ ابتهاج حصل عندنا لإقدام حضرتكم على تجديد طبع الكتاب الموسوم بفصل الخطاب للعلّامة الطيب الذكر المطران جرمانوس فرحات الذي هو الخلاصة الصافية لهذه الصناعة العالية وذلك لانهُ قد امسى نادر الوجود مع شدة الحاجة اليهِ في

مدارسنا الاكليريكية وقد استصوبنا اضافتكم اليهِ المحاورة المشهورة بنفاستهـا في علم الخطابة لأَحد سادة الخطباء في بلاد الافرنج العلاَّمة فنيلون الطائر الصيت مترجمةً بقلمكم البليغ من اللغة الفرنسويَّة وضمكم اليهِ ما يناسب الموضوع من خُطَبكم المحبَّرة النافعـة . وعليهِ فايذاناً برضانا عن عملكم هذا الممدوح وبياناً لشأن هذا الكتاب الجليل والماعًا الى فضل منشئهِ الذي افضل على البلاد بتآليفهِ الشاهدة بغزارة علمهِ ونبـالة قصدهِ وخلوص غيرتهِ في خدمة الدين والآداب اقتُضي انفاذهُ لحضرتكم وبهِ نُثني عليكم اطيب الثناء ونستمطر لكم من لدنه تعالى غيث النِعَم والبركات مكافأةً على هذه الخدمة المفيدة بل المأثرة الحميدة وما تقدَّم لكم قبلها من الآثار العلمية النفيسة الموجبة لكم الشكر عند رجال الدين والعلم والأدب

ثم اننا تنشيطًا لكل اولادنا الاكليريكيين من ايّ صنفٍ وطبقة كانوا نحثُّهم جميعًا بالرب على الاقبال على هذا الكتاب ومطالعتهِ والاستفادة منهُ بكل رغبةٍ وانصباب سدًّا للفاقة الكبرى الى وعَّاظٍ اهل خبرةٍ باساليب الكلام الروحيّ للارشاد والاقناع الى غير ذلك من الغـايات الحميدة المقصودة من

المواعظ والخطب وبهذا غنًى والبركة الرسولية تشمل حضرتكم تكرارًا في ٤ ايار سنة ١٨٩٦ الحقير

مكان الختم يوحنا بطرس البطريرك

الانطاكي

لحضرة ولدنا العزيز سعيد افندي الخوري المحترم السلام والبركة الرسولية

انتهت الينــا رسالتكم العزيزة المبشّرة لنا بنشركم المجموعة النفيسة المؤدّية الى اتقـان صناعة الوعظ على ما كنَّا قد تبلغناهُ منكم شفاهاً فنهنّيـكم ايها الابن الفاضل بهذا العمل المبرور الذي لم تدَّخروا جهدًا في سبيـل اتحافكم بهِ لخدمة الدين في الوطن العزيز ونسأَل الله ان يجزل اجركم فيهِ وينفع بهِ مطالعيهِ اما نحن فلا نأْلو جهدًا بترغيب الناس فيهِ والاقبال عليه اعتقادًا منَّا بما ينجم عنهُ من الفوائد الجمَّة الروحية ان شاء الله . هذا ونكرّر عليكم وعلى عائلتكم العزيزة بركتنا الرسولية

في ٢٥ ايار سنة ٩٦ بدمشق غريغوريوس

مكان الختم البطريرك الانطاكي

والاسكندري والاورشليمي




بسم الآب والابن والروح القدس الاله الواحد

الحمد لله الذي خاطبنا اولًا بانبيائهِ . وحقق عندنا ثانيًا بيان خطابهِ بتجسد ابنهِ الوارث ذاتًا الذي هو ضياء مجدهِ ومجد ضيائهِ . وانذرنا ثالثًا بلسان رسله ووعظ اصفيائهِ واوليائهِ . وكل شيء ينطق عنهُ في شان تخليص آدم وذريتهِ من أسر اثم عصيانهِ وانتقام خُلف خطائهِ . فنحمدهُ على ما اولانا من نعمائهِ . وجاد علينا من عطائهِ . حمدًا عريًا من تناقض قضايا انقضائهِ . جريًا بمضاء قضائهِ . بشفاعة الشفيع المشفَّع في صباحهِ ومسائهِ . حيث اقدّم لهُ فصل هذا الخطاب في ابتدائهِ وانتهائهِ . هديةً مسلمةً لا رجوع ولا استرجاع في أدائهِ . فانت حسبي يا مولاي وربي فلا تُهملنَّ عبدًا اتاك مزمَّلًا بدمائهِ . من كلوم حوبائهِ في ذمائهِ . فلا شفيع لهُ الاك يا من انتَ محجَّة رحمات الله وآلائهِ وولائهِ . اما بعدُ فيقول العبد والخادم الونيّ اسيرُ علَّتهِ . وعليل عُلَّتهِ . جبريل فرحات الراهب اللبناني اني عند معاشرتي للخطباء الذين جاريتهم في ميدان الخطاب . وماريتهم في هذا الباب . وشمتُ منهم بارق صناعة الوعظ ومضَ لي من

قبلهم ضياؤهـا . واشرق عليَّ من مطالعهم نورها وسناؤها . فخضت فيها مع من خاض . وانا ما بين انبساط وانقباض . لكوني بهذه الصناعة الرائمة بعيد المثـال . ضعيف المجال . فوقفت حـ عند ساحلها مرتاعًا . ونقفت عنها وقد طارت نفسي شعاعًا . عند ما رأيت الاكثرين من ارباب الصناعة قد غرقوا في لجّتهـا . وزاغوا عن محجتها . إما من ضعف آلاتهم . او من عدم صلاحهم وسوء نيّاتهم . او من اشتغالاتهم بدنيويّاتهم . فباشروا وظيفـة الوعظ الشريفة وهم هكذا على غير الاستوا . ولم يعتبروا انها وظيفة ربٍّ عزيز قدير على عرش وعظـهِ قد استوى . فراموا مقابلتهُ ومماثلتهُ ولم يدروا ان جدولهم صادف تيـّارًا . وريحهم لاقت إعصارًا . فما استفاقوا الا وهم منزجون في زخّارهـا . ومتلجّجون في تيّارها . فاستقوا منها عوض الماء القراح ماءً زُعاقًا . واقتنوا عوَض الفلاح والنجاح تلفًا ومحاقًا . فاحجمت حـ لا جبنًا بل ضنًّا . ولا حقيقـةً بل ظنًّا . حتى اقتبست من اربابها ومن مدّعيها ومن اصيابها ومن دعيّها ما حملني على ان الَّفت في هذه الصناعة هذا المؤلّف الذي سمَّيتهُ كتاب فصل الخطاب وجمعت اليهِ كلما يلزم الوعظ والواعظ من التنبيهات والالات في هذه

الصناعة . وما يحتاج اليه في تجارة مثل هذه البضاعة واستفدتهُ بالفعل من المجرّبات . وفهمته بالعمل من المختبرات . غير ملتفت الى توشيح اقلام العقل . ولا راضٍ بترشيح كلام النقل . فهو مؤلَّف عملي لا عقلي . وفعلي لا نقلي . والذى حرَّكني وزادني غيرةً في اتمام تأليف هذا المضمون الاسنى . عدم وجود علم مثل هذا الموضوع عند ابناء العرب في هذا المعنى . وهو مما لا يُستغنى عنهُ في اللغة العربية . في هذه الجهات الشرقية . ورتَّبته في مقدمة واربعة اقسام وخاتمة . ونحن نسأل الله فيهِ حسن الخاتمة . ليكون دُستُوراً ينقل عنهُ من قصد صناعة الوعظ لنفع التائبين وفائدة الطالبين الراغبين . ويدعو لمؤلفه بالرحمة والرضوان . أمام الحاكم الديَّان . آمين

المقدمة

في ماهية الوعظ وَضرورتهِ وفي شرف الواعظ

وفيها ٣ فصول

الفصل الاول

في ماهية الوعظ

الوعظ هو نصح الانسان الخاطي بما يسوقهُ الى التوبة والايمان واصلاح السيرة . ومن ثَمَّ قال السيد المسيح لرسلهِ انطلقوا الى العالم كلِهِ وبشّروا بالانجيل في الخليقة كلّها (مرقس ١٦: ١٥) اي سوقوا العالم الى التوبة والتعليم والى اصلاح السيرة بالايمان . والمراد بالانسان الخاطي هنا كل انسان فاللام فيهِ لاستغراق الجنس لانه لا صالح الا الله وحدهُ (لوقا ١٨: ١٩ وهكذا يقول المرنّم كل انسان كاذب (مزمور ١١٥: ٢) فمن ثم كان الوعظ لازمًا لكل انسان لازمًا للناقص ليكون كاملًا وللكامل ليثبُت في كمالهِ ثم ان النصح انواع منهُ ما يسوق الى حسن المعاشرة والسلوك العالمي ومنهُ ما يسوق الى التدرّب

باكتساب العلوم والحكمة. ومنه ما يسوق الى اكتساب الغنى بالمتاجرة فمثل هذا النصح لا يُعدّ وعظاً لانهُ لا يطابق الغاية التي جاء المسيح لاجلها وهي تخليص النفوس بل الوعظ الحقيقي هو ما يسوق الى التوبة والايمان واصلاح السيرة وبهذا القيد خرجت انواع الوعظ الباطل المقدم ذكره ودخل الوعظ الحقيقي الذي غايته تخليص النفوس بالتوبة والايمان واصلاح السيرة ومن اجله تجسد ابن الله وكابد ما كابده من الآلام والموت لا من اجل الوعظ الباطل الذي يسوق الى اكتساب الامور العالمية ومن هنا قال السيد لرسله وعلّموهم حفظ ما اوصيتكم بهِ (متى ٢٨ : ٢٠) فما اكثر المنخدعين بهذا حيث يتوهمون الوعظ الباطل حقيقياً فينصحون الغير ويعظونهم ليكونوا حكماء متدربين باشياء العالم ويذهلون عن وعظ النفس وتخليصها فلا جرَمَ انهم ينخدعون كما انخدع جنود شاول فظنّوا تمثال داود حقيقياً (١ ملوك ١٩ : ١٦) فلهذا لم يظفَروا به ولا اولئك يظفَرون بالوعظ الحقيقيّ الذي هو التوبة والايمان واصلاح السيرة ثم ان يوحنا صاحب الرؤيا أبصر المسيح جائلاً بين المنائر الذهبية بأوصاف كثيرة منها أنهُ كان لابساً ثوباً طويلاً وعيناه كلهيب النار ورجلاه كالنحاس

وصوتهُ صوت امواه كثيرة وسيف ذو حدين يخرج من فيه ووجهه يضيء كالشمس (رؤيا ١ :١٣) فهذه هي صفات الوعظ الحقيقي الجائل ما بين المؤمنين المنائر الذهبية المتنفسة الاولى ان يكون الوعظ ثوبًا طويلًا ساترًا خطايا الانسان بالتوبة والايمان الثانية ان تكون عيناه كالنار اي يكون وعظًا ناظرًا الى النفس خارقًا فيها لينقّي صدأها حيث يقول لها اجعليني كخاتم على قلبك كخاتم على ذراعكِ (نشيد ٨ :٦) والثالثة ان تكون رجلاهُ كالنحاس اي يكون مؤسسًا على قاعدتي الايمان القويم وسيرة الكمال المسيحي هكذا قال المسيح لتلاميذه اذهبوا وتلمذوا كل الامم وعلّموهم حفظ جميع ما اوصيتكم بهِ (متى ٢٨ :١٩) الرابعة ان يكون صوته صوت امواه كثيرة اي يكون قويًا بحقائقه تروَى منه النفوس الظامئة الى الخلاص حيث يقول هلمّوا فاشتروا خمرًا ولبنًا بلا فضة ولا عوض (اشعيا ٥٥ : ١) الخامسة ان يكون سيفًا ذا حدين اي يكون موثرًا في تأْديب النفس والجسد كقول الرسول ان كلمة الله حيٌّ فعَّالٌ امضى من كل سيف ذي حدّين نافذ حتى مفرق النفس والروح والأوصال والمِخاخ ومميّز افكار القلب ونياتهِ (عبرانيين ٤ :١٢)

السادسة ان يكون وجهه مضيئًا كالشمس اي يكون وعظًا ظاهر الفائدة ينير العقول والبصائر فهذا هو الوعظ الحقيقي الواجب علينا ان نبحث عنهُ بهذه العلامات ونجتني منهُ ثمرة التوبة والايمان واصلاح السيرة

الفصل الثاني
في ضرورة الوعظ

ان الله في البدء خلق الانسان على صورتهِ ومثالهِ ليجعلهُ لهُ ابنًا وارثًا في ملكوتهِ الابديّ فلما سقط الانسان من درجة هذه البنوّة بخطيتهِ وسلبت منهُ نعمة البنين لم يستجز الله من حبهِ لهُ ان يهملهُ بل كما قال الرسول ارسل الله ابنهُ مولودًا من امرأة مولودًا تحت الناموس ليفتدي الذين تحت الناموس لننال التبنّي (غلاطية ٤:٤) اي ان الله الآب من فرط محبتهِ لخلاص الانسان ارسل كلمتهُ متجسدًا كقول البشير والكلمة صار جسدًا وحلّ فينا (يوحنا ١ : ١٤) ودخل تحت دَيْن الخطيئة التي لم تُعرَف الّا من قِبل الشريعة (رومية ٧:٧) ليشتري الانسان ويفي عنهُ هذا الدين ويكون لهُ بهِ الفداء والخلاص من الهلاك

ويردّ الينا ذخيرة البنين التي هي الوراثة الابدية في مجـد الله الآب الذي اختارنا لها بنعمتهِ مجّانًا (افسس ١:٧) ولهذا كان تخليص النفس عند الله هو الغـاية القصوى واعظم الاشياء ضرورةً لكونهِ ثمن دم ابن الله الذي كان غاية تجسدهِ ومجيئـهِ وآلامهِ وموتهِ . ومن اجل هذا الفداء العجيب تقدّم الله ببعث الآباء والأنبياء ليكونوا مبشرين لهذا الخلاص عند مجيئهِ فلما جاء ضامن دَيننا وخلاصنا اي يسوع كلمة الله اضطرم بغيرة هذا الخلاص اضطرامًا لا اضطرام وراءهُ وهو انهُ خلَّص الانسـان بسفك دمهِ حُبًّا بهذا الانسان كما قال ليس لاحد حبّ اعظم من هذا ان يبذل نفسهُ عن احبَّائهِ (يوحنا ١٥:١٣) ثم انهُ لم يقف عند هذا فقط بل انهُ تعالى اقام لهُ وكلاء أمناء في هذا الخلاص قبـل صعودهِ عنا الى السماء الى انهُ اختار لهُ رسلًا واعطين وسلّمهم وظيفتـهُ التي هي خلاص النفس وبعثهم الى آفـاق المسكونة قائلًا لهم اذهبوا الى العالم أجمع واكرزوا بالانجيل للخليقة كلهـا (مرقس ١٦:١٥) وكان هذا الانذار ضروريًا جدًّا للخلاص لانهُ ان لم يكن الوعظ فمن اين الايمان والتوبة وان لم يكن الايمان والتوبة فمن اين الخلاص ولهذا يقول الرسول كيف

يسمعون بلا مبشّرٍ وكيف يبشّرون ان لم يُرسَلوا (روميه ١٠ : ١٤)
فالوعظ اذًا ضروريّ لاتمام مشيئة الله في تخليص النفوس
ووظيفتهُ اشرف وظائف بيعة الله اولًا لان الله مارسها بذاتهِ ثانيًا
لانها وظيفة أُقيمت من الله نفسهِ بغير توسط ثالثًا لان مراد الله
يتمّ بها وهو تخليص النفوس رابعًا لانها الواسطة الكبرى
للخلاص فقد تقرر الآن ان الوعظ هو الدرجة الرسولية التي
هي اشرف الدرجات في الارض والسماوات

الفصل الثالث

في شرف الواعظ

اعلم ان الواعظ انسان قائم في وظيفة المسيح الاله وغاية
هذه الوظيفة تخليص النفوس المتوقف خلاصها على الوعظ
والتعليم فمن ثم كان الواعظ الذي يَعِظ بكلام الله اولًا صوت
الله وليس الواعظ هو المتكلم بل روح الله المتكلم فيهِ وهذا
معلوم من قولهِ تعالى لستم انتم المتكلمين لكن روح ابيكم هو
المتكلم فيكم (متى ١٠ : ٢٠) فالواعظ اذًا هو بوق الله يصرخ
فيهِ على الناس لينتبهوا الى خلاصهم وما لي اقول بوق الله بل هو

فم الله كقول النبي" ان اخرجتَ النفيس من الخسيس كنت كفمي (ارميا ١٥: ١٩) فكما ان الفم يساعد الانسان على النطق كذلك الواعظ يساعد الله على تخليص الانفس ومن ثمَّ يقول الرسول نحن انصار الله (١ كورنتس ٣: ٩) اي مساعدوه على اتمام مرادهِ حقاً انها وظيفة شريفة رسولية فاز بها رسول شريف وهو الواعظ قال القديس ديونيسيوس الاثيني" لا يوجد فعل الهي" يفوق الافعال الالهية كلها مثل مساعدة الله على تخليص الانفس وهذه المساعدة خاصّة بالواعظ ففعلهُ اذاً يفوق كل" فعل في بيعة الله

ثانياً ان الواعظ امين المسيح ووكيلهُ في وظيفته وهو القَهرَمان المطلع على اسرار الخلاص كقولهِ تعالى الى رسلهِ المبشرين الواعظين لكم أُعطيت معرفة اسرار ملكوت السماوات (متى ١٣: ١١) ومن شأن القهْرَمان والخازن ان يتصرَّف برزق سيّدهِ في الامور اللازمة بموجب السلطان الذي معهُ لانهُ خازن اسرار سيّدهِ هكذا يقول الرسول فليحسبنا الانسان هكذا كأننا خدام المسيح وخزَنة اسراره (١ كور ٣: ١) فكما ان يوسف اقيم وكيلاً لفرعون لتوزيع القوت على المصريين (تكوين ٤١: ٤١)

كذلك الواعظ أُقيم وكيلًا للمسيح في توزيع القوت الروحي الذي هو كلام الله على المؤمنين وكما ان الروح تُفضَّل على الجسد كذلك يُفضَّل هذا القوت على ذاك قال القديس يوحنا فم الذهب لن يوجد شيء مرضٍ لله مثل الاجتهاد على تخليص النفوس لان خلاص نفس واحدة اعظم من ان تتصدَّق باموال اكثر من اموال سليمان فما اصدق ما قالهُ معلم المسكونة لان النفس ابدية والاموال زمنية وأيُّ مناسبةٍ بين الابدي والزمنيّ

ثالثًا ان شرف فعل الواعظ يفوق كل فعل في بيعة الله لان الوعظ هو الطريق الموصل الى اكتساب اسرار البيعة والى اكتساب الفضائل الالهية وكرامة الابدية فلولا الوعظ لما كان المؤمن مؤمنًا ولا الرسول رسولًا ولا الشهيد شهيدًا ولا القديس قِدّيسًا ولا الخاطئ تائبًا ولا التائب متخلصًا وهذا ما عناه الرسول في رسالته الى اهل رومية (١٠: ١٣ ــ ١٥) فان يكُ هذا شرف الوعظ فما ظنك بشرف الواعظ الذي هذه حرفتهُ ووظيفتهُ ان الملوك تُحترَم وتُهاب لانهم يحمون البلاد من هجمات العدو ويؤمنون الرعايا وهذا الشرف الصادر لهم انما هو من وظيفتهم كذلك الواعظ تجب لهُ الكرامة لانهُ واقف في وجه

العدو الذي هو الشيطان ومؤمن المؤمنين شرّ الخطيئة وغاية وظيفتهِ تخليصهم منها فهو اذًا شريف لان وظيفتهُ شريفة فلهذا تحق لهُ الكرامة لا من أجل شرف شخصهِ بل من اجل شرف وظيفتهِ

فكما تجب لبطرس الرسول الكرامة والطاعة على جميع المؤمنين شرقًا وغربًا من رؤساء ومرؤسين لا نظرًا الى شخصهِ بل الى وظيفتهِ وهي الرئاسة المطلقة التي قلدهُ اياها المسيح بقولهِ لهُ . ارعَ خرافي ارعَ نعاجي (يوحنا ٢١ : ١٥) ولهذا كانت الطاعة واجبة لهُ ولخلفائهِ الى انقضاء العالم حقًّا

هكذا تجب الكرامة للواعظ المحق الذي خاطبهُ الله في شخص الرسل· اذهبوا الان وتلمذوا كل الامم (متى ٢٨ : ٢٠)ووجه المناسبة بينهما ان بطرس قيل لهُ ارجع وثبت اخوتك اي في قرار الايمان والواعظ قيل لهُ بالنتيجة ارجع وثبت اخوتك أي في قرار الاعمال . وخلاص الانفس متوقف على الايمان والاعمال قال يعقوب الرسول الايمان ان كان بغير اعمال فهو ميت في ذاتهِ (يعقوب ٢ : ١٧) فالشرف الحاصل لبطرس من جهة رياسة الايمان هو نفسه حاصل الواعظ من جهة رياسة الاعمال والعجائب التي صنعها بطرس في رياستهِ ليست باعظم من العجائب التي يصنعها الواعظ كل يوم في وظيفتهِ

قال القديس غريغوريوس الكبير ان رد نفس واحدة الى التوبة اعجوبة اعظم من اقامة الموتى لان الاب السماوي ارسل ابنهُ لخلاص العالم لا لاقامة الاموات ومن هنا يخبرنا النبي عن شرف درجة الواعظين بقولهِ يُضيء العقلاء كضياء الجلَد والذين جعلوا كثيرين ابرارًا كالكواكب الى الدهر (دانيال ١٣ : ٣) اي ان الواعظ بمنزلة كوكب مضيء ينير السائرين في ظلام الخطيئة فيهتدون فقد تقرر اذًا ان شرف الواعظ يفوق كل شرف في بيعة الله



القسم الاول

في شروط الوعظ وفيهِ أربعة فصول

الفصل الاول

في موضوع الوعظ

ان بعض المتقدمين من الواعظين كانوا يبنون مواعظهم على مواضيع مختلفة فكانوا يبتدئون مثلًا بفضيلة المحبة ثم ينتقلون منها الى التواضع ثم الى الحسد وغيرهِ وهلمَّ جرًّا وقد استعمل السيد المسيح هذه الطريقة في بعض مواعظهِ مثل عِظتهِ على الجبل وغيرها (متى ٥:١) والرسول تبع هذه الطريقة في اكثر رسائلهِ. وأما المتأَخرون من الواعظين فقد عدلوا عن هذه الطريقة وبنوا مواعظهم على موضوع واحد من الابتداء الى الانتهاء لاسباب. الاول التمكُّن من ضبط صناعة الوعظ بالقواعد والقوانين لان تلك لا ضابط لها. الثاني ان الموضوع اذا كان واحدًا كان تأييدهُ في عقول السامعين أَشدّ وأَثبت أَلا ترى ان المطرقة اذا

كُرّرت الضرب بها في موضع واحد اثَّرت فيهِ ضرورةً وكسرتهُ واذا خالفت في الضرب كان التأثير ضعيفًا لا يبلغ الى الكسر . الثالث ان السامعين يتأَنون فهمًا من تقرير الموضوع الواحد فيكونون ح متفهّمِين فيعملون بما يسمعون كقول الرسول كونوا عاملين بالكلمة لا سامعين لها فقط (يعقوب ١ : ٢٢) واما اذا كثرت المواضيع في الموعظة فلا يمكن استيعابها لان السامع بَينَا يكون مصغيًا الى حقيقة ذلك الموضوع ينتقل الواعظ الى غيرهِ فلا يكون السامع ح مستفهمًا بل متفرجًا . الرابع أن الواعظ يكون اقدر على ان يتقن صناعتهُ في موضوع واحد منهُ على اتقانها مع الاشتغال بكثرة المواضيع لان الصانع اذا كان مقيَّدًا بمهنةٍ واحدة يُحسن اتقانها واذا مارس صنائع كثيرةً فلا يتقن منها شيئًا . الخامس ان العلوم الآن كثرت والعقول اتسعت عمَّا كان سابقًا فان لم يكن الواعظ متعمّقًا في صناعتهِ شديد التقرير في معاني وعظهِ فلا يمكنهُ اقناع كل السامعين الذين قد يكون فيهم كثير من الحكماء والعلماء . واقناع الحكيم والراهب عسِرٌ جدًّا لما استقرَّ وتمكن في عقولهم من المعاني من مداومة الدرس والمطالعة والمذاكرة وهذا لا يتأَتى الواعظ الا اذا كان موضوع وعظه

واحداً فمن ثمّ اتّفق المتأخرون على هذه الطريقة مُتمسكين بقول الرسول امتحنوا الاشياء كلها وتمسكوا بأفضلهـا (١ تسالونيكي ٥: ٢١) ولما رأَوا هذا الافضل تمسكوا بهِ ونرى السيّد مارس هذه الطريقة ايضاً في مثـل الزرع وغيرهِ والرسول في بعض مواضع من رسائلهِ

الفصل الثانى

في مدة الوعظ

ينبغي ان تـكون مدة الوعظ متوسطة بين الطول والقِصَر مقدارها ساعة لان الطول مملّ والقِصَر مخلّ . قولنا الطول مملّ اي ان السامعـين يملُّون من طولة الوعظ ولا سيما اذا كان بغير صناعة بان كان الواعظ غير مستكمل لآلات وعظهِ واذا ضجروا بطلت عندهم فائدة الوعظ وربمـا ينسون ما كانوا قد حفظوهُ عند تشوُّقهم اليهِ لان العقـل اذا ثبت منحصراً من جهة التفكر والفهم انقبضت جهة المخيِّلة فيعمى عن ان يعود يرى شيئاً فيفقِد اللذَّة والرَغبة اللازمة في سماع الوعظ ولا خفاء ان النفس تفتر من الانتظار والجسم يضعُف من عدم الحركة الاختيارية فيفوت

المراد من سماع الوعظ الذي هو تعليم التخلص من الرذيلة واكتساب الفضيلة قالت الحكمة الالهية انا سوداء ولكني جميلة (نشيد ١ : ٤) نعم يا نفس انك لجميلة لسماعك كلام الله لكن لماذا انتِ سوداء وهذا ينافي الجمال لانهم جعلوني حارسةً في الكرم وما حفظت كرمي اي انها اسودّت من طول مُقامها في سماع الوعظ حتى تشوَّه جمالها من حرّ الضجر فلهذا لم تحفظ كرم نفسها اي تهذيب سيرتها فالماء اذا طال مُكثهُ في موضعهِ أنتن والمريض اذا لازمتهُ بمعاطاة المسهلات والضمادات قتلتهُ كذلك السامعون اذا طال وقوفهم رجعوا بصفقة خاسرة فلهذا كانت الطريقة الملكية اي المتوسطة أنسب في الوعظ * وقولنا والقِصر مخلّ اي اذا اختصرت الوعظ في غير موضعهِ حدَث منهُ الخلل في المعنى اي ان السامعين لا يتمكنون من تتمَّة الفائدة كالارض العطشانة فانهُ لا يُرويها رَشاش الماء قالت الحكمة الالهية كلوا يا أحبَّاءي واشرَبوا يا اخوتي واسكروا من خمرة الوعظ لانكم عِطاش (نشيد ٥ : ١) الا اذا كان السامعون قليلين او الزمان غير موآتٍ فالاختصار انسب لكن يُشترَط فيهِ أن تكون مادّة الوعظ مناسبة للاختصار كما وعظ السيّد السامرية (يوحنا

٤:٧) فانهُ تعالى لما رأى المرأة وحدها والوقت غير مناسب الوعظ اختصر العبارة معها في مادّة مختصرة فآمنت بهِ

الفصل الثالث

في سهولة عبارات الوعظ

يلزم ان يكون الوعظ بالفاظ سهلة واضحة ظاهرة المعنى ليفهمها الرجال والنساء والاطفال كما كان يفعل السيّد ربّ الوعظ في وعظهِ الناس . فانهُ كان يخاطبهم بالفاظ سَهْلَة واضحة المعنى ويمثل لهم امثالًا يسهل عليهم فهمها مِثل مَثَل الزرع والحقل والبقر والشجر وما يشبه ذلك من الامثال الظاهرة المعنى ومع هذا كلهِ لم يكونوا يؤمنون كما قال لهم المخلّص. ان كنت قد قلت لكم الارضيات ولم تؤمنوا فكيف ان قلت لكم السماويات تؤمنون (يوحنا ٣ : ١٢) هكذا الوعظ قد يكون سهلًا ويجهلهُ الكثير فكيف يفهمونهُ وهو صعب مُعقَّد ولهذا يقول الرسول وانا لم آتِ ببراعة الكلام والحكمة مبشرًا لكم بشهادة الحكمة (١ كورنتس ٢ : ١) فالمفهوم من هذا كلهِ ان الله ورسولهُ ما وعظا الناس الا بالفاظ سهلة واضحة ليفهموا ويستفيدوا . ليظهر لنا ان

النفع الكليّ ليس هو الَّا في سهولة الوعظ على السامعين . واذا تصفحت الكتاب المقدّس قديمهُ وحديثهُ تجد وعظهُ مبنيًا على هذه السُهولة لأن شرف الوعظ ليس بتعقيد عباراتهِ بل بسهولة معانيهِ المفيدة لان المحرك فيهِ قوة الله التي تظهر في ضعف العبارات . هذه هي الطريقة التي تركت الألوف تلحق يسوع الى البرية وينسون ذواتهم من ضروريَّات معاشهم . هذه هي التي صيّرت الزانية عفيفةً تائبة وجعلت المكَّاس واعظًا والصيَّادين مبشرين . قال الأنبا ابيلا ان شرف الوعظ ليس هو التكلُّم في الله مدةً من الزمان بل شرفهُ هو انهُ اذا اتى من يسمعهُ وكان شيطانًا يخرج ملاكًا . ان يوحنا صاحب الرؤيا لما ابتلع الكتاب من يد الملاك كان حلوًا في فمهِ ومرًّا في بطنهِ (رؤيا ١٠ : ١٠) هكذا يلزم ان يكون كتاب الوعظ اذا سمعهُ الخاطئ يراهُ سهلًا في سمعهِ لكن اذا ابتلعهُ اي فهمهُ يجدهُ مرًّا في بطنهِ اي يتألم منهُ نادمًا متوجعًا على اثمهِ . أَلستَ تعلم ان الطريق السَهل مقصود من جميع الناس حتى الاقوياء والطريق الشاقّ المتعب مقصود من القليلين لا يقوى عليهِ الا الاقوياء ويسلكونهُ متضجرين . هكذا الوعظ السهل فانهُ مفهوم لكل احد وكل يبلغ منهُ مرامهُ فاذا

تعقَّدت عباراتهُ صار مكروهاً حتى عند العلماء لان الوقت وقت تعليم لا وقت جدال « للبكاء وقت وللضحك وقت» (جامعة ٣ : ٤)

الفصل الرابع

في ابتذال عبارة الوعظ

ليس بضروري للوعظ ان تكون الفاظهُ مبنيـة على قواعد النحو والتصريف والمعاني والبيان ولا على تنميق التراكيب وسبكها في قوالب مصنَّعة. فان هذه كلها قشور خارجة يُلهي السامعين رونقهـا الظاهر عن تفهُّم المعاني المكنونة فيها فتفسد اثمار الوعظ التي هي تخليص النفوس . اعتبر وعظ السيّد تجدهُ عريًّا بالكلية من هذه القشور الباطلـة لان المراد من الوعظ انما هو تهذيب السامعين وتوبتهم وخلاصهم لا تعليمهم الفصاحة والبلاغة والاعراب فان كان الرسول ترضيهِ بشارة الانجيل ولو كانت بعلة الرياء والتظاهر وسلوك الحال كما قال. ماذا عليَّ حسبي انَّ المسيح يُبشّر بهِ على كل وجهٍ بغرضٍ كان او بالحق و بهـذا فرحت وسأفرح (فيلبي ١ : ١٨) فكم يرضى و يفرح اكثر اذا كان الوعظ ظاهراً بالبساطة المسيحية البرية من شوائب الرياء والنقص

بل الذي تعدّهُ فيهِ نقصاً انما هو كماله وهو ابتذال الالفاظ فلا تمدح الوعظ لانهُ فصيح بل امدحهُ لانهُ مفيد قال بعض القديسين اذا رأيت سامعي الوعظ قد خرجوا من البيعة منكَّسي الرؤس صامتين فأَيقن انهم قد استفادوا وان الوعظ قد اثمر فيهم فهذا هو الممدوح من الوعظ وهذا هو الذي اشتهاهُ الرسول قائلًا أُوثر ان اقول في الكنيسة خمس كلمات بعقلي اعلِّم بها آخرين على ان اقول عشرة آلاف كلمة بلسان (١ كورنتس ١٤: ١٩) مراده بالعقل المعنى المفيد ومراده بعشرة آلاف كلمة الالفاظ المنمقة بالفصاحة ولا فائدة فيها فالمفيد ولو كان قليلًا حتى خمس كلمات افضل من الكلام غير المفيد ولو كان ربوات . فما الفائدة من الصنم اذا كان مزيّناً وهو عديم الحسّ . وما الفائدة من الوعظ اذا كان مزخرفاً ولا فائدة فيهِ . فلسنا بوثنيين ترضينا فخامة الالفاظ بل نحن مسيحيون مأمورون بالوداعة والتواضع والبساطة . ان الطاووس تتغالى الناس بريشهِ واما لحمهُ فيُطرَح للكلاب هذه صفة الوعظ المزيَّن بالالفاظ كالطاووس بريشهِ وليس لهُ معنى يفيد وقد اخبرنا السيد عن القبور المجصصة بان داخلها رمم الاموات (متى ٢٣: ٢٧)

القسم الثالث

في شروط الواعظ وفيهِ عشرة فصول

الفصل الاول

في سيرة الواعظ

قال الله حسب التلميذ ان يكون مثل معلمهِ (متى ١٠: ٢٥) انهُ لمن المعلوم ان الواعظ تلميذ السيد الذي اسَّس وظيفة الوعظ ولما كان المسيح كاملًا في كل فضيلة لزم الواعظ الذي هو تلميذهُ ان يكون كاملًا بسيرتهِ في جميع الفضائل كما قال الرسول وأَنتَ في كل شيء اجعل نفسك مثالًا للأَعمال الصالحة في التعليم (تيطس ٢: ٧) ولاسيما فضيلة التواضع التي جعلها يسوع أَساس سيرتهِ. هذه الفضيلة نفسها يلزم الواعظ أَن يعانقها حياتهُ كلها ويبني عليها اولاً عملهُ ثانيًا علمهُ مثل يسوع معلمهِ الذي اخبرنا عنهُ الكتاب المقدّس انهُ كان يعمل ويعلّم (اعمال ١: ١) ونرى فضيلة التواضع ضروريةً للواعظ جدًّا اولًا لان الوعظ من شأنهِ ان ينفخ الواعظ بالكبرياء لانهُ معلّم في وظيفتهِ

ومكرَّم عند الناس فمن هنا كان التواضع لازمًا لهُ ولا سيما وقد امرَنا بقولهِ تعلَّموا مني فاني وديع ومتواضع القلب (متى ١١: ٢٩) ثانيًا لان الواعظ اذا احكم التواضع احكم معهُ جميع الفضائل لان التواضع اساس كل الفضائل قال القديس قبريانوس ان الاتضاع إسّ القداسة. وقال القديس غريغوريوس الكبير ان الاتضاع معلم كل الفضائل ووالدها حقًا . ان الاتضاع مختصر الفضائل والكمال ومجموعها كما ان الكبرياء مختصر الرذائل ومجموعها ولهذا أتى يسوع بالتواضع متجسدًا ولاسيما في تعليمهِ لنحوي معهُ جميع الكمالات . فمن هذه الجهة كان التواضع لازمًا للواعظ جدًّا لكي يتقن معهُ جميع الفضائل فيكون كاملًا في سيرتهِ حتى يستطيع ان يقول مع يسوع معلمهِ مَنْ منكم يُثبت عليَّ خطيئةً (يوحنا ٨ : ٤٦) فاذا كان تامًّا بسيرتهِ الفاضلة امكنهُ

ح أن يعلّم ويعظ بمثالهِ الصالح اكثر ممَّا يفعل بتعليمهِ قال القديس اغناطيوس اليسوعيّ ان المثال الصالح واسطة مفيدة موثرة في تحصيل الثمار في القريب ولهذا يقول الله فليضئ نوركم قدّام الناس ليروا أعمالكم الصالحة ويمجدوا أباكم الذي في السماوات (متى ٥ : ١٦) اي انهم يمجدون الله

بالعمل الصالح الذي اكتسبوهُ من مثالكَ الصالح يا ايها الواعظ الصالح حتى كأنك تقول بلسان سيرتك المقدسة للناظرين اليك اقتدوا بي كما اقتديت انا بالمسيح (١ كورنتس ٤: ١٦) قال سينكا الفيلسوف الطبيعيّ ان التعليم بالكلام سَفَر طويل واما المَثَل الصالح فهو طريق قصير وهذا ظاهر لكون الناس يصدّقون ما يرونهُ بالعين اكثر مما يصدّقون ما يسمعونه بالأذن. فانهم اذا سمعوكَ تعِظ على حِفظ العفة ورأوكَ سائرًا بها صدَّقوا ما تقولهُ وامكن لهم حفظها والَّا فهم يقولون حفظها غير ممكن ولو كان ممكنًا لكان يحفظها من يعِظ بها وقس عليهِ * قال احد العلماء لا توجد واسطة تحركَ السامع مثل أن يكون القائل متحركًا مثلًا كيف يمكنك ان تحرّكَ غيركَ الى اقتناء فضيلة ليست فيك فكن اذًا ذا سيرة كاملة لتحركَ غيركَ الى الكمال او على الأقلّ الى التوبة فاذا كانت سيرتكِ كاملةً يا ايها الواعظ امام الناس تقطع أَلسنتهم عنك فلا يجدون فيك علةً تستحقّ القذفَ بها . لما اراد اليهود ان يرجموا يسوع قال لهم اني أَريتكم اعمالًا كثيرةً حسنةً من عند ابي فلايّ عمل منها ترجُموني (يوحنا ١٠: ٣٢) كن اذًا كيسوع لتقول عند ما تُرجَم بالظنون

مثلما قال يسوع ولا تسمع ذلك المَثل يا ايها الطبيب اشفِ نفسَك (لوقا ٤ : ٢٣) قال القديس ديونيسيوس الأتينيّ يلزم الكهنة والواعظين ان يكونوا مقدَّسين ومُقدِّسين وكاملين ومكملين ومستنيرين ومنوِّرين لأنَك ان كنت يا ايها الواعظ غير متَّقٍ فكيف يمكنك ان تجعل غيرك متَّقيًا. وان كنت متعدّي الناموس فكيف تلزم غيرك بحفظهِ . فاسمع الرسول موبّخًا لك انتَ الذي تعلّم غيرك أَلا تعلّم نفسك الذي تنادي قائلًا لا يُسرَق أتسرق الذي تكرز ان لا يُزنَى أتزني الذي تمقت الاوثان أتنتهك ما هو قدسٌ (روميه ٢ : ٢١ — ٢٢) وقد عرفت شرف وظيفتك التي تشرَّفت بها وأَنك تلميذ ذاك المعلم الصالح الذي لم يصنع جورًا ولم يوجد في فمهِ مكر (اشعيا ٥٣ : ٩) فاحذر اذًا من ان تكون في وعظك وتعليمك عديم الحسّ . قال القديس يوحنا السلمي ان عديم الحسّ اعمى ويعلّم النظر . يصف الشِفاء للجرح ولا يكفّ عن حكّهِ فان كانت هذه حالك فكيف تستطيع شِفاء قوم آخرين من الداء الذي هو فيك هل يُجنى من الشوك عِنَب او من العوسج تين . (متى ٧ : ١٦) فان كنت شوكًا وعوسجًا فمن يقدر ان يجني

منك ثمرًا لذيذًا . قال الفلاسفة كل شيءٍ يلد شبههُ فكن متواضعًا فتزرع التواضع في غيرك. كن عفيفًا فتوجد العفة في آخرين قال الحكيم اذا امتلأت السحب من المطر تصبّهُ على الارض (الجامعة ١١ :٣) انت السحابة فكن كاملًا لتغيث قلوب الناس من امواه علمك ولتكن هذه نتيجة كلامنا وهي انك تعظ اولًا بحسن سيرتك ومثَلك الصالح ليثمر تعليمك في قلوب الناس ثمرًا طيّبًا لان تمام العلم بالعمل واعمل كما عمل يسوع معلم وظيفتك فانهُ غسَل اقدام تلاميذهِ اولًا ثم امرنا قائلاً فيجب عليكم أنتم ان يَغسِل بعضكم أرجل بعضٍ (يوحنا ١٣ : ١٤)

الفصل الثاني

في أَدب الواعظ

انَّ الادب يلزم الواعظ ضرورةً لكون وظيفتهِ تهذيب الناس وتأديبهم فكما ان الواعظ العلميّ لا بدَّ لهُ من مقدَّمة واقسام هكذا الواعظ العَمَلي فان لهُ مقدمةً واقسامًا فمقدمتهُ الادب واقسامهُ يأتي بيانها وقد سار يسوع في هذا الادب حياتهُ

كلها كما يخبر عنهُ البشير بقولهِ وكان يسوع يتقدم في الحكمة والسن والنعمة عند الله والناس (لوقا ٢ : ٥٢) فقد كانت حياة يسوع في العالم مملوءَةً من حكمة الآداب والفطنة في وعظهِ وتعليمهِ العَمَليّ واللفظيّ ومن هنا يحثنا الرسول قائلًا ليظهر حِلمكم لجميع الناس (فيلبي ٤ : ٥) لان الادب والاحتشام مثال صالح في بُنيان القريب وهو واجب لكل مسيحيّ . قال ترتوليانوس انهُ في ابتداء الكنيسة كان يقول الوثنيّ لرفيقهِ اذا رآهُ محتشمًا هل رأيت مسيحيًّا. فان كان الادب يلزم كل مسيحيّ فهو للواعظين أَلزم لان الواعظ اذا كان مؤدّبًا كان وعظهُ مضاعفًا فيكون واعظًا في البيعة بلفظهِ وواعظًا في الشوارع والمنازل بأَدبهِ هناك تتعلم منهُ الناس فضيلة التوبة والايمان . وهنا يتعلمون منهُ فضيلة الادب . هناك اذا سمعوهُ يعترفون بخطاياهم وهنا اذا رأوهُ يستحيون ويحتشمون . وهذا الادب والاحتشام كان غاية وعظ القديس فرنسيس الكبير بل كل القديسين بل ربّ القديسين نفسهِ الذي قال لذاك المضاف اذا دُعيتَ الى عرس فلا تتكئْ في اول المتكآت (لوقا ١٤ : ٨) وقد شبه السيدُ الواعظ اولًا بالملح (متى ٥ : ١٣) لان الملح يصون من الفساد

هكذا الواعظ فانهُ بأَدبهِ يصون من فساد الاخلاق نفسهُ وقريبهُ وثانيـاً بالنور فانهُ يكشف ذيل الظـلام فيتَّضح الطريق المستقيم هكذا الواعظ فانهُ بأَدبهِ يَهدي نفسهُ وقريبـهُ وثالثاً بسراج على منارة فانهُ يضيءُ لكلّ من في البيت. هكذا الواعظ فانهُ بأَدبهِ يضيءُ بيت الله اي بيعتهُ بسيرتهِ الفاضلة . فاذا فسد الملح وطفيءَ النور وانكسر السراج فلا تعود تفيـد شيئاً بل تُطرَح خارجاً وتُداس. هكذا الواعظ فانه اذا فقد الادب فلا يفيـد شيئاً بل يصير للناس سخريةً * قال القديس اغوستينوس انا نجتهـد لنسلك في جميع اعمالنا وحركاتنا بنظـام لا يغيظ احداً بل يعمّر الجميع لأَن هذا هو اللائق بوظيفتنا نحن الواعظين. لكون الناس تنظر الى الخارج لا الى البـاطن فمن ثَمَّ كان الواعظ ملترماً بالأَدب في كلّ من هذه الانواع الآتي ذكرها الاول الحركات يلزم الواعظ ان يكون مؤَدباً بهـا اي تكون حركات حواسّـهِ واعضـائه مرتبةً منتظمةً وبهذا الادب كان يسوع مؤَدباً قال النبيّ قصبةً مرضوضةً لا يكسر وكتَّاناً مدخناً لا يطفيءُ (اشعيا ٤٢ : ٢) ان الواعظ ينبغي لهُ مثل هذه الرصانة والرزانة والا فهو كما قال الحكيم. ذو الاثم هو رجل بليعال فانهُ يسعى بخيانة الفم

يغمز بعينيهِ ويتكلم برجليهِ ويُعلم بأصابعهِ (امثال ٦: ١٢ ــ ١٣)
هذه كانت حركات يوليانوس العاصي في صبائهِ وهو مسيحيّ
كما شهد بذلك غريغوريوس اللاهوتي حيث قال فيهِ انه لم
تكن فيهِ إشارة واحدة جيّدة. فما أسمج الواعظ اذا كان
متصرّفا بين الناس بحركات ذلك الانسان المارد الذى أخبر عنه
الحكيم وقد رأينا بيانها في هذا العاصي الذي كان من شأنهِ
اخيرًا اضطهاد بيعة الله وسفك دم القديسين فاحترس يا ايها
الواعظ ان تكون في حركاتك طائشًا مخلّعًا فانك تسبب لكنيسة
الله من الحقارة والمذمّة ما سببهُ ذلك العاصي من الاضطهاد
فتجزَى جزاءهُ. فانت ملتزم بالادب لتنطبع فيك سجايا الناظرين
الى ادبك فاذا رأوك مخلعًا بحركاتك يفوت الخير المأمول منك
لانهُ لا شيء يعيب الواعظ ويزري بهِ في عيون الناس مثل
خفة رأسهِ وطيش حركاتهِ. لان الماء اذا كان مضطربًا فلا تنطبع
فيهِ اشباح الاشخاص * استحضر امامك يسوع فيصير الهدو
عظيمًا. الثاني انهُ يلزَم الواعظ ان يكون مؤدّبًا بالكلام قال
الرسول لا تخرج من افواهكم كلمة فاسدة بل ما يصلح منها
ويُفيد البنيان ليزيد السامعين نعمةً (افسس ٤: ٢٩) لان

الرسول قسم الكلام هنا الى قسمين قبيحٍ ومفيدٍ فالقبيح قسمان ما يخصّ العوامّ وما يخصّ الاكليريكيين فالذي يخصّ العوامّ هو الكلام السفيه والتجاديف والشتائم النجسة وهذه معدول عنها هنا لان كلامنا الآن ليس هو في العوامّ . والذي للاكليريكيين فهو الشتائم الخفيفة والمزاح والاخبار المضحكة والاستزراء والهزء ومدح الذات والغِيبة واظهار نقائص القريب وانواع الديْنونة وانواع الفتنة والكذب والوشاية والمرآة والظنون الرديئة وحدّة المِرّة والمخاصمة. فهذه كلها يلزم الواعظ ان يحترس منها ولينتبه الى ما قالهُ السيد المسيح من كلامك تتبرّأ ومن كلامك يحكم عليك (متى ١٢ : ٣٧) وقال المثل رُبَّ كلمةٍ سلبت نعمةً وسببت نِقمةً . فان هذه كلها اذا سُمِعت من الواعظين هان ارتكابها على السامعين فيقولون لو كانت حرامًا لما تفوه بها واعظنا ولا ارتكبها . فاذا كان الواعظ على هذه الصفة كان كأنهُ يبني بيدٍ ويهدِم بأخرى . ان الطائر الببغاء يتعلّم تلك الالفاظ التي يسمعها من صاحبهِ فيقلّدهُ فيها بالتمام هكذا يكون حال العوامّ مع الواعظ . فانهم يتعلمون تلك الالفاظ التي يسمعونها منهُ إن خيرًا وان شرًّا ويقلدونهُ فيها * يا لعظم تعس الواعظ

الغير المؤدب بكلامهِ فانت هو يا ايها الواعظ تلك المرأة إيزابل التي اخبر عنها صاحب الرؤيا التي كانت تقول اني نبيَّة وتعلّم وتُضِلّ عباد الله حتى يزنوا ويأ كلوا من ذبائح الاوثان (رؤيا ٢ : ٢٠) انظر فان هذه ثمرة نبوَّة وعظك من فُحش كلامك فسوف يتهدَّدك الله كما تهدَّد تلك ويُلقيك على سرير اوجاعك انت وتلاميذك ويقتلكم بالموت الابدي ان لم تتوبوا. قال القديس برنردوس ان الازدراء والمزاح من أفواه العوامّ استهزاء واما من فم الكاهن والواعظ فهما تجديف. فماذا نقول اذًا في شأن بقية الالفاظ الرديئة اذا برزت من فم الواعظ الملتزم بالكمال الذي يدلنا عليهِ كلامهُ كما يقول المَثل السائر. كما لُك تحت كلامك. وأما الكلام المفيد الذي أمرنا بهِ الرسول فانهُ يُفيد السامع تعزيز الايمان والفوز بالنعمة وهذا هو الذي يجب على الواعظ ان يعلِّمهم اياهُ بأدب كلامهِ ويقتدي بيسوع إمام وظيفتهِ حيث قال الذي أخبرنا عنهُ النبيّ قائلًا لا يصيح ولا يُجلّب ولا يسمع صوتهُ في الشوارع (اشعيا ٤٢ : ٢) هذا هو نفس ما يجب على الواعظ حتى لا يسمع صوتهُ خارجًا عن حدود الادب امام الناس بل فليكن كل كلامهِ أمام الناس في الله

وفي حفظ وصاياهُ لان هذه وظيفتك يا ايها الواعظ . قال القديس فرنسيس سالس كما ان النحلة لا تمتصّ بفمها الّا العسل كذلك ليصر فمك عسليًّا بذكر الله على الدوام كما قال المرنّم فم الصدّيق يهذّ بالحكمة ولسانهُ ينطق بالعدل (مزمور ٣٦: ٣٠) الثالث انهُ يجب على الواعظ ان يكون مؤدّبًا بالثياب قال القديس لويس ملك فرنسا البس على حسب رتبتك لكيلا يستطيع احد من اهل الصلاح والحكمة ان يقول انك تلبس فوق ما يليق بك والحال ان رتبتك رتبة واعظ ومعلّم للآخرين فيلزمك ان تلبس اثواب الواعظ الحقيقيّ وتُعرَف اثوابهُ اولًا بان تكون مظلمة اللون ثانيًا بان تكون طويلةً محتشمة ثالثًا بان تكون نظيفةً رابعًا بان تكون متوسطة الحال بين النعومة والخشونة وكلما زادت خشونةً زادت في عين الناظرين نفعًا وحسنًا. وقد أخبرنا الرسول عن اثواب اولياء الله الذين كانوا يعظون الناس بثيابهم قائلًا ساحوا في جلود الغنم والمعز (عبرانيين ١١: ٣٧) فانهم بهذه الثياب الدنية كانوا يجولون بين الناس ويعظونهم بثيابهم حتى استحقوا ان يستشهد الرسول بوعظهم في وعظهِ . ونحن نريد منك يا ايها الواعظ ان تجول بين الناس واعظًا بثيابك على

مُوجَب تلك الشروط الاربعة لانك بها يمكنك ان توبّخ المنهمكين في زينة اثوابهم رجالًا ونساءً والّا فكيف يمكنك ان توبّخ المرأة على انهماكها بحليها وديباجها الملوّن المذهب وقميصك من كتان رفيع مخرّم الاطراف. وكيف يمكنك ان تعزي الفقراء على خُلقانهم وانت متوشح بالفِراء والاثواب الرفيعة الثمينة. سَل عن المسيح كيف كانت اثوابهُ والبس مثلهُ لانك في وظيفتهِ وتذكر ثوب العار الذي لبسهُ عند آلامه فلا تضرّ بملابسك الرفيعة اللينة شعب الله لئلا يضربك الله بعقابه يا ايها الحائط المبيّض المصقول (اعمال ٢٣: ٣) ولهذا يقول الله على لسان نبيهِ ما بالكم تسحقون شعبي وتطحنون وجوه البائسين (اشعيا ٣: ١٥) فلهذا يزيل الربّ في ذلك اليوم العصائب والثياب اللينة لانها هي سبب سحق الشعب وتمرمر الفقراء يا ايها الواعظ أرأَيت كيف ترفهك بلين اثوابك الرفيعة أضرّ بشعب الله واهان وجوه المساكين فكن اذًا رسولًا واعظًا بثيابك اكثر من كلامك والّا فانهُ يُقال لك ما قيل لذلك الغنيّ اذكر انك قد قبلتَ خيراتك في حياتك ولعازر في بلاياهُ والآن فهو يستريح وانت تتعذَّب. ان دود القزّ ثوبهُ من حرير لكنهُ فيهِ يختنق

فاحفظ اذًا ملابس وظيفتك * الرابع ان الواعظ يلزمهُ ان يكون مؤدَّبًا بالقناعة اي لا يكون شَرِهًا محب بطنهِ. اني استحي من ان انبّه الواعظ على الاحتراس مما يختصّ بالبهائم وهو الشراهة اذ ان الواعظ ملاك ارضي وانسان سماويّ بمنزلة يوحنا الصابغ الذي شبههُ النبيّ بالملاك (ملاخي ٣: ١) والمسيح بايليا (متى ١١: ١٤) والله أعطاهُ وظيفتهُ في تخليص الانفس. وتشرف بهذه الوظيفة شرفًا باذخًا حتى استحقّ ان يقال لهُ في شخص الرسل. انتم الذين اتبعتموني في الجيل الجديد اذا جلس ابن الانسان على كرسي مجدهِ تجلسون انتم ايضًا على اثني عشر كرسيًّا (متى ١٩: ٢٨) فقد ساواهُ الله في الجلسة لكونهِ ساواهُ في الوظيفة. وهي الوعظ لتخليص الانفس المثمنة بثمن دم ابن الله. فان كان شرف وظيفتك يا ايها الواعظ هذا مقدار استحقاقها فكيف يسوغ لك ان تتشبه بالوحوش والبهائم في عكوفك على الشراهة مثلهنّ وانت في وظيفتك من سكان السماء وترضى ان تكون اسير جوفك كالبهائم وأنت حرّ من نسل احرارٍ هم الرسل الواعظون فان كنت عاجزًا عن ان تغلب الحنجرة فكيف تقوى على ان تغلب بناتها. قال القديس توما اللاهوتيّ ان الشراهة علة الكبائرِ

واخصّها الزنا. وقد قال بعض الحكماء رأس المعايب الشراهة فعظ نفسك اولاً ودع الحنجرة تخضع للعقل وكل طعام العقلاء ولا تخضع العقل للحنجرة وتأكل طعام الجهلاء. قال القديس اسحق السرياني ان جرت الحواسّ على تدبير العقل اكلت معهُ طعام الملائكة. وان جرى العقل على تدبير الحواسّ اكل معها طعام البهائم. فان كنت شَرِهاً كنت جارياً على تدبير حواسك لا على تدبير عقلك فانت اذاً بهيمة لا انسان ناطق. فلهذا لا تُنبت ارض نفسك الاَّ شوكَ الخطايا وقرطب الرذائل وقد طالما وعظتَ الشعب وقصصتَ عليهم ما كان من إمساك يسوع وقناعتهِ وذكرتهم بذلك الخلّ والمرّ اللذين شربهما فوق عود الصليب فكيف لا تستحي الآن منهم عند ما يرونك وانت واعظهم مكبّاً على الموائد المتلوّنة تختار منها الذّها بالشراهة وقلّة الادب وتحشو جوفك بلا تمييز كأنك من جملة البهائم المعدَّة للذبح وترادِف اقداح الخمر والمسكر بلا عَدَدٍ حتى يضطرب عقلك وترتخي عضلات لسانك عن استقامة النطق وتتشوَّه سَحنتك حتى تعود بغيضاً الى الله ومكروهاً في عيون الادباء والعقلاء وضحكةً امام السفهاء والجهلاء ويستحي عنك أكبر محبيك وأصدقائك. هذا

كان إثم سدوم اختك انَّ الاستكبار والشبع من الخبز وطمأنينة الفراغ كانت فيها (حزقيال ١٦ : ٤٩) فأصغِ اذاً يا ايها الواعظ الى ما يقولهُ سيّدك وربّ وظيفتك فاحترسوا لانفسكم ان تثقل قلوبكم في الخلاعة والسكر (لوقا ٢١ : ٣٤) لأن الشراهة تُظلِم العقل من كثافة الأبخرة وتعميهِ عن معرفة واجبات الوصايا الالهية التي تنبّه الناس في وعظك على حفظها

قال القديس اسحق السرياني ان أفعمت جوفك فلا تجترئ على شيء من تفسير كلام الله لكون كلام الله يلزمهُ عقل ملاكي وانت قد صرت بشراهتك بهيمةً . وبقلّة أدبك وحشاً ساجداً لصنم بطنك . لأنَّا لم نرَ احداً لم يسجد لصنم بختنصّر الأَّ اولئك الفتية القنعاء بالامساك الذين لم يسجدوا لصنم جوفهم. فان كنت خادم الله فلا تخدُم بطنك وتمسك بما قالهُ الرسل انهُ لا يحسن ان نترك كلمة الله ونخدم الموائد (اعمال الرسل ٦ : ٢) الخامس انهُ يلزم الواعظ ان لايكون مغرماً بمحبة الفضة اصل كل الشرور (١ تيموتاوس ٦ : ١٠) قال القديس يوحنا السامي في تفسير هذه الآية ان محبة الفضَّة ابدعت البغضَ والسرقات وصنوف القتل وفواجي الفرقة والعداوات

والاضطرابات والحقد وموانع التحنن وجرائم الحسد. ولهذا يقول بعضهم حُبّ الدنيا راس كل خطيئة فالواعظ من شأن وظيفتهِ ان يمنع هذه الشرور كلها. فكيف يسوغ لهُ ان يُبقي اصلها عندهُ فما اسمج الواعظ الذي يَعظ الناس ليرتدّوا عن الفروع وهو متشبث بالأصول . وفي الكتاب المقدس ان أَمصيا ملك يهوذا حارب بني سعير من الأدوميين فكسرهم واخذ صنَمهم فعبدهُ (٢ ايام ٢٥ :١٤) هذه حال الواعظ محب الفضة فانهُ يعظ الناس ليرذلوا محَبة الفضة فاذا انتصر عليهم وردّهم عن ذلك يأخذ صنمهم فيعبدهُ لأنَّ محبة الفضة عِبادة الاصنام كما قال الرسول (افسس ٥ :٥) فان كنت يا ايها الواعظ قائمًا في وظيفة يسوع يجب عليك ان تكون مثل يسوع القائل اما ابن البشَر فليس له مكان يُسند اليهِ رأسَهُ (لوقا ٩ :٥٨) وبهذا كان معتقًا من العالم ومن ملافاة أهل العالم لان محبة الفضة تلزمك يا ايها الواعظ ان تداري الأغنياء وترائيهم في سلوكك وتعليمك وترتكب رذيلة الطمع حتى تصير تؤمل من الناس اموالها وتعيب وعظك بالسيمونية فتكون تاجرًا لا واعظًا فينفرح منك السامعون خوفًا على اموالهم فأينَ قول السيّد مجّانًا أخذتم فمجّانًا أعطوا (متى

٨:١٠) فلا تظنَّ أنك تكمّل واجبات وظيفتك وانت مُستعبدٌ للفضة. هكذا قال ربّ المجد لا تقدِرون أن تعبدوا الله والمال (متى ٦:٢٤) فالله وهبك وظيفة لكي تُتاجر نفوساً للخلاص فلا تظنّ بعدها أن مواهب الله تُقتنى بالفضة وإلّا فتسمع اخيراً لتذهب فضتك معك الى الهلاك (اعمال ٨:٢٠) فلا يكون لك حصة ولا قرعة مع الواعظين المحقّين. فيكفيك اذاً ان تطلب من الله ما طلبه يعقوب أبو الآباء وهو القوت الضَرُوري والكسوة (تكوين ٢٨:٢٠) وهكذا قال الرسول فاذا كان لنا القوت والكسوة فانّا نقتنع بهما (١ تيموتاوس ٦:٨) فاحترس اذاً من محبة الفضة ومن محبة البطن فالأُولى رذلت يوضاس والثانية رذَلت عيسو فما انت اطهر من ذاك ولا اشجع من هذا. وقمْ بواجباتِ وظيفتك واجتهد لنفسك وتعليمك واهتمّ بهِ فانك ان فعلت ذلك تخلص نفسك والذين يسمعونك

الفصل الثالث

في تجنب الواعظ كثرة التقرب الى الناس

ليتجنّب الواعظ هنا ثلاثة اشياء الاوّل المعاملة الدنيويّة الثاني الصحبة الخصوصية. الثالث التظاهر بين الناس

الاول ان الواعظ يلزمهُ ان يتجنب المعـاملة والمتاجرة مطلقا اوّلاً لأنها تعوقهُ عن القيام بواجبات وظيفتهِ التي لاجلهـا لم يـترك السيّد ذاك الشابّ يدفن اباهُ (لوقا ٩ : ٦٠) مع أنهُ لا أضرّ من دفن الموتى ولاسيما الاب . لكن البشارة والوعظ الزم واضرّ لان فيهما تخليص النفس الفضلى فأينَ المتاجرات منها . ان الوزير الذي يُهمل تدبير المملكة المؤتَمن عليها من الملك ربّها ليدبّر احوالهـا يُذَل ويُعزَل . وانت يا ايها الواعظ وزير الله قد اقامك لتدبر شعبهُ بالوعظ فلا جرم انهُ يرذلك اذا لم تقم بواجبـات وظيفتـك لاشتغالك بالمتـاجرات . قـال الرسول وان كان احـد لا يعتني بذويهِ ولاسيما اهل بيتـهِ فقد انكر الايمـان وهو شرٌّ من كافر (١ تيموثاوس ٥ : ٨) أرأيت نتيجة تهاونـك باعتنـائك في تعليم اصحابك واهل بيتك الذين هم رعيَّة المسيح الذي ائتمنك على تعليمهم الى ايّ كفرٍ بلغت بك . وسببهُ المعاملة والمتـاجرة التي تعوقك ولاجلها خُنتَ الله في وظيفتك فصرت كأنك كافرٌ بهِ مع انك قد قلت سابقًا مع بطرس الرسول هُوذا نحن قد تركنـا كلَّ شيءٍ وتبعنـاك (متى ١٩ : ٢٧) والآن تكذب على الله حيث انك لم تترك لهُ شيئًا ما اصلًا والشاهد عليك المتاجرة .

فاقطع المتاجرة متمسكاً بوظيفتك ولا ترفس الأواني المقدّسة وقل مع الحكمة الالهية قد نزعتُ قميصي فكيف ألبسهُ قد غسلتُ رجليّ فكيف أوسخهما (نشيد ٥ :٣) ثانيًا لأَن المتاجرة الواعظ تغريهِ بحب الفضة فيعتاقهُ بذلك عن اتمام وظيفتهِ كما عاقت قبلهُ ذلك الغنيّ عن الالتحاق بيسوع المبشارة (لوقا ١٨ :٢٣) يكفي لصيد الطائر أن يعلق راس جناحهِ بالدبق فكيف ينجو اذا علق كلهُ وقد تقرّر عندك سابقًا أن محبة الفضة مجموع كل الشرور . قال السيد ان شككتك عينك فاقلعها او يدك او رجلك فاقطعها (متى ٥ :٢٩و٣٠) ومن المعلوم ان المتاجرة في وظيفة الوعظ سبب عظيم يعوقنا عن القيام بواجبات التعليم في تخليص النفس لانها تلزمنا ان نلتفت الى الوراء . إن طائر النعام يداوم النظر في بيضتهِ حتى تنفلق عن الفرخ فان اعرض عنها دقيقةً واحدةً فسدت البيضة ومذِرت . فهذا النظر نفسهُ يلزمك يا ايها الواعظ ان تواظب عليهِ نحو وظيفتك لأَنك اذا أعرضتَ عنها ملتفتًا الى المعاملة الدنيوية فسدت ثمرة وعظك . فاقطع اذًا المتاجرة متمسكاً بوظيفتك وقل مع الرسول أُعدها (الاشياء) كلّها اقذارًا لأَربح المسيح (فيلبي ٣ :٨) ثالثًا لأَن المتاجرة قد تجرّ الى المخاصمة من قِبل

مغالطات دفاتر الحساب قال الحكيم قلما يتخلص التاجر من الاثم والخمَّار لا يتزكى من الخطيئة (ابن سيراخ ٢٦ : ٢٨) وما اشنع الواعظ الذي تراهُ اليوم يخاصم من أجل الدِرْهَم والدِينار وغداً يقِف في مِنبر الوعظ قائلًا ارفض المباحثات السخيفة الخالية من الأدَب اذ تعلم انها تولّد المشاجرات (٢ تيموتاوس ٢ : ٢٣) تُرى اذا قلت هذا مَن يصدّقك وانت اول من يكذّب هذا الكلام الالهيّ بمنازعتك الباطلة المسببة عن التجارة فمثلك هنا مَثَل زهرة الاكليل تنفتح ليلًا وتذبل نَهاراً فلا فائدة للناظرين اليها. هكذا أنت فانك تنفتح في ليل المتاجرة بالحكمة الباطلة وتذبُل في نهار التعليم بمثلك الرديء فلا يستفيد السامعون منك الا المذمّة والدينونة. فاين وظيفة الوعظ التي انتخبك الله لها من اجل تخليص النفوس فكيف تؤمّل أنك ترضي الله بها وقد صرت سبباً لهلاكها فهل هذا الأ من تعلقك بأمور العالم. لقد صدق الرسول القائل ليس احد يتجند فيرتبك بامور الحياة ليرضي الذي جَنَّدهُ (٢ تيموتاوس ٢ : ٤) فانت عبد الله بل جُنديّ الله بل وكيل الله في وظيفتهِ وقد اعطاك وزنتهُ. فتاجر بوزنتك لا بفضتك وادفِن الفضة فترث

السماء ولا تدفِن الوزنة وترِثَ جهنَّم واقطع المتاجرة لئلا تلتزم بالمخاصمة لانهُ لا يحلّ لعبد الرب أن يخاصم (٢ تيموتاوس ٢ : ٢٤)

الثاني ان الواعظ يلزمهُ ان يتجنب الصحبة الخصوصية فراراً من الشكّ وذلك اولاً لان الناس اذا رأوك تعاشر بعضاً بمحبةٍ خصوصية ينسبونك الى الغرض ويستنتجون من ذلك انك تبغض بعضاً . وهذا عين فَساد ثمرة الواعظ الذي يلزمهُ ان يكون مثل صاري المركب مستقيماً في ذاتهِ ويقوّم السفينة معه فان مال مالت السفينة معهُ وغرقت هكذا يقول بعض العلماء زَلَّة العالم كانكسار السفينة تغرَق وتغرّق . هكذا انت فان ملت بالمحبة الخصوصية نحو احد مالت الرعيّة معك وغرقت في بحر الشكّ والظنون الرديّة وقد قال الرسول احذَروا ان تجعلوا لاحدٍ عثرة (٢ كورنثس ٦ : ٣) فان وبَّخت في وعظك يقولون هذا الفلانٍ لانهُ يبغضهُ . وان عدلتَ عن التوبيخ على بعض اشياء يقولون هذا من اجل فلانٍ لانهُ يحبهُ . واي فسادٍ اعظم من هذا الفساد في ثمرة الوعظ التي هي تخليص النفوس فتكون عندهم على هذه الصيغة بمنزلة الواعظ المرائي . وانا اسألك هل في يدك أن تبرّئ

ذاتك من تلافي خواطر من تُحبهم كلاّ . فهذا أمر يعزّ عليك وعلى امثالك . فان كان الله يقول لاحد القدّيسين اني لم أجد اعمالك تامّةً (رؤيا ٣ : ٢) فكيف تكون اعمالك انت تامةً وقد ظهرت ناقصاً في ميلك مع طبيعتك الناقصة نحو الحبّ الخصوصي . فاحفظ اذاً ذاتك في الميل الخصوصيّ واحبّ الكلّ معاً . ولا تختص بعشرتك منهم احداً لئلا تلتزم ان تكون سالكاً على رضاهم اذ هم سالكون على رضاك . قال الانبا توما الكمبيسي المحبة لجميع الناس واجبة لكن معاشرتهم غير لائقة . ثانياً لئلا يكون الشك اعظم اذا رأوك تُعاشر الاغنياء والاقوياء فان الناس من هذا يشكّون بل يعتقدون ان معاشرتك لمثل هؤلاء ليست الاّ لغرض دنيوي اي لتستمدّ منهم مالاً او جاهاً او حماية تضادّ القريب او وظيفة اولمحبة البطن وما شاكل ذلك وهذه كلها تنافي ثمرة الوعظ من حيث تضعف اطمئنان الناس اليك لكونهم يقولون انهُ يداري الاغنياء ويُهمل الفقراء مع ان الرسول يقول ان جميعكم ابناء الله بالايمان ليس يهوديّ ولا يوناني ليس عبدٌ ولا حُرٌّ ليس ذَكرٌ ولا أُنثى لأنكم جميعكم واحد في يسوع المسيح (غلاطية ٣ : ٢٦)

هكذا يلزمك يا ايها الواعظ ان تكون مع الجميع لانك ان لم تحفظ نفسك في معاشرتهم كما تقدَّم لنا ذكرهُ فلا يمكنك ان تصون ذاتك ممَّا سنذكرهُ وهو ان معاشرتك الاغنياء والاكابر تلزمك بمداراتهم بالمراآة وأن تسكت عن توبيخهم احتشاماً وتهيباً وحياءً منهم . وربما استشهدوك في أمرٍ منكر تشهد بهِ لرضاهم وتلتزم أَن تشاركهم في مَذَمَّة الغير وتمدح ما كان مذموماً فيهم او في الاقل ان تسكت عن تنبيههم وهيهات ان تفاتحهم في امور روحية وتتضع امامهم بكل ما يُرضيهم ويلزمونك ان تتكلَّم بما لا يلزم ذِمتك لتكون لهم آلة في تنفيذ أغراضهم فتخرج من بينهم وذمّتك منزل خرب مملوء حياتٍ وعقارب تسهر الليالي منقلباً متموجاً في بحر من الحزن واليأس وصغر النفس فلقد صدق الحكيم القائل لا تُقارن من هو أقوى وأغنى منك (ابن سيراخ ١٣ : ٢) فان فعلت تحمل أثقالاً واي اثقال اعظم من هذه . قال الأنبا توما الكمبيسي ناصحاً لك لا تدارِ الاغنياء ولا تحبّ مخالطة الاكابر والعظماء خوفاً عليك ان تُبتلى في مثل هذه الرزايا المقدّم ذكرها. هذا غير انحطاط قدرك ومنزلتك في الوعظ عند الناس من جرى هذه المعاشرة فاجتنب اذاً اقتحام

تلك المخالطة وحافظ على قيمتك وشانك . وبّخ الاغنياء والاقوياء والمساكين والفقراء معًا غير متهيب كبيرًا ولا صغيرًا وكن كايليا الذي لم يهب احآب ملك اسرائيل بل كان يوبخه علانية (٣ ملوك ٢١ : ٢١) وكما ان احآب كان يهاب ايليا النبيّ الواعظ . هكذا الاغنياء والاكابر يهابونك ويجلّونك اذا كنت بعيدًا عنهم ان كان الكتاب المقدّس يبين لنا ظهور ايليا بغتةً (٢ ملوك ١٧ : ١) فليكن هكذا ظهورك بين الناس بغتةً . فالاولى بك اذًا يا أيها الواعظ ان تكون مثل يسوع في معاشرتك المساكين لانهم اقرب من الاغنياء الى ثمرة الخير والتقوى اذ يتهيأ لك ان توبخهم وتبين لهم كلما يلزمهم لصلاحهم وغير مناسبٍ لك ان تكون مع الاغنياء البعداء عن التوبة وانت عاجز من قِبَل ضعف غيرتك ان توضح لهم الضروريّ لخلاصهم ويكون ضميرك من جهتهم مرتابًا فكن مع لعازر المضروب بالقروح في حضن ابراهيم ولا تكن مع الغنيّ اللابس الأرجوان في النيران الابدية (لوقا ١٦ : ٢٤) ثالثًا لئلا يكون الشكّ اعظم اذا رأوك تعاشر النساء أجارك الله من اشراكهنّ فان كانت معاشرتك الأغنياء تهدم وعظك

فمعاشرتك النساء تهدِم وعظك وعرضك وقيمتك ولهـذا يقول الحكيم لا تُسلّم نفسك الى المرأة لئلا تتسلط على قُدرتك (ابن سيراخ ٩ : ٢) اي اذا تنزّلت الى المرأة بالمعاشرة تقوى على قوة وعظك اي انها تشين وعظك وتعيبهُ بين النـاس فتعود مُخزًى بينهم عند وعظك حتى يؤول بك الامر الى ان تتجنب التعليم في العفة واسباب الزنا خوفًا من ظنون الناس فيك لئلا يقولوا لك لا تنهَ عن خُلق وتأتي مثلهُ. اي لا تمنع الناس عن شر أنت فاعلهُ وواقع فيهِ. ان في هذا لعارًا عظيمًا فاهرب اذًا يا ايها الواعظ من النساء واحترس منهنَّ ولو كنَّ تقيَّاتٍ لاسبابٍ

اولاً اقول اهرب يا ايهـا الواعظ من المرأة خوفـًا من معاشرتها لان معاشرة المرأة اتلاف لدرّة العفة اقلهُ في الحواس ظاهرًا وباطنًا لميل الطبيعة التي احد جزءي تركيبها الشهوة فهي لا تزال مائلةً نحو عنصرها طبعًا . فكما ان الثقـل لا يزال يطلب الهبوط لانهُ مركزهُ هكذا الرجـل فانهُ لا يزال يطلب المرأة والمرأة الرجل طبعًا ومتى وُجدا وكان هناك عدم احتراس طلبت الطبيعة ما لها من غريزتها وهي الشهوة فيحتاج حـ الى صيانتهـا بعصمةِ الهية ولا أدري هل تُعطاها ام لا. والاّ فانهُ يكفي في اتمام

مراد الطبيعة النظر والشهوة كما قال ربّنا من نظر الى امرأة واشتهاها فقد زنى بها في قلبهِ فتكون في مقارنة الفكر تبصر شرَّ الشهوة ولا تريدها وانت تفعلها بسبب النظر المسبب من المعاشرة وتبصر خير العفة وانت تريدهـا ولا تفعلهـا بسبب المانع المسبب من المعاشرة. هكذا يقول الرسول لأنّ ما أُريدهُ من الخير لا اعملهُ بل ما اكرههُ من الشرّ اياهُ اعمَل (رومية ٧ : ١٥) وعلّة ذلك ميل الطبيعة نحو عنصرها والذي قوّاها فيهِ سبب المعاشرة . فبعد أن فهمت هذا يا ايها الواعظ فلم يبقَ لك من حُجَّـة تقنعك في معاشرة النساء ان هناك خيرًا اثمرهُ وعظك فان الطبيعة اكثر تأثيرًا في النفس من وعظك لانصبابها الى غَرَضها فهي تجذبك نحوهُ وانت لا تدري وتواري عنك سمَّ الشهوة بعسـل التعليم فتظنّ أنَّ هناك خيرًا مع أنك عارف أَن لا خـير هناك. وانمـا الطبيعة تقتـاد عماك الى الحفرة التي احتفرتها انت بيد اختيارك انظر الى الاطفال والى حركات اعضـائهم وهم لا يدرون ماذا يعملون. لعلّك توبّخ بذلك وقاحتك التي تقنعك أَن هنـاك خيرًا رُبَّ طريق يستقيم في عيني الانسان وأَواخرهُ طُرُق الى الموت (امثال ١٦ : ٢٥) كثيرون مثلك ظنوا هذا الخير الذي تظنـهُ

وعاشروا النساء بهذا العزم وهذه النيّة وكانوا في معاشرتهنّ لا يشعرون بحركة لذّة لا عن فضيلةٍ بل عن عدم حسّ كالجرح الذي لا تحسّ بألمهِ وهو حارّ. واعتقدوا ان طريق العفة معهنّ مستوٍ لكن آخر الأمر قهرهم جسد الموت الذي انقادوا اليهِ اوّلاً اختياراً وآخراً اضطراراً فرجعوا بصفقةٍ خاسرةٍ. افتتحوا أمرهم بالروح ثم ختموهُ بالجسد (غلاطية ٣:٣) فان قلت وكيف كان ذلك أجبتك ان ابتداء المعاشرة كان من جهة تخليص النفس الموكل فيهِ الواعظ من جهة وظيفتهِ. وهذا ابتداءٌ حسنٌ لكنهُ لما فقد الاحتراس والفطنة دخلت لذَّة المعاشرة ثمَّ المحبة المنكرة ثمَّ التعليم والتوبيخ على غير نظام الاعتدال ثمّ الكلام الباطل ثمَّ الضحك ثم الدالة ثمَّ الهدايا والمراسلات والضيافات والليليَّات. فكان اوَّل المعاشرة شيئاً روحياً وهو تخليص النفس فانتهى الى ان صار ختامهُ جسدانياً كما قال الرسول. فاهرب اذاً من معاشرة المرأة ولا تُقنع ذاتك بأنك تحترس معها من الاسباب. فالنار ان لم تحرق تسوّد المكان بدُخَانها فحسبك منها لذَّة المعاشرة والحواس وتدنيس القلب والفكر واصمت عما يتلو ذلك وانت خبيرٌ بهِ. اهرب متذكراً ذلك القديس العظيم الذي لم يُرِد ان يدخل

ديرًا فيهِ صبي" وقال مالي وقتال الأبطال . فكيف تقوى وانت ضعيف على ان تجالس امرأة وهيهات ان تنجو منها سليمًا وقد طرَحت كثيرين جرحى وصرَعت كل قوي" (امثال ٧: ٢٦) فاذا كنت لا تنتبه لهذا فيصيبك ما أصاب داود وابنهُ

ثانيًا اهرب يا ايها الواعظ من محبة المرأة لان النساء الى مَحبة الرجال أَميل منهم الى محبتهن" طبعًا وذلك لنقص عقل المرأة لأن العقل لجام قد يهدّئ شبق الشهوة او يتأتى منه التأني في اتيان المنكرات فالمرأة لما لم يكن لها هذا اللجام كانت تكلف بالرجل كلفًا شديدًا وتُشغف بهِ اكثر ممَّا يُشغف هو بها وذلك لنقص عقلها. ولهذا كانت توبة الزانية اصعبَ من توبة الزاني ومن هنا يقول الحكيم وجدت رجلًا واحدًا بين ألفٍ وامرأةً واحدةً بين أولئك كلهن لم أجد (جامعة ٧: ٢٩) اي انهُ وجد في الرجال تائبًا واما في النساء فلم يجد ولهذا أَلجم الله النساء بالحياء . قال القديس يوحنا السلمي" ان ربنا الصالح قد جعل اهتمامهُ بنا في هذا الوجه فأَلجم بالاستحياء الانثى والخجل للانثى بمنزلة اللجام للفرس لان الأُنثى لو كانت تحاضر الى الذكر لما كان ينجو جسم . والبلية العظمى فيما اذا كانت المرأة لَعوبًا ضحوكًا كثيرة التودد

خفيفة الحركات رخيمة المنطق حلوة الحديث فهذه كيف يمكنك التخلّص منها وانت معها مقيم . فلا جرم انك تُشغف بها وتقودك الشهوة اليها رغماً لان عبد الشهوة أذلّ من عبد الرقّ كما قيل حقاً. ان هذه الاسباب كافية لأن تمتلك قلبك ولُبَّك. وعقلك مع هذا كلّهِ يقنعك بان تستمرّ معها لوعظها وتعليمها وقد كان يكفيك ان تنتبه لغلطك ممّا تصوره ُ لك مخيّلتك عند انفصالك عنها من حركاتها والفاظها وهيئة صورتها وانت متمتع منها بالوهم كما انك متمتع منها بالحقيقة ويبيّن لك حبها النغل من انها ترضى بل تفرَح جداً بتوبيخك وشتمك لها وتلتذُّ هي بذلك وتُسَرّ بالقوانين التي تضعها عليها بكل حرارةٍ ورَغبةٍ . ليس من اجل الفائدة بل من اجل شَغفها بحبك واما انت فمتى لدغ حبها قلبك فتعود تلتذُّ بما تعمله ُ معك من الاهانة والحقارة وهذه هي علامة خطر هلاكك معها . ويُظلم عقلك من جرَى ذلك حتى تظنَّ بأنك ساعٍ في كمالها وتقديسها والامر على خلاف ما تظنّ حقاً انها لك شِصٌّ (اي صنارة) الموت والهلاك الابديّ. كما قال الحكيم من المرأة ابتدأت الخطية وبسببها نموتُ نحن اجمعون (ابن سيراخ ٢٥ : ٣٣)

ثالثًا اهرب يا ايها الواعظ من خبث المرأة واحترس منها ولو رأيتها مقيمةً في صلاتها لئلا تقوم من الصلاة وتعرقلك قال الحكيم كل خبث ولا خبث المرأة (ابن سيراخ ٢٥: ١٩) يعني ان كلّ خُبثٍ يسهل دواؤهُ والتخلّص منهُ وأما خبث المرأة فانهُ من الامراض المعضلة ولكن مجرد خبثها معك يا ايها الواعظ وخداعها لك هو بما تتظاهر بهِ امامك من الصلاح والتقوى لأَنّ هذا فنّك وهي لا تجيءُ الى الشيء الَّا من بابهِ. وهذا هو حقيقة الخبث وبما أَنك واعظ تطلب منك مداواتها فابعد عنها ولا تصدّقها اذا رأيتها رقيقة القلب في العِبادة وتسكب الدموع تأسفًا وتندُّمًا لان النساء في فطرتهنّ سرعة الدموع والميل الى العبادة والى كثرة الاعترافات خاصةً وعامةً والى استعمال علامات العبادة فلا تصدّقهنّ فان ميلهنّ الى الخير ليس هو عن عقل ولا عن حسّ قلب ولا عن ذوق روحيّ بل هو إما من ميلهنَّ اليك الطبيعيّ كما تقدّمنا فقلنا وإما من غيرة إحداهنَّ من الأُخرى لكون الغيرة غريزيةً في طبعهنّ حتى يتجاوزن بسببها الحدود والعوائد الجارية ولا يستحينَ من ذلك وشرّ من هذا انهنّ يسوّدنَ عِرض بعضهنّ بعضًا بغير خوفٍ ولا

تميز ليتسابقنَ الى محبتك الكاذبة.فتش قلب الواحدة منهنّ تجدهُ مملوءًا أَصنامًا نجسة وينتجن من هذا خبثًا عظيمًا يخدَعن بهِ قائدهنّ ومرشدهنّ بما يقدّمنهُ له من التوَدُّد النغل واصناف العبادة المملوءة من لذّة خبث المعاشرة.ولهذا نرى المرأة غير ثابتة في العبادة والتوبة والصلاح لأَن الخبث قائدها ومرشدها . وانا أُريك في خبثها امرًا آخر دقيقًا جدًّا وهو انك اذا اظهرت لها الغيظ ورمت ان تنفصل عنها مغتاظًا تراها تجثو لديك متضرعةً وتظهر لك خضوعًا وخشوعًا ودموعًا كأَنها خاطية لا تروم مفارقتك لئلا تهلك ولهذا تثبت وتمنعك أَن تفارقها هكذا بكل جهدها وتتعلق بك تعلقًا يستحا منهُ فأَقول لك لا تصدّق هذا منها لان حبها لك المنكر يسوقك معك الى هذا المظهر الخبيث ولا تصدّق دموعها فانها ضِديّة. باطنها خلاف ظاهرها اذ لو كان قصدها مستقيمًا معك لصبرت على ذلك بكل اتّضاع كان الله يريدهُ فان كنت غير محترس فتميل الى مرادها وينجرح قلبك بسهم حبها حتى لا تعود تهوى مفارقتها بل لا تعود تقوَى على ذلك فالويل لك ان أَقمت معها على هذه الحال فلا تستبعد هلاكك. ان رصدتَ المرأة يا ايها الواعظ تجد خُبثها

يبين لك ولو كان دقيقًا من تملقها لك وتوددها ومن حركاتها ولينها وانعطافها ومن تهندم لَبوسها ومشيها وخَطَراتها ومن ابتسامها وَبشاشتها ومن اشارتها وخدمتها لمن تحبهُ وكثرة كلفتها عليهِ من مالها وكدها. وظاهر هذا عبادة لكن باطنهُ خبث لأنها أمارات فساد لا أمارات عبادةٍ لانَّ العبادة الحقيقية تقتضي خلاف ما ذكرناهُ كلهُ. فالويل لمن لا ينتبه الى مثل هذه الدسائس الموبقة فانجُ بنفسك يا هذا ولا تركنْ الى مَحبة المرأة المبنية على آساس الخبث لأنها متى استحكمت افترست من تحبهُ حالًا كالاسد الضارئ قال الحكيم لا تصغين الى مكر المرأة فان شَفتيها تقطران شهدًا وحنكها ألين من الزيت لكن عاقبتها مُرَّة مثل العلقم وحادّة كسيف ذي حدّين (امثال ٥: ٣) فلا تصدقها كما نصحك الروح القدس ولا تعتقد ثباتها على الخير فلا تطلب الطيران من النوق ولا تطلب الثبات من المرأة لانها متى تمكنت من عِشرتك وصدّقت صلاحها المؤسس على جُرثومة الخبث وركنت اليها رجعت ولدغتك كالحيّة. لا تؤاخذها هذا طبعها. انت معتقد صلاح نيتها معك من جهة طلبها التعليم والفائدة وهي تعتقد سوء نيتك معها لأنها تتخذ كلامك

المستقيم في تعليمها في دروب معوجَّة وتشكّ فيك ان مرادك من معاشرتها انما هو لذَّةُ التعليم وربما تخبرك بهذا كأنها تشكو ذاتها امامك وتحركك من خُبثها الى شيءٍ لم يكن في وهمك وليس هي المحركة هذا بل الشيطان الناطق في فمها كما نطق قديمًا في فم أمها حوَّاء. ولهذا رآها صاحب الرؤيا راكبةً على وحش قِرمزيّ مملوء اسماء تجديف وهي سَكرى من دم القدّيسين (رؤيا ١٧: ٣و٦) اي انها قتلت قبلك يا ايّها الواعظ قدّيسين كثيرين وشربت دم نفوسهم ولهذا كانت سكرى وليس الوحش الراكبتهُ الا شيطان الزنى يعرض بها من واحد الى آخر لانها بضاعتهُ واسماء التجديف هي صفات المرأة الشبقة التي تسبب الاهانة لله باتخاذها الامور الصالحة في معرض الخبث والمكر وتصير بهذا عثرةً لمحبيهِ . وكونهُ قِرمزيًّا احمر رمزٌ الى شدة اضطرام الشهوة المسبب عن غليان الدم عند المعاشرة فاحترس اذًا يا ايّها الواعظ من النساء ولا تكن بغير خوفٍ اذا خاطبتهنَّ

رابعًا اهرب يا ايها الواعظ من الامان مع النساء لانهُ لا امان لك معهنَّ ولاسيما البنات الابكار المضطرمات بنار الشهوة

ومن مكرهنّ ينذرنَ النذور والصلوات ليمتلكنك ابًا مرشدًا لهنّ واذا حصلنَ عليك يأخذنك بوَهق الخدمة والهدايا والزيارة وهذا خلاف المراد من العبادة الحقيقيـة المقتضية محبـة يسوع وخِدمته وحده. واذا غبتَ عنهنّ يضطرمنَ اليـك شوقًا ومن هنا يقول ايّوب البار قد عاهدتُ عينيّ ألَّا اتـأمل في عَذراء (ايوب ٣١ : ١) قال القديس يوحنا الذهبيّ الفم في تفسيرهِ هذه الآية ان ايوب قال هذا لنكون حذِرين من هذا الأمر ولو كنا قديسين مثل ايوب . فكيف يأمن على نفسهِ بعد هذا كلهِ ذاك الواعظ الذي لا يحترس لذاتهِ من معاشرة النساء ويأمن اليهنّ فهل انت أعظم حكمـةً من سليمان وداود ابيهِ فان كان هذان العمودان الوطيدان قد سقطا لما لم يحترسا فكيف تأمَن السقوط وأنت أوهى من بيت العنكبُوت . وهل انت أكمل من آدم واشرف من يهوذا جَدّ المسيح بالجسد وأقدَس من داود واحكم من سليمان وأشجع من شمشون . فهؤلاء كلهم قد سكرت ايزبال من دمهم وانت الآن لا تعتبر وسراج عقلك قائم في مهبّ الرياح العواصف . اني لأتعجب من واعظٍ يملأ جوفهُ لحمًا وراسهُ خمرًا ويعاشر النساء . كيف يمكنـهُ حِفظ

العفة والطهارة ولاسيما اذا كان هناك سمّ الدالّة والواعظ مُقفِر من الرياضات والتأمّلات العقليـة خالٍ من التهذيب الروحي ليس لهُ مصباح الفطنة. فاظفر اذا من هيروديًّا خائفًا جزِعًا لانها قد اخذت من قلبك راس يوحنا في طَبق ولا تركن اليهـا حياتك كلها لانها تكشف الأسرار وتهتك الأستار . وقد طالما علمتها وارشدتها وخصصتها بامور روحية من باب المحبة والاكرام وهي تنقل كلّ ذلك الى الغير لتتباهى بهِ قدّامهم فتهتك عِرضك بقلة عقلها وانتَ لا تدري ويتأتى من هذا كلهِ فساد وعظك وتعليمك للناس وربّما لافراط دالتها عليك تدبرك وتشير عليك بما تعظ بهِ وتوبّخ عليهِ وتقول للناس انا قلت لهُ ليقول كذا وكذا تبًّا لها من هتيكـة كبيرة وعثرةٍ شنيعـةٍ . قال الانبا تومـا الكمبيسيّ استودع الله جميع النساء الصالحات فما ظنك بغـير الصالحـات واحذر ان تقبل لهنّ مولودًا في المعمودية فـان هذا من اعظم اشراكهنّ في المعاشرة لانهُ يسبّب لك اكثار التردُّد اليهنّ بالأمان بحجة النسبـة الروحيّة فتكون قد أعطيت القدس للكلاب والقيتَ الجوهرة للخنازير فلا تستبعـد ان ترجع فتشقك (متى ٧:٦) فاجتهد اذًا يا ايها الواعظ ان تتجنب معاشرة

النساء بالكلية . ان الحجر كلما قَرُب من مركزهِ اشتدَّ انحداره ُ وانحطاطهُ شوقًا الى مركزهِ وانت كلما دنوتَ من النساء اشتدَّ فيك ميلكَ اليهنَّ شوقًا الى عنصر طبيعتك . فأبعد الحجر عن مركزهِ وأسندهُ فانهُ لا ينحدر . ابعد انت عن النساء واستند الى آلام يسوع وصلبهِ فانك لن تسقط الى الدهر . وليس لنا غير هذا الدواء في مثل هذا الداء قال القديس اغوستينوس انهُ لن يوجد علاج اقوى وأنجع فعلًا عند تجارب الزنى مثل التأمّل في آلام سيدي ومخلصي يسوع المسيح وموتهِ ثم ان هذه التحذرات كلّها لا تختصّ بالواعظ وحدهُ بل هي لازمة ايضًا لكلّ كاهنٍ وراهب وتلزم خاصّةً معلمي الاعتراف لاختلائهم بالنساء من أَجل ضرورة الاعتراف . فانهُ إن لم يكن حَذِرًا عفيفًا أَمينًا يسقط ضرورةً ولو بالحواسّ مطلقًا فيلزمك يا ايّها الكاهن ان لا تعطي المرأة يدك لتقبلها . فاحترس من هذا المحذور جدًا لانهُ لا يخلو من لذَّة بهيمية منك ومنها وهذا المعنى قد اهلك كثيرين كما قال لي أُناس أَتقياء أَنقياء رأوا ذلك في الرؤيا واراد الله ان يريهم هذا لكي ينبهوا عليهِ وقد يوجد شرّ آخر من بعض النساء يأخذنَ ثياب معلميهنَّ الكهنة فيطوينها ويرششنَ

عليها عِطرًا وزهرًا ذكيًّا فهذا فعل ظاهرهُ كرامة لكن باطنهُ مملوءٌ حبًّا أَلميًّا. فلتحذر الكهنة هذا لئلا يُدانوا مع الزناة فاغلب اذًا هذه يا ايها المجاهد لتنال مرتبة الغالبين كما قال السيد ومَن غلب فاني أُوتيهِ أن يجلس معي على عَرشي كما غلبتُ انا وجلستُ مع أَبي على عَرشهِ (رؤيا ٣ : ٢١)

خامسًا انني لاستثني هنا بعض نساء عفيفات عابدات حقًّا مدبّرات من الروح القدس على أيدي كهنة آباء افاضل مُفعمين كمالاً وقداسة وحكمةً روحية مسيحيةً فترى المرأة العابدة حقًّا. الاتضاع اساسها . والسذاجة بيتها . ومَحبة الله سورها . والتأمّلات الروحية قوتها . والفطنة مدبرتها . والطاعة مقودها . والعفة زينتها . والفضائل ثوبها . والأَدب والاحتشام جمالها . وتجنبها الناس شغلها وعملها فتراها متصرّفةً مع ابيها الروحي باحتشامٍ وتهيبٍ منزّهٍ عن كلّ دالّة عالمية ومحبة لينة فبهذه العلامات تعرف المرأة العابدة حقًّا الطالبة الكمال المسيحيّ يقول الحكيم المرأة الحيية نِعمةٌ على نِعمةٍ (ابن سيراخ ٢٦ : ١٩) حقًّا ان الذهب لا يوازي مثل هذه العفيفة . قد ابصرتُ نساءً طاهرات في عفتهنَّ كاملات في سيرتهنَّ وعبادتهنَّ قد أفدنَ

مدبّرهنَّ ومرشدهنَّ أكثر مما استفدنَ منهُ فهؤلاء اللاتي تُفيد معاشرتهنَّ بالفطنة. هؤلاء اللاتي يسرنَ بالسذاجة المسيحية هؤلاء اللاتي يؤمِنَّ اليهنَّ. فالخليق اذًا بمثل هذه المرأة المقدَّسة ان تسلم الى أبٍ مقدَّس. فالثوب الملكي للملوك. ان ملكهُ الفلَّاح فلا يعرف قيمتهُ. فالمرأة الكاملة بعقلها وسيرتها وفِطنتها لا يستحقها الا تدبير مرشد كامل بعقلهِ وسيرتهِ وفِطنتهِ لتزيد بهِ كمالاً وتقديسًا كما قال صاحب الرؤيا مَن هو بارٌّ فليتبرَّر بعدُ من هو قدّيس فليتقدَّس بعدُ (رؤيا ٢٢ : ١١) فتسلمها يا ايها الاب القديس واستفد من خصالها الكاملة اكثر من أن تفيدها ومع هذا كلهِ يلزمك الاحتراس معها ناظرًا الى ضعفك والى عدم اتكالك على ذاتك وانت كنت غير كفوءٍ لها ولا تقوى على حفظ نفسك معها فدعها لغيرك اكمل منك يرشدها وأما انت يا ايها الواعظ فقف جانبًا ولا تلمس تابوت الرب مثل عزَّة فتسقط ميتًا (٢ ملوك ٦ : ٦) ودع الذي الرب انتخبهُ لتدبير الانفس في طريق الكمال المسيحي يتقدم عنك فيباشر وظيفتهُ ولا تفارق انت وظيفتك فقد رذل الله شاول الملك حين تطاول الى وظيفة غيرهِ فاعتبر انت بهذا وكن مشتغلاً بما انتخبك الله لهُ

وهو الوعظ المقدّس الّا في الضرورة اللازمة او في وقت الرسالة أو اذا ألزمتك الطاعة فاذا مارست تدبير الانفس ولاسيما النساء فلا مانع لك لكن بهذه الشروط اولها ان يكون الى زمان محدود لا دائماً . ثانيها لا تختص بواحدة منهنّ . ثالثها لا تذهب اليها الأّ اذا الجأتك الضرورة كما في وقت المرض وغيرهِ . رابعها ألا تستخدمها ولا تقبل منها هديةً خصوصيةً لك لتدفع عنك غائلة الزيارة والضيافة . خامسها ان تعدّ نفسك وانت كأنك ماسٌّ بيدك اواني القدس المفرَدة (المكرّسة) لله لتقتني وانت معها ضبط الحواس والأدب والاحتشام وتدفع عنك غائلة الدالّة والضحك والكلام البطال . سادسها أن تسلح نفسك بأسلحة الرياضات والتأمّلات الروحية سائراً على مصباح الفطنة لتصون معها فكرك ونظرك دائماً . سابعها انك ان عاشرت امرأة في تعليم روحي وكنت لها ابًا مرشداً ومعلماً في الاعتراف كما قلنا وأردت ان تعرف هل انت معها على حالة ترضي الله ام لا فافحص ضميرك في وجودك معها فان رأيت انك عند انفصالك منها لا تشعر بألم الفرقة وان وجودك وعدم وجودك معها سيّان فانت حُرّ من أسر محبتها وقلبك غير متعلق بها ولا ينجرح بسهم حبها البهيميّ ولكن

مع هذا كلهِ يلزمك التحرُّز منها وانتصح بما قالهُ الحكيم لا تُسلم ثروتك الى النساء (امثال ٣١: ٣) قد منعك الروح القدس هنا عن ثلاثة اشياء في معاشرتك النساء الاوَّل ان تتأمل في جمال المرأة او في بهاء زينتها لئلا يرتسم في عقلك شخصها وحركاتها فتثير عليك حربًا عظيمة في الخلَوات فتتدنَّس ولهذا يأمرك الحكيم قائلًا لتكن ثيابك بيضاء في كلّ حينٍ (جامعة ٩: ٨) اي لتكن حواسك بيضاء بالعفة والطهارة دائمًا ولا شيء من الحواسّ يُدنّس النفس مثل النظر لأنهُ يرسُم في العقل رسومًا لا تُمحى ولهذا كان أصعبها

الثاني ان تمسك يدها او تمسّ شيئًا من ثيابها قال الحكيم ان المرأة مِقنص الصيَّادين قلبها شَبكة ويداها قُيودٌ (جامعة ٧: ٢٧) لانك ان تهاونتَ بهذا تتصل الى ما هو شرٌّ منهُ وهو الدالّة. والمرأة قريبة من هذا جدًّا للين طبعها وضَعف عقلها وشدّة ميلها نحو المحبة فتقتنصك بذلك وتقيدك بسلاسل يديها كما قيدت شمشون

الثالث ان تدعها تمسك يدك وتقبلها إياك ثم إياك من ذلك لأن هذا أوّل آلات إبليس في معاشرة المرأة ومجالستها

وتعقبها المنادمة والمؤاكلة وهلمّ جرًّا ولهـذا يقول الحكيم لا تجالس ذات البعل البتة ولا تتكئ معها على المرفق (ابن سيراخ ٩ : ١٢) يريد لا يقع منك ذلك الّا مع زوجتك فتنبه فان صنتَ معها نظرك ولمسك حفظت ثروة عفتك التي حضك الحكيم على حفظهـا وأما إن رأَيت في انفصالك عنها صعوبةً وشعرت بأَلم الفراق وتوجّعت من مباينة لذّة معاشرتهـا فاعلم انك مجروح بسكين هواها وانك صرت في محبتها اسير الشهوة وقد اصطادتك بمكر شَفتيها وعرقلتك بوَهق عبادتها الباطلة الخادعة وقد صرت عاشقًا لا واعظًا ولا مرشدًا فاهرُب اذًا حالاً وعدِّ عنها ولا تُقم معها ولا يومًا واحدًا والاَّ فيبعد عنك أخيرًا التخلص منهَا كما يبعد الخلاص عن الطـائر الواقع في الشرَك وكثيرون تورَّطوا في هذه القضية لجهلهم فعسر عليهم الخلاص حتى صار اغرب من اقامة الموتى فان كان اللهُ اعطاك نعمةً خاصةً ونجوت من مخالب تلك المرأَة ورأَيت قلبك بعد الهرب منها ملتذًّا بفكرها وذكرها فاعرف ان هواها بعد فيك حيًّا فدواؤهُ أَن تتناسى معاني معاشرتها وتتنكب سماع اخبارها واياك ثمَّ اياك من مكاتبتهـا او مراسلتها لئلا تعود الى قيئك وتطلب

الرجوع الى معاشرتها فتكون الضلالة الاخيرة شرًّا من الاولى

الثالث ان الواعظ يلزمهُ ألاَّ يتظاهر بين الناس كثيرًا لكون الناس يخالون الواعظ لسماعهم خُلاصة وعظهِ وتعليمهِ انهُ ليس من البشر بل هو مَلك سماويّ يفوق الطبيعة البشرية ولهذا يقول الرسول اننا صرنا مشهدًا للدنيا وللملئكة وللناس (١ كورنتس ٤: ٩) وهذا ظَنّ حسنٌ من العوامّ لكن يلزم الواعظ أن يحقق ظنهم باستقامة أعمالهِ . لانهُ في وظيفة المسيح الذي كانت اعمالهُ تشهد لفضلهِ . فاما إذا كان الواعظ ليس هو عند نفسهِ كما يظنهُ الناس فيلزمهُ ان يتجنبهُم الاّ قليلًا ويتجنب مخالطتهُم نظرًا الى الغاية لأَن فضل العقل النظر في العواقب اولاً لكي لا يحقر شأنهُ عندهم من زيادة تردُّدهِ ما بينهم فاذا قلَّ اعتبارهُ قلَّت فائدة وعظهِ لأَن الشيء الثمين اذا كثر في مكان رَخُص ثمنهُ . قالت الحكمة الالهية مَن هذه الطالعة من القفر كعمودٍ من بخور معطرَّةً بالمرّ واللبان وجميع أذرّة العطَّار (نشيد ٣: ٦) ان هذه صفة الواعظ اذا صرخ من القفر اي من مكان خلوة يلزمهُ أن يكون لدى الناس ذا رائحة ذكية كالطيب وهكذا يقول الرسول انّا نحن نفحة المسيح الطيبة (٢ كورنتس ٢: ١٥) وهذا

لا يمكن ان يكون للواعظ الا اذا أقلّ من مخالطة الناس . ان إناء ماء الورد اذا هُرِق ذهب طيب رائحتهِ كذلك الواعظ فانهُ اذا اكثر من التردُّد أضاع طيب قيمتهِ فتذهب رائحة وعظهِ

ثانيًا لان الواعظ الكثير التردد بين الناس لا يخلو من نقص في طبيعتهِ وكلامهِ وحركاتهِ لضعف الانسان ولهذا يقول الرسول ان قلنا ان ليس فينا خطيئة فانّما نُضلّ أنفسنا وليس الحقّ فينا (١ يوحنا ١: ٨) قال القديس فرنسيس سالس انهُ لمن المستحيل ان نخلو بالكلية من الخطايا العرضية فاذا رأت العوامّ من الواعظ هَفوات جزئيّة يستعظمونها ويستغربونها فيعثرون في دينونتهِ والازدراء بهِ ولم يعرفوا ان الصديق يسقط كل يوم سبع مرّات (امثال ٢٤: ١٦) وهو صدّيق لكون سقوطهِ في هفوات طبيعية . ولهذا تحتجب الملوك ورؤس الكهنة لتحفظ لهم كرامتهم واحترامهم فيفضي ذلك بالعوامّ الى أن يتجاسروا على التورُّط في الكبائر اقتداء بالصغائر التي رأوها في الواعظ فتكون لكثرة معاشرتك للعوامّ يا ايها الواعظ قد سببت شرورًا عظيمة وانت لا تدري وهذه هي الخفيّات التي طلب المرنم النجاة منها بقولهِ نَقِّني من الخفايا

(مزمور ١٨ : ١٣) فلا تكثر اذاً من زيارات العوامّ ومؤاكلتهم الاّ في الامور الروحية

ثالثًا لأَنّ اعمال العوامّ بمنزلة الجرَب الذي يعدي مَن يلمسهُ فإِذا خالطتهم يا ايها الواعظ يعدونك من جرب اعمالهم الرديئة لانك تلتزم من جهة المعاشرة ان تشاركهم في شرّهم حياءً منهم لترضيهم لأَن شرط المرافقة الموافقة والمجالسة المجانسة . قال بعض الفلاسفة لا تُكثرنَّ من معاشرة الناس لان من عاشرهم داراهم ومَن داراهم رآهم ولهذا حذّر السيد تلاميذهُ قائلًا انظروا واحذروا من خمير الفريسيين والزنادقة (متى ١٦ : ٦) اي من تعليمهم . وهؤلاء كانوا نُسَّاك اليهود فان كان السيد يمنعنا من معاشرة المتظاهرين بالعبادة مثل هؤلاء والاَّ نتعلم منهم فكم يلزمك يا تلميذ المسيح ومبشرهُ ان تمتنع من مخالطة العوام السائرين بالجهالة ولا تخلو من دنس اعمالهم لأَن من يلمس القير يتوسَّخ (ابن سيراخ ١٣ : ١) قال الانبا توما الكمبيسيّ ما عاشرت الناس الاَّ رجعت انسانًا انقص . ان الذهب بهيُّ المنظر فاذا خالط الزئبق زال بهاؤُهُ فتيقظ اذًا يا ايها الواعظ وكن منتبهًا وانتصح بما قالهُ

الرسول لتلميذهِ أما أنتَ فتيقظ في كل شيء واحتمل المشقَّات واعمَلْ عملَ المبشّر أوفِ خِدمتك (٢ تيموتاوس ٤ : ٥) وكن صافي العقل ونقيَّ الضمير من ظلمة المعاشرة وكدر أدناس الناس الذي لا بدَّ منهُ ان فقدت في ذلك مصباح الفطنة وملح الحكمة متذكّراً خطر المؤمن الذي يعتريهِ زوان النفاق وفقد حرارة الايمان المستقيم عند معاشرة الكفَّار والمبتدعين والمعاندين

الفصل الرابع

في ان الواعظ يحترس من ان يكون رئيساً وقاضياً

الاول يلزم الواعظ ان يتجنَّب الرئاسة بكل جهدهِ لكونها حملًا ثقيلًا باهظاً تعجز عنهُ مناكب الملئكة كما قال المجمع التريدنتيني العامّ المقدّس . لانها تسبّب أتعاباً و مخاطرات تفوق قوة صاحبها فمن هنا كان حبُّ الرئاسة رأس المِحَن . قال ارسطو ان السياسة لا تصلح لمخلوق البتَّة إنما هي مِحْنَة يُمتحَن بها الناس . فالعاقل يبين من نفسهِ الضعف عن القيام بتدبيرها والجاهل يُري أن في قوَّتهِ وطبعهِ ما يقوم بأضعافها . فلهذا لا مناسبة بين الرئاسة والوعظ . بل نرى بينهما تضاداً عظيماً بيّناً لأن الرئيس مجرِّد في يدهِ سيف الحُكم والانتقام . والواعظ حامل

بيدهِ قارورة البلسم حتى اذا جرح ذاك بسيف حُكمهِ يُداوي
هذا يبلسم وعظهِ . هذا نفسهُ يُلزمك يا ايها الواعظ أَن تفِرَّ من
الرئاسة كهربك من السيف الصارم فلك ان تكون رئيساً
وواعظاً لكن كن وقت الرئاسة حاكماً ووقت الوعظ اباً حكيماً
قال الحكيم : للقتل وقت وللمداواة وقت (الجامعة ٣ : ٣) والا
فهو اجتماع النقيضين وهذا مستحيل . لقد رذل الرسول ذلك الفم
الذي تخرج منهُ البركة واللعنة (يعقوب ٣ : ١٠) فمن شأن الرئيس
ان يحرِم ويلعن تأديباً لرعيتهِ حتى لا اقول حباً للفضّة . ومن
شأن الواعظ ان يبارك طلباً لثمرة وعظهِ وهي تخليص النفوس .
فكيف يمكنك ان تكون رئيساً وواعظاً معاً بسلطان واحدٍ فيهما
فاعطِ ما لقيصر لقيصر وما لله لله فتكون منصفاً . فلهذا أشير
عليك اذا كنت واعظاً ان لا تطلب ان تكون رئيساً لما يأتي بيانهُ
وان الجأتك الضرورة الى ذلك فكن حكيماً وضَع كلًّا في مقامهِ .
ان السيد لهُ المجد لما علم انهم مزمعون ان يأتوا ويخطفوهُ ليصيّروهُ
ملكاً فرَّ هارباً الى الجبل (يوحنا ٦ : ١٥) لئلا يفقِد المداواة بالوعظ
في تخليص الانفس التي جاء من اجلها ليشفي ببلسم دمهِ الزكيّ
ذاك الذي جرحهُ ابليس بمكرهِ كما بيَّن لنا هذا المعنى بذكر

المَثل الذي مدح فيهِ السامريّ لأنهُ دنا من ذلك الذي وقع بين اللصوص وجرحوهُ فضمد جراحاتهِ وصبَّ عليها زيتاً وخمراً وحملهُ على دابتهِ واتى بهِ الفندق واعتنى بأمرهِ حتى يشفى (لوقا١٠: ٣٠) فالسامريّ كناية عن السيد المسيح الذي سعى بخلاص آدم الجريح من الشيطان ثُمَّ عنك ايضاً يا ايها الواعظ لأنك قائم في وظيفة المسيح تشفي بوعظك كلوم خطايا البشر فكما ان السامريّ فضل بوظيفتهِ ذلك الكاهن واللاوي اللذين صادفا الجريح وتعدَّياهُ هكذا وظيفتك التي تداوي فانها تفضل الوظيفة التي تجرح. فانّ الرئاسة تشغل عن الوعظ من قبل المهمَّات العالمية الملتزم بها الرئيس ضرورةً. واما وظيفتك فانها تحثُّك على الوعظ من قِبَل تفرّغك لذلك. فما اعظم الفرق بينهما. فاهرب انت يا ايها الواعظ من الرئاسة كما هرب يسوع ربُّ وظيفتك من الملك فرّ انت هارباً لا من رئاسة الكهنوت فقط بل من خدمة الكنائس ورئاسة الرهبان ايضاً فان هذه كلها اشتغالات تنافي وظيفة الواعظ والتحق بيسوع الذي سلَّمك في وظيفتهِ كما سلّم بطرس مفتاح العلم والعمل لتداوي اوَّلاً بلسم سيرتك. ثانياً ببلسم وعظك وتعليمك. فهما ذلك الزيت والخمر فتلتزم من هنا ان

تسلّم نفسك عن الخراف الضالّة من شعب اسرائيل المسيحيّ كما سلّم المسيح نفسهُ عنك ولا تنسَ نعمة الضامن لانهُ اسلم نفسهُ من اجلك (ابن سيراخ ٢٩ : ٢٠) وتشبه ايضا بيوحنا الصابغ الذي استعفى من أن يضع يدهُ على راس المسيح في العماد وكان ذلك تواضعًا منهُ (متى ٣ : ١٤) مع ان السيد طلب ذلك . لا تقلْ ان الله دعاك الى الرئاسة . ولو فرضنا هذا الفرض الغير المعلوم والغير المحقّق لزمنا ان نتجنَّبها بكل جهدنا

أولًا ان الرئيس ذو حكم وبطش . والواعظ تلزمهُ الوداعة والحكمة كقولهِ تعالى كونوا حكماء كالحيَّات ووُدعاء كالحمام (متى ١٠ : ١٦)

ثانيًا ان الرئيس يذمّ اكثر من ان يمدح لكونهِ حاكمًا والحكم يثقل على الطبيعة والواعظ يلزمهُ ان يكون محبوبًا من الجميع ليفيد في وعظهِ ولهذا اوصى السيد تلاميذهُ قائلًا : أحبُّوا أعداءكم (لوقا ٦ : ٣٥) لئلا يكون منهم سببٌ ليُبْغَضوا بل ليُحَبُّوا كما يُحِبُّون

ثالثًا أن الرئيس يلزمهُ مخالطة الناس لاسباب تقتضيها رئاستهُ . والواعظ يلزمهُ تجنُّب الناس ليُصان من العثرات

والشكوك كما قلنا في الفصل المتقدّم ولهذا يقول السيد ان شككتك يدك او رجلك فاقطعها (متى ١٨ : ٨)

رابعًا ان الرئيس مشتغل بمهمَّاتٍ عالميةٍ كثيرةٍ . والواعظ مشتغل بالامور الروحيّة فيما يخص الوعظ والتعليم كقول السيد: مرتا مرتا انك مهتمة ومضطربة في أُمور كثيرةٍ وانما الحاجة الى واحد فاختارت مريم النصيب الأَصلح الذي لا يُنزَع منها (لوقا ١٠ : ٤١)

خامسًا ان الرئيس تلزمهُ المعاملة . والواعظ مقطوع عنها لأَن الله دعاهُ كما دعا متى العشَّار (مرقس ٢ : ١٤)

سادسًا ان الرئيس يلزمهُ أَخذ خواطر الناس لتمام القيام برئاستهِ . والواعظ يلزمهُ ان يكون مع الجميع على حالةٍ واحدةٍ مثل يسوع الذي شهدت لهُ اعداؤُهُ قائلين: انك لا تنظر الى وجوه الناس (متى ٢٢ : ١٦)

سابعًا ان الرئيس تلزمهُ صحبة الأَكابر والاعيان خوفًا من شرّهم . والواعظ يلزمهُ أَلا يخاف احدًا غير الله كقولهِ تعالى لا تخافوا ممّن يقتل الجسد ليس لهُ بعد ان يفعل اكثر لكني أُبيّن لكم ممَّن تخافون خافوا ممَّن اذا قتل لهُ قدرة ان يلقي في جهنَّم (لوقا ١٢ : ٤ ــ ٥)

ثامنًا ان الرئيس يجرح بسيف حكمهِ . والواعظ يداوي بيلسم وعظهِ. ان بطرس قطع أُذن عبد عظيم الكَهَنة ويسوع أبرأَها (يوحنا ١٨ : ١٠) هكذا الواعظ فانهُ يداوي ما يجرحهُ الرئيس بسيف رئاستهِ

تاسعًا ان الرئيس لهُ شغل واحدٌ وهو العلم . واما الواعظ فلهُ شغلان العلم والعمل فهو اعظم هكذا قال الله من يعمل ويعلّم فذاك في ملكوت السماوات عظيم (متى ٥ : ١٩)

عاشرًا ان الرئيس حكيم في العالميات يأمرُ وينهى . والواعظ حكيم في الروحيات والنظريات يرمُّ ويبني بالسلطان الذي أُعطي لهُ على حسب كلام الله . الثاني لا تكن يا ايها الواعظ قاضيًا لأَسباب . الاوّل أن القاضي من شأنهِ ان يغيظ أُناسًا ويرضي أُناسًا . الثاني أنهُ يُشكّ فيهِ بالرشوة . الثالث أَنَّهم ينسبونه الى الرئاء والمحاباة . الرابع انهم يقذفونهُ بالجور والعُدوان وربما تبلغ بك الطبيعة الى مثل هذه المظنَّات لانهُ لا صالح الا الله وحدهُ (مرقس ١٠ : ١٨) وهذا يؤكِدهُ ما قاله الله في ابتداء خلقة الانسان ان كل تصوُّر افكار قلوبهم انما هو شرّ في الأَيَّام (تكوين ٦ : ٥) فانفر اذًا من القضاء الذي يفسد ثمرة وعظك

بسبب هذه المحذورات كما نفر السيّد قبلك من ذلك حين قال لهُ واحدٌ من الجمع يامعلّم قُلْ لأخي يقاسمني الميراث فقال لهُ يا رجلُ مَن أقامني عليكم قاضيًا او مقسمًا (لوقا ١٢ : ١٤) لأن السيّد كان عارفًا بان أخاهُ ظلمهُ بالإرث فلو قضى بينهما لما خلا من وَجْد عليهِ فلهذا امتنع من القضاء لئلّا يثلِم الوعظ الذي هو فيهِ حالاً لان ذاك طلب منهُ القضاء وهو في حال وعظهِ وتعليمهِ

الفصل الخامس
في تهيؤ الواعظ للوعظ

يلزم الواعظ أن يتهيأ مستعدًّا للوعظ قبل وعظهِ بأيام ملائمة لموضوع الوعظ مطوّلًا كان او مختصرًا . فالاستعداد لهُ واجب وضروريٌّ جدًّا ويلزمك في هذا التهيّؤ يا ايها الواعظ شيئان الاول درس الكتب المناسبة لموضوعك وهذا يأتى بيانهُ في الفصل التالي . الثاني أن تكتب في كاغد كتابةً مختصرة مقدّمة وعظك وأقسامهُ واحفظ غيبًا ما كتبتهُ حفظًا تامًّا حتى اذا القيتهُ على الناس لا تنسى منهُ شيئًا ولا يشرُد عنك منهُ شيء . وأمّا بقية الفاظ الموعظة فضعها من عندك كهواك فلا تحتاج

الى كتابة . وعيّن اماكن الشهادات والبراهين والامثلة والأخبار فهي للوعظ كالمسامير لأنها اوّلاً تمكن بنيان وعظك . وثانيًا تسعف القوّة الذاكرة لئلّا تشرد عن البحث الذي انت فيهِ فتكون بمنزلة درج السُلَّم تصعد فيهِ درجةً فدرجةً . وهذا التعيين ضروريّ للواعظ والّا فهو يخبِط في وعظهِ خَبْطَ عَشْواءَ فيكون بمنزلة اعمى ضائع في غابةٍ (حرش) لا يعرف اين يهتدي ولا يدري اين ينتهي وهذا شيء فظيع جدًّا وخِزْيٌ مرٌّ على الواعظ . قد هدم واعظين كثيرين وعطّلهم من صِناعة الوعظ الشريفة فالتهيؤ يخلّصك من هذا المحذور ويُردّ عليك ضالّتك . قال الحكيم ينصحك أرأيت الانسان العجول في كلامهِ إنَّ في الجاهل رجاءً اكثر منهُ (امثال ٢٩ : ٢٠) اي لا تؤمّل منهُ اصطلاحهُ ولا فائدتك فسبيلك اذًا يا ايها الواعظ أن تتهيأ لوعظك كما قلنا لتتقن صناعتك ولا تكن كانسان يجرّب الربّ (ابن سيراخ ١٨ : ٢٣) اي لا تخاطر معتمدًا على سعة ذهنك وحافظتك وشقشقة لسانك فانك بهذا تكون متكبرًا مهذارًا لا واعظًا متواضعًا . قال بطرس الرسول : كونوا مستعدّين دائمًا للاحتجاج لكل من يسألكم حجج الرجاء الذي فيكم (١ بطرس ٣ : ١٥)

فكما انا نلتزم ان نكون مستعدّين لان نجيب عن رجاء ايماننا كذلك يلزمنا ان نتهيأ في الخطاب للاجابة عن ثمرة ايماننا التي هي الخلاص لان الغير المتهيئ في خطابهِ يكون مضطربًا في كلامهِ قال الرسول : إن المرتاب يشبه موج البحر الذي تسوقهُ الريح وتخبطهُ (يعقوب ١:٦) هذه حالك يا ايها الواعظ اذا كنت غير متهيئ فانت تكون ماشيًا في عقلك مشية السرطان مقبلًا مدبرًا معًا متردّدًا ما بين رأيين لا تدري ايهما الاصوب. واذا كان الواعظ ذا رأيين فهو مضطرب في جميع طرقهِ (يعقوب ١:٨) وهذا عار عظيم يُحدثهُ عدم التهيّؤ . ان السيد المسيح لما اراد أن يظهر للعالم تهيأ ثلاثين سنةً قبل ظهورهِ ومثلهُ يوحنا الصابغ الذي اخبرنا عنهُ الانجيل المقدس قائلًا : وكان في البراري الى يوم ظهورهِ لاسرائيل (لوقا ١ : ٨٠) وهذا كان لنتلّمم ان نتهيأ قبلًا للامور المهمّة ولا اهمّ من وظيفة الوعظ المتوقفة عليها الهداية والدراية قال صاحب الرؤيا ولما فتح الختم السابع حدث سكوت في السماء نحو نصف ساعةٍ (رؤيا ٨ : ١) فهذا السكوت رمز الى التهيّؤ لصراخ السبعة الابواق المزمعة ان تلاشي العالم فتهيأ انت اذًا من قبل ان تنفخ ببوق الوعظ الاخير وتنهض الناس من

قبور خطاياهم . وهذا التهيّؤ يلزمك لثلاثة أسباب . الاوّل هو أنك بمقدار استعدادك يكون مقدار راحتك واتساعك في وعظك ويجول جواد معانيك في فساحة ساحة مَيدان كلامك وتنسكب عليك المعاني انسكاباً مدراراً حتى تقول حَسْبي حَسْبي فتنطلق من قوَّةٍ الى قوةٍ (مزمور ٨٣: ٨)

الثاني انهُ بهذا التهيّؤ يظهر مقدار غيرتك ورغبتك في تخليص الأنفس كما قال المرنّم في هذيذي اتقدت فيَّ نار (مزمور ٣٨: ٥) وتكون متشبهاً بيسوع الذي تهيّأ للموت ومات من اجل خلاص النفس . وليس بكثير عليك ان تتهيّأ من اجل خلاصها بالكلام فمن ثَمَّ يلزمك الاهتمام لذلك التهيّؤ الدقيق المتواتر وانت تقول مع الرسول كل يوم كان اهتمامي بأمر جميع الكنائس (٢ كورنتس ١١: ٢٨)

الثالث انك بالتهيّؤ تنجو من فلتات اللسان وعثراتهِ التي ليس لجرحها التئام . لأنَّ طعن اللسان أمضى من طعن السِنان فتنبَّه وكن يقظاً واعلم بانك وانت في منبر الوعظ تحدق بك حُسَّاد كثيرون لابسون جلود الحُملان والمِعزَى وهم في الباطن ذئاب خاطفة ولاسيما المدَّعين بهذه الصناعة الشريفة يتظاهرون

بانهم يسمعون وعظك . لكنهم في الباطن ذئاب مفترسة يترصَّدون عثراتك كما كان الكتبة والفريسيون يترصَّدون المسيح في وعظهِ فاحذرهم يا ايها الواعظ لان الحسد قد أذابهم كما اذاب قبلهم كَهَنة اسرائيل حسداً للمسيح الواعظ الحقيقي . ولهذا كانوا تارةً يطارحونهُ المسائل المشكلة ليصطادوهُ (متى ٢١ : ٢٣) وتارةً يرسلون اليهِ جواسيس متشبهين بالصديقين ليصيدوهُ بكلمة ليسلموهُ الى الرؤساء (لوقا ٢٠ : ٢٠) وتارةً يرسلون اليهِ شُرَطاً وتارةً يثلبون عملهُ وتعليمهُ وأما هو لهُ المجد فكان يقهرهم بالسكينة ويكيدهم بالصبر والتواضع قائلًا لهم تعليمي ليس هو لي بل الذي ارسلني (يوحنا ٧ : ١٦) وكان يتجنَّبهم كثيراً لئلا يعطيهم مادّةً للحسد فكن انتَ هكذا يا ايها الواعظ وتشبَّه بأبيك الذي أقامك في هذه الوظيفة وداوِ الغضبَ بالصمت والشهوةَ بالعقل . فانك إن تجنَّبت مثل هؤلاء وأتقنتَ شرط التهيّؤ تنجُ من غائلة حسدهم وانتقادهم الظالم وتعنّتهم المفترَى . وتعيش ما بين هذه الأشواك ببَهجة عِرضك وصيتك كما يعيش الورد بين الشوك ولا يتأذّى منهُ . ولهذا يقول المرنّم ما أسعد الرجل الذي يدبر كلامهُ برُشدٍ انهُ لن يتزعزع الى الابد ولا يخشى خبرَ السوء

(مزمور ١١١ : ٥) فليس هذا الرشد إلأَ التهيّوء الواجب عليك ان تصنعهُ من باب العدل يا ايها الواعظ . فاذ قد تقرَّر عندك نفعهُ وفائدتهُ فقل مع المرنّم تهيَّأتُ ولم أرتبك (مزمور ١١٨ : ٦٠)

الفصل السادس

في درس الواعظ الكتب الروحية

ان درس الكتب الروحية المناسبة للوعظ يلزم الواعظ جدًّا لأَنها هي سلاحهُ في جدالهِ وجلادهِ . وكما أَن النطق يلزمهُ العقل واللسان هكذا الواعظ يلزمهُ درس الكتب الالهية والكتب الروحية . وكما أَن العقل أَلزَم في ان يجعل الحيوان انسانًا هكذا الكتب الالهيّة المقدَّسة فان درسها أَلزَم في ان يجعل الانسان واعظًا ان الروح حلَّ بشكل حمامة يوم اعتماد السيّد (لوقا ٣ : ٢٢) ومنها عرف الصابغ ان هذا هو المسيح الآتي لخلاص العالم كما اخبرنا بذلك هو نفسهُ (يوحنا ١ : ٣٣) هكذا الروح القدس فانهُ يحلُّ بشبه الكتاب المقدس دالًّا على أن تعاليمهُ إلهيةٌ صادقة وقد أَخبرنا المرنّم عن هذه الحمامة قائلًا : أَجنحة الحمامة تُغشَّى بالفضَّة وريشها بالذهب النضير (مزمور ٦٧ : ١٤) اعني ان اجنحة هذا الكتاب الالهيّ المقدّس هي كتب الآباء القديسين وعلماء البيعة

المقدَّسة وهي مفضَّضة بالتعاليم الروحيّة لكنها مبنيَّة على تعليم الكتاب الكريم ولهذا كان ريشها مذهبًا فيلزم الواعظ قبل كل شيء أن يواظب على درس الكتـاب المقدَّس اي العهد القديم والحديث لأَسباب منها اوَّلًا ان يختار منهُ الشهادات المناسبة لوعظهِ ويجعلها الأُصول في تعاليمهِ . ثانيًا أَن يستعير منهـا بعض تشابيه وأَمثلةٍ وأَخبارٍ يضمّن فيها مقاصدهُ ليستعين بها في وعظهِ . ثالثًا أَن يؤسس وعظـهُ على كلام الله . اوَّلًا لأَنهُ اذا أَسَّس وعظهُ على صخرة كتاب الله كان كلامهُ متينًا مكينًا لأَنهُ جَبَلُ الأَسنمة (مزمور ٦٧ : ١٦) فيلتزم السامعون ح تصديقهُ والتسليم بهِ ضرورةً . لأَنَّ كتاب الله حقّ وهو أَصدق القـائلين . فلا يرتابنَّ احدٌ بالواعظ بانهُ يقول شيئًا من عندهِ واذا قال يلزمهُ ان يؤيّدهُ بنصوص الكتاب المقدَّس وبتعليم الآباء القدّيسين الصحيح . كذا كان يفعل يسوع في وعظـهِ مع أنهُ هو الله حقًا رب العهدين . وروح المسيح هو الناطق في الكتب المقدَّسة وفي الأَنبياء والقديسين . لانهُ ان كان احد ليس فيهِ روح المسيح فهو ليس منهُ (رومية ٨ : ٩) ولهذا تراهُ لما أَراد أَن ينفي الطلاق استشهد بالكتاب المقدّس حيث قال في بدء الخليقة ذكرًا وانثى

خلقهم الله لذلك ليترك الرجل أباهُ وأمَّهُ ويلزم امرأتهُ فيصيران كلاهما جسداً واحداً (مرقس ١٠: ٦ـ٨) ولما اثبت قيامة الموتى استشهد بما قال الله لموسى في سفر التكوين انا اله ابراهيم واله اسحق واله يعقوب (متى ٢٢: ٣٢) ولما جادل إبليس مجرّبهُ ردَّ عليهِ بما قالهُ في سفر الاشتراع للرب إلهك تسجد واياهُ وحدهُ تعبُد (لوقا ٤: ٨) ولا تجرّب الربّ الهك وليس بالخبز وحدهُ يحيا الانسانُ بل بكل كلمة تخرج من فم الله (لوقا ٤: ٤) ولما لمَّح الى خيانة يوضاس الذي سلَّمهُ اثبت ذلك بما ورد في سفر المزامير الذي اكل الخبز معي هو رفع عليَّ عقبهُ (يوحنا ١٣: ١٨) وما استشهد بهِ من آيات الكتاب المقدَّس نحوٌ من ستين شَهادة أوردها ليثبت بها تعليمهُ لليهود ولهذا قال انتم تبحثون في الكتب لأنكم تحسبون ان لكم فيها الحياة الابديّة فهي تشهد لي (يوحنا ٥: ٣٩) أتأمَّلتَ يا ايها الواعظ كيف ينصحك الله نفسهُ بتفتيش الكتب ودرسها لتشهد لصحَّة تعليمك في يسوع الذي لنا فيهِ حياة الأبد فانَّ درسك الكتب يكون على مقدار رَغْبتك واجتهادك في وظيفتك قال المرنم ما أشدّ حبي لشريعتك هي تأمّلي النهار كلهُ فهو طول النهار تلاوتي (مزمور ١١٨: ٩٧)

أرأيتَ رغبة النبيّ في شريعة اللهِ حتى حملتهُ على ترك أشغالهِ واشتغالهِ ليدرس فيهِ النهار كلَّهُ. وكذلك الخصيّ الذي اخبرنا عنهُ الكتاب المقدّس بأنهُ لما كان مسافرًا في مركبة لهُ كان مكبًّا على درس كتاب الله (اعمال ٨ : ٢٨) ولم تمنعهُ مشقَّة السفر عن التلاوة . وهذا الدرس قادهُ الى الايمان بالمسيح فمن ثَمَّ كان الواجب عليك يا ايها الواعظ الذي لا عمل لهُ الا الوعظ ان تعكِف على درس الكتب الروحيّة دائمًا . لتجنيَ من رياضها اثمار الحياةِ لك ولمن يسمع تعاليمك . ولا تتَّكل على عقلِك واختراعات تصانيفك . فانَّ هذا رايٌ بشريٌّ لا روح فيهِ . واقتدِ بيسوع أساس وظيفتكَ الذي لم نجِدْ لهُ عِظةً خاليةً من شهادات الكتاب المقدس . فانظرهُ حين دخل مجمَع اليهود في الناصرة يوم السبت . ولما اراد أن يعظ اليهود تقدَّم فتناول اوّلاً كتاب أشعيا ليثبت لهم منهُ حقيقة مجيئهِ (لوقا ٤ : ١٦) وقد كان يمكنهُ من حيث انهُ مملوء حكمةً الهية أن يعظ بديهًا فلم يُرِد لكي يعلّمك يا ايها الواعظ ان تعمَل مثلهُ . نرى الرسول ايضًا يحثُّ تلميذهُ على الدرس قائلًا لهُ : واظِبْ على القِراءة الى حين قدومي وعلى الوعظ والتعليم (١ تيموتاوس ٤ : ١٣) فقد

قدَّم الرسول هنا دَرْس الكُتُب على التعليم • وجعله لهُ علّةً • ولم يكتفِ بهذا فقط بل انهُ أخذ يَحثّهُ ويحرّضهُ على الاجتهاد فيهِ لفائدة نفسهِ والسامعين لهُ اذ قال ولاحِظْ نفسك والتعليم واستمرّ على ذلك . فانك اذا فعلتَهُ تخلّصُ نفسك والذين يسمعونك فأيّة حجّةٍ يوردها الواعظ بعد هذا في عدم درس الكتب المقدسة الالهية والروحية التي من تعليم آبائنا القدّيسين . فان قلتَ اولًا لا أحتاج الى درسٍ لكوني حافظًا أشياءَ كثيرةً مناسبةً للوعظ أجبْتك ان هذه هي الضلالة الكبرى الناتجة من الكبرياء والاعتداد بالذات . وقد تقدَّمنا بالتنبيه عليها الى الآن . وقد قال بعض الفضلاء رأس الكفر كراهة التعليم ادرس فتعلم ان كنت مؤمنًا

إن قلت ثانيًا انهُ لا كتب لي لأدرُس فيها أجبتك بعْ ثوبك واشترِ لك سيفًا (لوقا ٢٢ : ٣٦) لأَن الكتب هي سيف الواعظ وبدونها لا يستطيع الحرب والقتال . فلماذا تجنَّدتَ لهذه الوظيفة أليس لتعِظ من كتاب الله وقدّيسيهِ . فبعْ ما يعزُّ عليك وابتَعْ لك كتبًا لتكون كاملًا في وظيفةٍ كاملةٍ

وان قلت ثالثًا ان السامعين قليلون لا يحتاج في وعظهم الى

درس كتبٍ . أجبتك وهذا حقيقةً كسلٌ منك . فان كنت تكسل في الامور الخفيفة فما ظنّك في الثقيلة . وقد سمعتَ أن الخائن في القليل خائن في الكثير (لوقا ١٦ : ١٠) ان الحدّاد لا يستغني عن النار ولو أراد أن يطرُق مسمارًا واحدًا صغيرًا

وان قلت رابعًا انني لا إفهم الكتب إذا درستُ أجبتك لماذا اخذت وزنة سيّدك . فقد كان الأوفق لك أن تضع فضّة سيّدك على مائدة ليأتي فيأخذها مع ربحها من غيرك (لوقا ١٩ : ٢٣) فلا عذرَ لك بعد أن تحقّقتَ ان الدرس لازمٌ لك في وعظك وتعليمك ويشهد بصحّة ذلك اجتهاد تلميذ الرسول الذي كان منذُ صبائهِ مكبًّا على درس الكتب كما يخاطبهُ الرسول قائلًا لهُ انك من الطفولية تعرف الكتب المقدسة القادرة ان تصيّرك حكيمًا بالايمان بالمسيح يسوع (٢ تيموثاوس ٣ : ١٥) فبدونها اذًا لا حِكمةَ ولا خلاصَ . لماذا لأنَّ كل كتابٍ أُوحِيَ بهِ بالروح من الله سواء كان من كلام الله او من كلام الآباء القدّيسين مفيدٌ للتعليم وللتقويم وللتهذيب بالبرّ . حقًّا ان الواعظ الذي فيهِ غيرة الله ينتبه إذا سمع من الرسول هذه التنبيهات ومن لم يكن مجتهدًا على درس الكتب يدُلّنا اوّلًا على أنهُ غير معتنٍ بنموهِ ووظيفتهِ .

قال القديس اثاناسيوس مَن يُهمِل درس الكتب الروحيّة لا يستبعِد مضرّتهُ وعدم نموّهِ . وثانيًا على انهُ لا يستطيع ان يصلح وعظهُ اذا كان فيهِ نقص لكون الكتب مرآةً نرى فيها وبها نقائِصنا . قال القديس غريغوريوس الكبير ان الكتب الروحية مرآة بازاء انفسنا . نرى فيها أُمورنا الباطنة . وثالثًا على ان الذي لا يدرُس الكتب الروحية ليعظ الشعب يكون متكبرًا معتدًّا برأيهِ وعقلهِ وعلمهِ كما قلنا . فهذا إنما يُعَدّ واعظًا جاهلًا ليس فيهِ روح التعليم ولا هو مقتدٍ بيسوع معلّمهِ ولا برسولهِ الذي قال: ان بشَّركم احدٌ بخلاف ما بشَّرناكم بهِ فليكن محرومًا (غلاطية ١ :٨) لأنّ واعظًا مثل هذا لا يكون طالبًا في وعظهِ مجد الله ورضاهُ بل مجدَ ذاتهِ ورضى الناس . فلهذا كانت عِظتهُ ضلالةً وكذبًا . أَعاذكَ الله من هذا يا ايها الواعظ المحقّ . قد قال بعض الحكماء للانسان عقل ومنطِق فبالعقل يستفيد وبالنطق يُفيد فاستفِد اذًا من معاني الكتب وأَفِد السامعين في الوعظ بما استفدتهُ فادرُس اذًا الكتب الروحية قبل تأليف وعظك وعيّن الاماكن التي تريدها ليسهل عليك ضمُّها وتأليفها عند ما تكتب مقالتك واعمَل كما يعمل لاعب الشطرنج . فانهُ يضع اولًا كل

قِطعةٍ في بيتها ثم يبرز الى خصمهِ . وقد قلت واقول ان الكتب الروحية سلاحُ الواعظ فكما ان الجنديّ اذا كان في الحرب بغير سلاح لا يأمَن من خَطَر القتل كذلك الواعظ اذا كان بلا سلاح الكتب المقدسة لا يأمن من خطر الغلط ولاسيما اذا كان الحسَّاد محدقين بك يرصُدون ليصطادوك كما قلت لك سابقًا مثلما كانوا يرصُدون المسيح قبلك وكما ان الطائر لا يستطيع الطيران بغير جناحين كذلك الواعظ لا يستطيع الوعظ بغير جناحي الكتب المقدسة والكتب الروحية فنجّر سفينة وعظك يا ايها الواعظ من الواح كتب آبائِنا القديسين وعُلماء الكنيسة المقدسة وسمِّرها بمسامير كتاب الله العزيز الاشرف فتسير حِ في سفينتك آمنًا مطمئنًا اضرب الصخرة مرّتين فتجري لك منها المياه (سفر العدد ٢٠ : ١١)

الفصل السابع

في معاشرة الواعظين المحقّين وفي التمرين في صناعة الوعظ

مَن يريد أَن يتعلَّم صِناعة الوعظ يلزمهُ أَربعة أَشياء

الاوّل أَن ينتخب لهُ مرشدًا ماهرًا في هذه الصناعة .

ويكون فيها حكيماً أستاذاً نقّاداً ليريه شروط هذه الصناعة الدقيقة ويبينَ لهُ آلاتها اللازمة في إتقانها ويوضح لهُ كلَّ شيء من حركاتها كما قيل جالس العلماء تستفِد. ومن يريد ان يتعلَّم مهنةً فلا يمكنهُ الوصول اليها من غير معلم يريهِ أُصولها ودقائقها. هكذا حال من يريد ممارسة صناعة الوعظ فلا يمكنهُ التوصُّل الى غايتها ما لم يكن لهُ فيها مرشد. وبمقدار ما تكون المهنة دقيقةً بمقدار ذلك يلزمها مرشدٌ ماهرٌ. هكذا الوعظ فانهُ صناعة دقيقة جدًّا. فلهذا يلزمها مرشدٌ حكيمٌ تامٌّ بالعلم والعمل. قال القديس يوحنا السلميّ قبل دخولنا في ذلك ينبغي ان نفتش عمَّن نريد ان يسوسنا ونفحص أخلاقهُ لئلا نقع عند نوتيّ كأنهُ مدبر سفينةٍ وعند مريضٍ كأنهُ طبيب وعند سقيمٍ بأدواء عزمهِ كأنهُ ناجٍ منها وفي لُجَّةٍ كأنَّها ميناء فنصادف لأنفسنا غرقاً معدًّا اي انهُ يلزمك في هذه الصناعة ان تختار لك معلّماً ماهراً بالعمل اكثر من العلم يكون مملوءًا اتضاعاً وحكمةَ الهيةً. لأنهُ اذا كان غير حافظٍ شروط الوعظ فتذهب أيام مُقامك معهُ هدراً بلا تعلّمٍ. او كان مغلوباً بالاهواء لنفسهِ ولشهواتهِ متكبراً عاتياً فظًّا غليظاً وغريباً من السيرة

الصالحة . فمثل هذا ولو كان معلّماً ماهراً في صناعة الوعظ فهو يضُرّك كما يضُرّك الجاهل . قال الحكيم لا تصاحب الرجل الغضوب لئلا تتعلم سبله وتأخذ لنفسك وهقاً (امثال ٢٢ : ٢٤) لانك تتخلق باخلاقه المعوجّة فتظنّها صواباً فتعود تنتصر له وتؤيّد غلطه ونفاقه . قال المثل السائر اكبر الأوزار تزكية الاشرار . فيصير عثرةً لنفسك لا تستفيد منه غيرَ العجرفة والصلف . وتظنّ أن هذا واجب للواعظ ليزيد كرامةً واحتراماً كما سمعت منه وأخذت عنه . وفاتك وفاته ان الكرامة في الاتضاع والاحترام في الوداعة أجارك الله من معلم هذه صفاته . فخيرٌ لك أن لا ترافقه كما كان خيراً ليوضاس ألاّ يرافق اليهود ويسلّم ربّ المجد فدَعْ معلّماً مثل هذا ولو كان علاّمةً لئلا يكون لنفسك عثرةَ الهلاك الابديّ لأن بُعْدَ الاحمق خيرٌ من قربه وسكوته خيرٌ من نطقه . واخترْ لك مرشداً حكيماً روحياً راضعاً حليب التواضع والفطنة فإنهُ يرشدك إرشاداً تاماً . واذا دخلت تحت ارشاده فأطِعهُ في كل ما يريكهُ . قال القديس باسيليوس انهُ اذا اراد احدٌ في العالم ان يتعلّم مهنةً ليقوم بشأن نفسه فيتلمذ لمعلّم ماهر فيها ويتأمل في حركة يديه . ويطيعهُ بما يقولهُ له

ولا يضادّهُ في شيءٍ ولا يحكم عليهِ ولا يدينهُ . ولا يطلب منهُ لماذا يأمرهُ بهذا فانهُ على هذا المنوال يصير معلّمًا ماهرًا في تلك المِهْنة . هكذا قال الرسول لتلميذهِ فاستمرَّ انت على ما تعلَّمتهُ وأُئتُمنتَ عليهِ متذكّرًا مَن تعلَّمت منهم (٢ تيموتاوس ٣ : ١٤) ومن المعلوم انهُ تعلم من بولس إمام الواعظين علمًا وعملًا . ولهذا صار حكيمًا لأنهُ في فم الفَطِن تُوجَد الحِكْمة امثال ١٠ : ١٣) هكذا حزب التلاميذ الاطهار فانهم لما تتلمذوا للسيِّد المسيح اكتسبوا اوّلًا من كمالهِ واعمالهِ وتعاليمهِ ثم أُقيموا اخيرًا على البشارة والوعظ . ولما رجع كثيرون من تلاميذهِ الى ورائهم منفصلين عنهُ حين جُبنوا من كلامهِ قال للاثني عشر لعلَّكم تريدون المُضيّ ايضًا . فأَجابهُ بطرس قائلًا : الى مَن نذهب ان كلام الحياة الأَبديَّة هو عندك (يوحنا ٦ : ٦٩) فانتخب لك مرشدًا على هذه الصفة حتى اذا راودك على الانفصال عنهُ تقول لهُ كما قال بطرس لمعلّمهِ

الثاني ينبغي لهُ أَن يعاشر الأَقوياء في صناعة الوعظ ويسمع وعظهم ويتأمّل في تراكيب كلامهم وحركات أَيديهم . فامعن النظر يا ايها الواعظ المتعلّم في هذا كلّهِ مدقّقًا . وتأمّل كيف

يجولون بنظرهم ولفتاتهم . وكيف ابتداؤهم بالاقسام وانتهاؤهم . وكيف يكون ختام كلامهم . واتّخذ منهم ما كان الاحسن لأنَّ المناظرة تُؤذِن بالمماثلة . قال افلاطون : ان الحديد اذا لمس المغناطيس اكتسب منهُ القوة الجاذبة فيصير يجذب حديدًا آخر مثلهُ . وهكذا انت فانك اذا تأَمَّلتَ في اوضاع الواعظين الحكماء وعاشرتهم في وعظهم تكتسب منهم ما تراهُ فيهم من لوازم صناعتك كما يقول مُسايرُ الحكماء يصير حكيمًا (امثال ١٣ : ٢٠) اي ان عاشرت واعظًا حكيمًا صرتَ مثلهُ وكُنْ كالنحلةِ التي اذا وقعت على الزهرة تأخذ منها أَلذَّها وأذكاها اي لا تقلِّد الواعظ الذي تعاشرهُ الَّا فيا تراهُ فيهِ من الحركات المناسبة التي تحرّك السامعين الى الرَّغبة . وما كان غير مناسب فاطّرِحهُ عنك . اذا كان الشَمَع لينًا انطبع فيهِ من نقش الخاتم ما كان بيّنًا . كُنْ انت لينًا بحرارة الرغبة فينطبع فيك كل ما تراهُ في الواعظ من الأُمور المناسبة وسوف يأتي الكلام على هذا المعنى مليًّا في الفصل التاسعَ من القسم الثالث هنا . واما الواعظ المذموم السيرة والمتكبّر العاتي فاحذرهُ وتجنَّب مخالطتهُ والنظر اليهِ بالكلية لئلَّا تستقي عوض الماء

القَراح ماءٌ زُعاقًا لأَن خليل المرء دليل عقلهِ فلا تا كل معهُ ولا تشتهينَّ اطعمتهُ (امثال ٢٣:٦)

الثالث السؤَال اي كن متَّضعًا مستفيدًا . واسأل وفتِّش عمَّا يُفيد في صناعة الوعظ . ولو كان مَن تسأَلهُ دنيًّا حقيرًا كما سأل داود الملك ذلك الصعلوك المصري الدنيّ حتى دلَّهُ على الغُزاة الذين كانوا قد نهبوا مالهُ وعيالهُ واستردَّهم (١ ملوك ٣٠:١١) فاسأَل انت هكذا فتهتدي وتصير حكيمًا . وان عزَّ عليك المرشد والعشير المناسبان فادرُس في الكتب المؤلفة في صناعة الوعظ فانها تهديك هدايةً كبرى

رابعًا اذا تممت يا ايها المتعلّم الشروط الثلاثة المقدّم ذكرها ها هنا يلزمك في هذا الشرط ان تستعمل التمرُّن وهو انك تمارس بالعمل ما تعلّمتهُ بالنظر لأَنَّ النظريَّ خلاف العمليّ . ان المهنة تراها هنيةً في النظر ولكن اذا باشرتها بالعمل تراها عسرةً جدًّا . ما اكثر العوامّ الذين يستهونون طريقة القدَّاس لأَنهم يَرَونها كل يوم . فاذا صار واحدٌ منهم كاهنًا وباشرها بالعمل يراها عسرةً عليهِ جدًّا وذلك الذي كان يراهُ من قبل هيّنًا صار الآن عسرًا عليهِ في العمل . ويلزمهُ مرشد وايام ليحفظهُ كما

يجب . ان بطرس الرسول لما رأى الرب ماشياً على الماء استهون ما رآهُ وطلب المشيَ مثلهُ . فلما مشى ورأى تراكم الامواج صاح وكاد ان يغرق (متى ١٤ :٢٨) وقِسْ على هذا الاسلوب حكم الفضيلة . فاذا سألت العالم الفيلسوف ما هو التواضع ذكر لك حالًا حدَّهُ وتعريفهُ واقسامهُ ودرجاتهِ وعلاماتهِ وأسبابهُ واتّسع في ذلك اتساعًا عظيماً . فاذا امتحنتهُ بفضيلة الاتّضاع بالفعل تراهُ جاهلًا غبياً فيهِ بالكلية لا يدري منهُ شيئاً فتكون العجوز الغبيَّة المتواضعةُ اعلمَ منهُ في فضيلة الاتّضاع وهو العالم الفيلسوف . اذ كان ذاك انما يعرفهُ بالنظر وهذا تعرفهُ بالعمل . ومن المعلوم أن العمليَّ حقيقيٌّ والنظريّ خياليٌّ ولهذا قال السيّد للكَتَبَة والفريسيين الحقَّ أقول لكم إن العَشَّارين والزُناةَ يسبِقونكم الى ملكوت الله (متى ٢١ : ٣١) وهذا الحكم جارٍ في بقية الفضائل والرذائل . فمن ثَمَّ يلزمك يا ايها المعلّم أن تمارس في اول امرك صناعة الوعظ بالعمل لتتمرَّن بذلك ويلزمك اوّل مباشرتهِ أَن تعِظ في القرى الحقيرة ما بين أُناس ساذجين

اولًا لانك لا تهابهم لعلمك ان ليس فيهم عالم ولا منتقد

وثانياً لأَنك اذا غلِطتَ في وعظك او نسيتَ منهُ شيئاً او

اخللتَ بالصناعة لا يعرفون ولا يتنبهون لذلك . وكن بمنزلة الذي يتعلم السباحة فانهُ اولًا يدخل في ضَحضاح الماء فاذا تمهَّر يُلقي بنفسهِ في اللُّجَّة ولا يخاف الغرَق هكذا انت فاذا تمهَّرت في صناعة الوعظ على الفلّاحين الاغبياء فادخل في المدن والكنائس العظيمة وارفع فيها صوتك غير متهيّبٍ احدًا لانك متى هبت السامعين في اوائل وعظك وخفت سطوة المنتقدين تمكن منك الوهم وهلَعَ القلب . وانهدمت حياتك كلها . وهيهات ان تعود فتتقدم في وعظك الى قدام وهذا من المجرَّبات . لان الخوف الذي يكون قد سكن القلب يتَّسع في العقل فيُفسد جميع آلاتهِ وقواهُ . ومن ثم نرى العسكر متى انكسر أمام العدوّ لا تعود لهُ جرأة على ان يرجع فيواجه عدوَّهُ ايضاً . ودواء هذا الداء العُضال هو انك متى قمتَ في مقام الوعظ لا تعُدّ السامعين الَّا مستفيدين فقط من كبيرهم الى صغيرهم وأنهم كلهم محتاجون اليك لتفيدهم فلا تعتبر مكانًا ولا زمانًا ولا شخصاً ولا كثرةً ولا اراكنةً ولا رؤساءَ ولا علماءَ ولا واعظين لأنهم جميعاً يطلُبون منك الفائدة لبنيان نفوسهم . اسمع الرسول يُشجِّعك قائلًا : اكرِز واعكُف على ذلك بالكلمة واقم

بما انتَ فيهِ مجتهداً في وقتهِ وفي غير وقتهِ وحاجج ووبّخ وعِظ بكل أناةٍ وتعليمٍ (٢ تيموتاوس ٤ : ٢) وما احسن ما قالهُ النبيّ في هذا الصَدَد ارفع صوتك ونادِ بحنجرتك ولا تُشفِق على حَلقك ووبّخ آل يعقوب واكشِف نِفاق اسرائيل وهذا لا تبلُغ اليهِ الا بهذه الشروط. اسأل تُعطَ اطلبْ تجِد اقرَع يُفتَحْ لك (متى ٧ : ٧)

الفصل الثامن

في اتّكال الواعظ على الله في وعظهِ

إنّ الأطبّاء الجسديّين الاتقياء اذا عالجوا مريضاً يعالجونهُ بالأدوية المفردة والمركّبة وبباقي لوازم صِناعتهم وهم متّكلون على الله لا على عِلاجهم في شفاء ذلك المريض. لأنهم هم وادويتهم آلة في الشفاء. وأما الفاعل فهو اللهُ وحدهُ وخلاف ذلك ضلالةٌ. هكذا حالك يا ايها الواعظ والطبيب الروحيّ. فانهُ يلزمك في علاج المرضى بالخطايا ان تتكل في شفائهم بالتوبة على الله وحدهُ لا على ذاتك وصِناعتك وآلاتك واطلب منهُ تعالى ان يساعدك في تراكيب الأدوية الروحية التي تُريد ان تقدّمها للمرضى بالروح فان كان هذا الاتكال نفسهُ يلزم الاطباء الجسديّين فما اكثر

لزومهُ للأَطباء الروحيّين فالواجب عليك في وعظك يا أيها الواعظ أَن تُقيم ذاتك ووسائطك آلةً في يد الله يعالج بها النفوس المرضى بالخطيئة . وخلاف ذلك ضلالةٌ كبرى . قال الرسول الالهيّ : فهذه الثقة لنا بالمسيح لدى الله لا أَنَّ فينا كفاءة لأَن نفتكر فِكرًا بأَنفسنا كأَنهُ من أَنفسنا بل كفاءتنا من الله الذي جعلَ فينا كفاءَةً لخدمة العهد الجديد (٢ كورنتس ٣ : ٤ ـ ٦) فضع ذاتك ناحيةً يا ايها الواعظ ودع الله سبحانهُ يتقدَّم بواسطة وعظك الى شفاء الأَنفس . خبرنا الكتاب المقدس أَن أُناسًا من اليهود كانوا يعزِمون على الشياطين باسم الرب يسوع فأَجابهم الروح الشرّير قائلًا : أَنّي أَعرِف يسوع وبولس اعلَمُ من هو . وأَما انتم فمن تكونون ثم وثب عليهم الرجل الذي كان بهِ الروح الشرّير وتمكَّن من معزّمِين منهم وقوي عليهما حتى انهما هربا من ذلك البيت عريانين مجروحين (اعمال ١٩ : ١٥) فهذا عينهُ يقولهُ لك الروح الخبيث الساكن في الخاطئ اذا لم تتّكل على الله ترجع في وعظك بلا ثمرة بل مهشّمًا من روح الكبرياء الخبيث . فيلزمك اذًا ان تتّكل على الله في وعظك لهذه الأَسباب

اولاً لتعرف أن قوة الله هي الفاعلة كما تقدّم بيانهُ في النصّ الرسولي : لئلا تتدنَّس بشارة الانجيل المقدّس بدنس رأيٍ بشريّ فتفسُد حٍ ثمرة الوعظ وتُرذَل اذا جنَتها يد الحكمة البشريَّة التي قال الله فيها فحِكمة حكمائهِ تضمحلّ وعقلُ عقلائهِ يفنى (اشعيا ٢٩ : ١٤) لكونهِ تعالى جعل حكمة الحكماء جهالةً وسَفاهةً لأنَّهم اتكلوا عليها لا على الله ٠ ولهذا يقول الرسول : ان هذه الأَشياء التي ننطق بها لا بكلماتٍ تعلّمها الحكمة البشريَّة بل بما يعلّمهُ الروح (١ كورنتس ٢ : ١٣) فكأَنهُ يقول إِن ما نكلمكم بهِ من جِهَة التعليم ليس هو لنا بل هو لله فقط ٠ وانما نحن خزَنَة أسرارهِ يقول البشير مخبرًا عن يسوع وهو على ما كان يُظَنّ ابن يوسف (٣ : ٢٣) وليس الامر كذلك بل هو ابن الله حقًّا المساوي لأَبيهِ في الطبيعة والذات والجوهر ٠ هكذا ثمرة الوعظ في الخاطئين التائبين فلا تظُنَّ أَنها من قوّة وعظ الواعظ ٠ إن هذا إِلَّا نِفاق وغلط محضٌ ٠ بل هي من قوَّة الله القادر على كل شيءٍ الفاعل في وعظ ذلك الواعظ المتّكل هو عليهِ ٠ فان قصدتَ هذه الثمرة في وعظك فكن متكلًا على الله فتكون حٍ قد جعلتَ اللهَ الفاعل لا نفسك وما

يفعلهُ الله يثمر · وما تفعلهُ انت متكلًا على قوة وعظك يُفسِد فتكون بمنزلة مَن يفرغ ماءً في حوضٍ مثقوبٍ · هكذا قال ربُّ الجنود وجّهوا قلوبكم الى طرقكم لقد زرعتم كثيرًا واستغللتم قليلًا · أكلتم ولم تشبعوا · شربتم ولم ترتَوُوا · اكتسيتم ولم تستدفئوا والذي يأخذ أُجرةً يأخذها في صرَّةٍ منقوبةٍ (حجَّاي ١ : ٥) انتبه الى ما يقولهُ السيّد لهُ المجد ان الغصن لا يستطيع ان يأتي بثمرٍ من عندهِ ان لم يثبت في الكرمة · وأنا الكَرْمَةَ وانتم الاغصان مَن يثبُت فيَّ وانا فيهِ فهو يأتي بثمرٍ كثير لانكم بدوني لا تستطيعون أن تعملوا شيئًا (يوحنا ١٥ : ٤ـ٥) هل من تقرير اوضح من هذا يلزمك يا ايها الواعظ ان تتّكل على الله في وعظك · ولاسيما حين يتهدّدك الله قائلًا : ان كان أحدٌ لا يثبت فيَّ يُطرَح خارجًا · يعني ان لم تثبت في الاتكال على الله رُذِلت انت وتعليمك فالثمار الذي أينَعت من وعظك التي هي تخليص الأنفس ليست لك لانك لستَ الَّا غصنًا اي آلة · بل هي للأَصل الذي هو الله الفاعل وحدهُ

ثانيًا لتظهر قوّة الله التي يظهرها فيك اذا اتَّكلت عليهِ

يا ايها الإناء الضعيف . ان بطرس سهِر الليل كلهُ في صيد الحيتان ولم يصِدْ شيئاً لأنهُ كان متَّكلًا على صِناعتهِ . ولما قال لهُ يسوع أَلقِ شبكتك فاتكل عليهِ بقولهِ لهُ لكن بكلمتك أُلقي الشبكة ثم ألقاها وصاد سمكًا كثيرًا فمن ثم عرف بطرس ضعفهُ فصرخ نحو يسوع قائلًا اخرج عنّي يارب فاني رجل خاطئ (لوقا ٥: ٤) . لماذا . لكونهِ اتَّكل اولًا على ذاتهِ وصناعتهِ . هكذا انت فانك اذا القيت شبكةَ وعظك متّكلًا على صِناعتك مثل بطرس فلا تصطاد ولا نفسًا واحدةً . وان القيتَها متّكلًا على الله تصطاد نفوسًا كثيرةً

ثالثًا لكي تعرف أنك تِلميذٌ في خلاص النفوس لا معلّم فاذا كان المعَلّم حاضرًا يلزم التلميذ ان يكون خادمًا في صناعتهِ والمعَلّم يتصرّف بهِ كيف شاء ويلزم التلميذ ان يزيد فرحًا اذا راى معلّمهُ ممدوحًا من إِتقان صناعتهِ . فهذه حالك مع يسوع فكن لهُ خادمًا في وعظك لا فاعلًا . وافرح بيسوع اذا رأَيت النفوس متخلّصةً بوعظك ولا تفرح بصناعتك وتنسُب الخلاص اليك . فان هذا نِفاق جسيمٌ . وكن كما قال يوحنا الصابغ أمــا صَدِيق العرُوس الواقف يسمعهُ فهو يفرح فرحًا لصوت

العروس ففرحي هذا قد تمَّ . ولهُ ينبغي ان ينمو ولي أن أَنقُص . لأَن الذي جاءَ من العُلى هو اعلى من الكِل والذي من الارض هو أرضيٌّ وبالارضيَّات ينطق والذي أَتى من السماء فهو فوق الكل (يوحنا ٣ : ٢٩ — ٣٠) تعلَّم الاتّضاع هنا من يوحنا اعظم الانبياء واعلم بأَنك ترابٌ ورَمـاد فليس لك شيء تنسُبهُ لصناعتك الا الضعف فقط واتَّـكل على يسوع الذي جاءَ من السماء واقامك وافرح بهِ لأَنهُ بك يصنع المعجزات

رابعًا لكيلا تفتخر في ذاتك أَنك واعظ مفلق اذا كنتَ متحققًا ان الله الفاعل فيك لا انتَ وانما أَنت آلة ملتزمة ان تتمم في يد الفاعل ما يراهُ في عقلهِ من صناعتهِ . لهذا تقدَّم الله فقال اذا فعلتم جميع ما أُمرتم بهِ فقولوا انَّا عبيد بطَّالون انما فعلنا ما كان يجب علينا فعلهُ (لوقا ١٧ : ١٠) اعني ليكن اعتمادكم في وعظكم على الله الآمركم لا على وسائطكم وصناعتكم الواجب عليها ان تتممّ نيَّة الله . ان بطرس ويوحنا لما شفَيا ذلك المقعد عند باب الهيكل . تعجب الشعب من صنيعهما فقال لهم الرسولان لماذا تتفرَّسون فينا كأَننا بقوَّتنا وتقوانا جعلنا هذا يمشي . انمـا ذلك بقوَّة إله ابراهيم واسحق ويعقوب (اعمال ٣ : ١٢) فليكن هذا

فعلك يا ايها الواعظ اذا عمِلت كلَّ ما ينبغي لوظيفتك وشفيتَ النفوس المقعَدة المخلَّعة بخطاياها

خامساً لكي يتم رجاؤكَ في اتكالك على الله بفائدة وعظك وتأثيرهِ في نفوس السامعين قال الله لبني اسرائيل كلُّ موضع تطأهُ اخامص اقدامكم يكون لكم (تثنية الاشتراع ١١ : ٢٤) قال الانبا برنردوس في تفسيرهِ هذه الآية ان الاقدام هنا كناية عن الرجاء أي انّ رجاءَكم يكون بمقدار خطواتكم فاذا اتكلت على الله كثيراً رجوتَ منه اموراً كثيرةً لانهُ لا يخيّب المتكلين عليهِ (مزمور ٣٣ : ٢٣)

سادساً ليكون الله غيوراً على اتمام مجدهِ فيك اذا رآكَ متكِلاً عليهِ فينتصرح لمجدهِ فيك ويحقّق كل أملك فقل لهُ اذاً مع المرنّم لا لنا يا ربّ لا لنا لكن لاسمكَ أعطِ المجد (مزمور ١١٣ : ٩) فانهُ تعالى يفرح بهذا الاتكال فيدنو منك كما انهُ يحزن لعدم هذا الاتكال فيبعد عنك ويرُدّ وجههُ عن وَعظك ولا يسمع صوت تعاليمك ولا يُنمي غُروسهُ فيكون بغير ثمرةٍ فكُن بكل قلبك متّكلاً على الرب ولا تعتمد على فطنتك (امثال ٣ : ٥)

الفصل التاسع

في استقامة نية الواعظ في وعظهِ

لما أَراد نوح أَن يعرِف هـل نشِفت أَمواه الطوفان ام لا أَرسل الغُراب ليكشِف لهُ ذلك فذهب الغراب واشتغل ببطنهِ ولم يلتفت الى نية مرسِلهِ فلم يعُد اليهِ حتى نشِفت الميـاهُ عن وجه الارض . ثم أَطلق بَعْدهُ الحمامة فعاودت اوّلًا وثانيًا وبفمها غصن زيتون اخضر (تكوين ٨: ٦) فالواعظ الذي يبتـدئُ بوعظهِ من غيران يوجه نيّتهُ الى الله الذي أَقامهُ واعظًا . يشبه غُراب نوح الذي ذهب ولم يرجع . هكذا هـذا الواعظ فانهُ يذهب في وعظهِ غير ملتفتٍ الى الله . ذاك شغلتهُ محبَّة بطنهِ . وهذا شغلتهُ محبّة ذاته . ذاك شَبِع من جِيَف القتلى . وهذا شَبِع بالوَهْم من مَحبَّة العالم الميت . وأَمـا الواعظ الذي يوجه نيتهُ الى الله قبل ابتدائهِ بوعظهِ فيشبه تلك الحمامة المبـاركة التي عاودت الى نوح بعد ذهابهـا . تلك عاودت مرّةً بعد مرّةٍ . وهذا يوجّه نيته اوّلًا ويتبعهـا بالصلاة . ثانيًا تلك عاودت وفي فمها غصن زيتون أَخضر . وهذا قد عاد من وعظِهِ وفي فمـهِ نفسٌ خضراء بالتوبة قد خلَّصها من غرَق طوفان الخطيئة . فلهذا

يلزمك يا ايها الواعظ ان توجّه نيتك الى الله من قبل أن تبتدئ بالوعظ وان تصلّي سرًّا أبانا والسلام من قبل أن تصعَد الى المنبر وتقدّمها للروح القدس ليُنير ظلماتك وظلمات السامعين معاً. ولهذا كان هذا الفصل قسمين. القسم الاول في توجُّه النية ولهُ ثلاثة شروط

الاوّل الحضور الالهي اي اننا اذا ابتدأنا في عمل ما نستحضر الله أمامنا كأنَّنا امامهُ نعمَل ذلك العمل. قال سينكا الفيلسوف الطبيعيّ إنَّ الذي يريد أن يعمل أعمالهُ حسنةً يتصور أنهُ انما يصنَعها أمامَ رجل مهيب محترَم. هذا نفسهُ يلزمك أن تعملهُ يا ايها الواعظ عند وعظك. لتكون أعمالك مستقيمةً حسنةً وهو ان تتصوَّر أنك ماثل امام الله في وعظك وأنهُ ناظر اليك لأن عيني الرب اضوأ من الشمس فتُبصرانِ جميع طرق البشر وتطَّلعان على الخفايا (ابن سيراخ ٢٣: ٢٨) ومثلهُ يقول كتاب أَيوب ان عينيهِ على طرق الانسان وهو يُبصِر جميعَ خَطَواتهِ (ايوب ٣٤: ٢١) فاذا اعتبرت هذا تلتزم بانك تعِظ وعظاً مستقيماً يناسب الله الناظر اليك نظرًا ملياً. لكون طرق الانسان تُجاهَ عيني الربّ وهو يبصر جميع مناهجهِ (أَمثال ٥: ٢١)

فكن اذًا كلُّك عيونًا في هذا الحضور الالهي مثل تلك الحيوانات الأَربعة المملوة عيونًا من قدامٍ ومن خلفٍ وهي وقوف حول كرسي الله (رؤيا ٤: ٦) وهذا يدُلّنا على تفاقم استحضار الله امامنا لكيلا نعمل شيئًا غير مناسب لتلك الجلالة الالهيَّة

الثاني أنَّ الذي نصنعهُ يكون لمجد الله الاكبر لا لمجد ذواتنا وهذا هو عين استقامة النيّة . وقد نبَّه الله عليهِ بقولهِ سِراج الجسد العين فان كانت عينك بسيطةً فجسدك كلّهُ يكون نيّرًا وان كانت عينك شِرّيرةً فجسدك كلّهُ يكون مظلمًا (متى ٦: ٢٢) قال القديسون في تفسير هذه الآية ان العين هي النيَّة والجسد هو الاعمال . فافعالك اذًا يا أَيها الواعظ تتبع نيَّتك ضرورةً كما يتبع الجسدَ خيالهُ . فمن المحال ان يكون وعظك صالحًا مثمرًا وانت تقصِد بذلك مجد ذاتك . هكذا يقول الله لا يمكن لشجرة رديَّةٍ ان تثمر ثمرةً صالحة (متى ٧: ١٨) فلاحظ اذًا غاية وعظك بعين النيَّة المستقيمة لمجد الله الأَكبر لأَن بنت الملك جميع مجدها في الداخل (مزمور ٤٤: ١٤) قال القِديس امبروسيوس ان حسن الانسان وكمالهُ وجمالهُ ليس في الظاهر بل هو محجوب في الباطن متوقفًا على النية التي هي اساس الاعمال

ولهذا لم يمدح الله الانسان لما كوَّنهُ كما صنع في باقي المكوَّنات لان مدحهُ متوقّف على سلامة نيّتهِ فان كان الاصل مقدَّسًا فكذلك الفروع . إنّ النيّة هي الأَصل والفروع هي الافعال (رومية ١١ : ١٦) وبحسن النيَّات تنجح المطالب . فاستقامة وعظك اذًا متوقّفة على نَقاوة نيّتك اذا كان ما تفعلهُ لمجد الله الاكبر . ان الفم يتكلم من فضلة القلب (لوقا ٦ : ٤٥) وجودة الماءِ من جودة الارض النابع منها . فاسمع يا ايها الواعظ ما يقولهُ الرسول إذا أكلتم أو شرِبتم أو عملتم شيئًا آخر فاعملوا كلّ شيءٍ لمجد الله (١ كورنتس ١٠ : ٣١) ها هوذا الله ورسولهُ يلزمانك بأَن توجه نيتك في الوعظ نحو مجد الله لتأتي في وعظك بأثمار كثيرة والا فأَنت تشبه من يلقي الزرع في الارض ذات السِباخ فتخسَر البذر والغَلّة معًا اي الوعظ وفائدتهُ

تنبيه ان شئتَ ان تحصُل على نيَّة مستقيمة تقدّس بها وعظك فاحذر شيطان العُجْب . لأَن هذا الشيطان يحارب الواعظ أَكثر من بقية الشياطين لكون الوعظ تعليمًا عامًّا ظاهرًا يدُلّ على ان هناك علمًا وعملًا لكون السامعين يخالون أن فينا هذه الفضائل التي نعلّم بها غيرنا . وهذا طريق ممهّد للعُجب فان كنّا

معهُ غير منتبهين ولا متحذرين يداخلنا رويداً فيسترق أتعابنا ونحن لا ندري . قال القديس يوحنا السُلّميّ ان العُجب مبدّد اتعابنا وهلاكُ أعراقنا واغتيال ذخيرتنا وغَرَق في المينا . وغَلة في البيدر . لأنهُ لطيف دَميم يسرِق بيدر اعمالنا الصالحة ونحن لا ندري . إياكَ ان تستهين بهذا الشيطان معتذراً عنهُ او متكلًا على ذاتك . فانهُ كاللصّ يطرُقك في ليل عدم فطنتك ومحبة ذاتك في يوم لا تعلمهُ وساعةٍ لا تعرفها فيمزّق اعمالك الصالحة ويجعل حظّها مع اعمال المرائين (لوقا ١٢ : ٤٦) . لأنك ان تقلّدت وظيفة الوعظ وتهاونت باستقامة النيّة يندسّ فيك هذا الشيطان مُنساباً رويداً حتى يمتلكك وأنتَ لا تدري . ويَبين ظهورهُ فيك يا ايها الواعظ بهذه العلامات

الاولى تلذذك بوعظك وحركاتك ورشاقة صناعتك

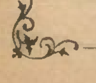
الثانية مبالغتك في التوبيخ ولا سيما للنساء

الثالثة فرحك الغير المرتب في ذاتك بعد انتهائك من وعظك

الرابعة مطارحتك بين الناس ما قلتهُ من النوادر في وعظك

الخامسة اصغاؤك الى مادحيك

السادسة سؤالك الناس عن وعظك



السابعة انتقادك وعظك أمام الناس وقصدك انهم يمدحونهُ

الثامنة مذمّتك وعظك امام الغير وانت تقصد المدحة

التاسعة طلبك من الناس ان يُروك نقص وعظك وقصدك ان يقولوا لا نقص فيهِ لكن اذا طلبتَ هـذا من أرباب الفنّ في خلوة فلا بأس

العاشرة انك اذا اخذت تعتذر لنقص وعظك تحتجّ عنهُ بغير حقّ او تغتاظ ممن ينبّهك على نقصك . فاحذر هذه كلَّها يا ايها الواعظ وكُنْ متيقظاً والَّا تجد نفسك مقفرةً من كل خيرٍ عند موتك . فتكون بمنزلة تاجرٍ كابد المشقات حتى استغنى واخيراً غرِق في المينـا قال القديس يوحنا الذهبيّ الفم ان العُجب هو الصخرة التي لا يوجد في العـالم أهول منها . فاحذَر يا ايها الواعظ ان تعثر بها لأَنها موضوعة لسقوط وقيام كثيرين من الواعظين

الثالث ان يكون قصدك في وعظك انفاذ إرادة الله يُنتَج من ذلك انك آلة في يدِ الله يستخدمك في ردّ النفوس الى الحق بواسطة وعظك الذي ينطِق بهِ ويحركك اليـهِ وبهِ . هكذا يقول الرسول نحن أنصارُ اللهِ وانتم حرَثُ الله وبناؤهُ (١ كورنتس

٩:٣) فلا تختصّ لذاتك تخليص النفوس يا ايها الواعظ بل لله وحدُه الذي انت في يدهِ آلة فقط . وكما ان الآلـة لا تخُصّ بذاتها شيئاً من الصناعة بل انها تنسُب الكلّ الى الصانع الذي يحرّكِ الآلة متى يُريد وفيما يُريد . هكذا أنتَ فانك آلة والله الصانع كقول الرسول أنـا غرستُ وأَبُلّوسُ سقى لكنّ الله هو الذي أنمى فليس الغارس بشيء ولا الساقي بل المنمي وهو الله (١ كورنتس ٣:٦) فمتى باشرتَ الوعظ فقِف متـأَمّلًا طالبًا إرادةَ الله الذي لا يزال يقول لك في كل اعمالك اجعلني كخاتَم على قلبك (نشيـد ٨:٦) واحسَب أنك احوج من غيرِك الى ما تقولهُ للناس وكن كمَن يرمي بالسهام . فانهُ اذا وضع السَهم في كبد القوس يتأنى قليلًا ويحصُر نظرهُ كلّهُ في عينٍ واحدة ليهتدي الى إصابة المرمى فاذا طابقتَ ارادتهُ واغمضت عينك وحصرت ارادةَ الله في العين الأُخرى تكون قد اصبت المرمى الذى هو ارادة الله وانفـذتَ ارادتك التي هي افادة السامعين من وعظك فانك بهذا تجرح قلوب السامعين بسَهم إرادة الله في وعظك . ولهذا تقول الحكمة الالهية ايتها العروس خلبتِ قلبي بإِحدى عينيك (نشيـد ٤:٩) لان الله

لا يرضيهِ شيء مثل موافقة ارادتهِ ومَن يصنع ذلك يكُن عندهُ في اعلى درَجات الكرامة كما قال كلّ مَن يعمل مشيئة ابي الذي في السماوات هو أخي وأُختي وأُمي (متى ١٢ : ٥٠) فاذا وافقت إرادة الله يكون اللهُ قد لمسَكَ . قال افلاطون الفيلسوف إنّ الذين يلمَسهم الله يكتسبون منهُ قوةً على ان يجذِبوا غيرهم الى الله . ان الحديد بارد طبعاً فاذا قارب النار اكتسب منها قوتها الحارّة المحرقة والزجاج الصافي النقيّ اذا وضع بازاء قرص الشمس ابرز ناراً محرقةً فلتكن هذه غاية توجُّه نيتَّك الى الله في وعظك فتَهْدي وتهتدي

القسم الثاني في الصلاة اي صلِّ سرّاً قبل وقوفك في مِنبر الوعظ وقدِّمها للروح القدس ليُرشدك ذلك الروح الكليُّ قُدسُهُ الى تمام نية الله وفائدة السامعين لان كل عطيّةٍ صالحةٍ وكل موهِبةٍ كاملةٍ إنما تهبِطُ من فوق من لَدُن أَبي الأَنوار (يعقوب ١ : ١٧) وذلك بواسطة الصلاة . ولما كان الوعظ من اعظم عطايا الله ومواهبهِ ولاسيَّما لانهُ وظيفة الله نفسهِ كانت الصلاة لازمةً في اكتسابهِ . قال القديس توما اللاهوتيُّ ان الذي قضى الله بهِ أَن يعطيَناهُ من الازلِ قضى انهُ لا يُعطيناهُ

الا بواسطة الصلاة لأَنها بمنزِلة سِلسِلةٍ ذهبيّة تهبِط لنا بهـا الخيرات من السماء فلهذا يلزَمنا قبلَ كل شيء ان نلتجئَ الى الله بالصلاة في كل اعمالنا واحتياجاتنا. فان هذه الواسطة لازمةٌ لك يا ايها الواعظ القائِم في وظيفة يسوع الذي كان يمارس الصلاة ليلًا ويعِظ الناس نهارًا (لوقا ٦: ١٢) كقول البشـير مخبرًا عنه انهُ كان ساهرًا في الصلاة لله ولما استعدَّ للآلام ليعِظنا من فوق منبر الصليب وعظًا عمليًا تقدم فصلَّى في البستان صلاة متواترةً حارّةً جدًّا نحوًا من ثلاث ساعات حتى صـار عرقهُ كقَطَرات دمٍ نازلة على الأَرض (لوقـا ٢٢: ٤٤) فتقدَّم انت ايضًا الى هذا الوعظ اللفظيّ وبيدك مِجْمَرة الصلاة لتكتسب منها اولًا فضيلة التواضع ثانيًا فضيلة استقامة النية ثالثًا فضيلـة الفطنة رابعًا فضيلة محبّة القريب لأَنك بالصلاة تسبّب ثمرة فائدة وعظك في نفوس السامعين. وقل مع يوشافاط ملك يهوذا اننـا لا نعلمَ ماذا نفعَل غير أن لنا خصلةً واحدةً وهي ان نرفع طرفنا اليك (ثاني الايام ٢٠: ٢٦) فارفع طرفك الى الله مبتهلًا حتى تشعُرَ بتلك البركة التي طلبها يعقوب من الله قائلًا لا أُطلقكَ أو تباركَني (تكوين ٣٢: ٢٦)

تنبيه من اتقن الصلاةَ العقليَّة يمكنهُ ان يتقن الوعظ . لأَن القصد فيهما واحدٌ وهو استئصال الرذيلة واقتناء الفضيلة . قد خبَّرنا القدّيس برزدوس عن نفسهِ قائلاً انهُ تعلم الوعظ من الصلاة العقليَّة

الفصل العاشر

في تنبيهات تلزم الواعظ

هذا الفصل يتضمَّن عشر تنبيهات يلزم الواعظ الجري بمقتضاها

الاول انهُ يلزمك يا ايها الواعظ ان تبني مقالتك على مقدّمة وأَقسام وتجعل لكلّ من المقدّمة والأَقسام شهادةً مناسبة للموضوع . فان كانت مواعظك مبنيَّة على مدح فضيلةٍ او ذمّ رذيلةٍ فاجعل المقدّمة بمنزلة تعريف لذلك الموضوع . وان كانت موعظتك مبنيَّةً على سرٍّ من أَسرار سيرة يسوع المسيح . أَو على سيرة احدٍ من القدّيسين فاجعل المقدّمة مدحًا لذلك السرّ او لذلك القديس . واستنتج من المقدّمة فضيلةً ما مناسبةً لذلك السرّ او لذلك القدّيس . وابنِ عليها أَقسامَ مقالتك ولاحظ فيها

احيانًا ذلك السرّ او ذلك القدّيس وهذا يُسمى في صِناعة الفصاحة الالتفات . وبيّن في آخر المقدّمة معاني الأَقسام التي تريدها من نتيجة المقدّمة وليكن تخلُّصك من المقدّمة ودخولك في معاني الاقسام منسكبًا انسكابًا رقيقًا ملائمًا . وهذا يُسمّى براعة التخلّص . ثمَّ اختِمْ مقدّمتك بسلام الملاك جبرائيل مستشفعًا والدة الاله مع ذلك القدّيس يوسف وسيرد عليك في هذا المعنى كلام مستطيل في القسم الرابع

الثاني قد ذكرنا سابقًا ان الاولين كانوا يبنون مواعظهم على مواضيع مختلفةٍ . وهذا يُسمّى الاتّساع لكن هذا المذهب قد تُرِكَ الآن عند المتأخرين. وقد رأَوا الأَصوب ان يبنوا مواعظهم على موضوعٍ واحدٍ ليتحقق معناهُ مليًّا في عقول السامعين . وهذا يُسمَّى التخصيص او التنصيص فاذا شرعتَ في تأليف موعظةٍ لمدح سرٍّ من أَسرار المسيح او لقدّيسٍ ما او لتقرير فضيلةٍ أَو رذيلةٍ فاجعل افتتاح مقالتك آيةً من الكتاب المقدّس دالَّةً على مضمون ما تقولهُ حتى اذا سمِعها الحاضرون يستدلّون منها على مضمون كلامك . وهذا يُسمّى بَراعة الاستهلال وقد نَرى المبشّرين الاربعة صنعوا هكذا . فانَّ متّى لما أَراد بيان مولِد

طبيعة المسيح البشريَّة افتتح كلامهُ قائلًا كتاب ميلاد يسوع المسيح ابن داود ابن ابرهيم (متى ١:١) ويوحنا لمـّا أَراد بيان مولدهِ من جهة الطبيعة الالهيَّة افتتح كلامهُ قائلًا : في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله (يوحنا ١:١) ومرقس لما أَراد التخبير عن يوحنا الصابغ افتتح كلامهُ قائلًا : هنذا مرسل ملاكي امام وجهك يهيئ طريقك قدَّامك (مرقس ١:٢) وهذه شهادة دالَّة على يوحنا قد اخذها البشير من ملاخيا النبيّ (ملاخي ٣:١) ولوقا لما أراد التخبير عن كهنة اليهود قائلًا : كان في ايام هيرودس ملك اليهود كاهن اسمهُ زكريا (لوقا١:٥) وبولس الرسول ايضًا لما اراد ان يبرهن لليهود عن المسيح انهُ جاء حقًّا افتتح كلامهُ في رسالتهِ الى العبرانيين قائلًا : ان الله الذي كلَّمَ الآباء قديمًا بالانبياء كلامًا متفرّق الاجزاء مختلف الانواع كلَّمنا اخيرًا في هذه الايام في الابن (عبرانيين ١:١ — ٢) وردّد الموضوع الذي اتخذتهُ من المقدمة في أقسام وعظك كلِّهِ ولا تفارقهُ وأورِد لاثباتهِ الشهادات والأدلَّة والأخبار حتى تكون موعِظتك منسوجة على منوالٍ واحدٍ من ابتدائها الى انتهائها وهذا يُسمَّى الالتزام . ثمَّ جدّد

خِتام موعظتك بعباراتٍ تناسب ما ابتدأتَ بهِ حتى يكون انتهاؤُكَ موافقًا ابتداءَك وهذا يُسمَّى براعة الختـام وان قدرْتَ فاختِمْ كلامك بالشَهادة التي ابتدأت بها وهذا يُسمى رَدَّ العجز على الصدر . وما احسن الكلام اذا أجدتَ الانتقال من قسمٍ الى قسم برقَّةٍ براعة التخلُّص المقدَّم ذكرها . قالت الفصحـاءُ انَّ جَوْدة الواعظ تظهر من حُسن بَراعة الاستهلال وبراعة التخلُّص وبَراعة الختام

الثالث ان تبتدئَ على الأَصح في اوّل كل قسمٍ بشهادة تناسبهُ من الكتاب المقدَّس لا من غيرهِ . واجعلهـا مادّةً لذلك القسم . ثمَّ أورِد بعد ذلك لإثبات كلامك شَهادات مناسبةً من أَيّ كتابٍ وقدّيسٍ وعالمٍ أُوردتهُ ورأَيتهُ يناسب موضوعك . وايّاكَ أَن تورد شَهادات لا تناسب موضوع الكلام . فانهُ عيبٌ عظيمٌ واحترس من التناقض في كلامك وشهاداتك لئلَّا يفسُد عليك المَعنى فتتورّط في ورطة لا مناصَ لكَ منها . واذا أَوردتَ شَهادةً فاجعل لها في كلامك مناسبةً تستدعيهـا . وهذا يُسمَّى التوطئة والتمهيد حتى اذا اوردتَها تنسكب مسبوكةً في قرارها كوقع الحافر على الحافر . فكأَنهـا مع الكلام معنًى واحدٌ لقائلٍ

واحد . وهذا يُسمَّى التمكين وهكذا افعل في الأَمثال والأَخبار التى توردها . وخلافهُ خللٌ في المعنى . ويجوز لك أَن تسلُب من الشهادة معناهـا الأَصليَّ وتُضمّنها معنىً آخر من عندك على سبيل الاستعارة او التشبيه . وهذا يُسمَّى الايداع باليـاء المثنَّاة من تحت

الرابع اذا اوردتَ خبرًا لإثبات كلامك فضمن فيهِ بعض كلمات تناسب وعظك على جِهة الحاشية زيادةً في المعنى . فان ضمّنتَ الشهادة او المثل والخبر في معني كلامك سُمّي التضمين وإِن ضمنتَ كلامك في مَعنى الشهادة والاخبار سُمّي الإدماج والأنسب في الأَخبـار المطوّلة ان ترد في أَواخر الوعظ . واذا اوردت اخبارًا في الحشو فالأَنسب اختصارها بِرشاقة ملائمـة لئلا تشغلَ الوعظ بالأَخبار . ولهذا لا تُكثر من إِيراد الاخبار . لأَن الفائدة متوقّفة على تقرير المعنى في عقول السامعين بقوَّة الشهادات والبراهين والأَمثلة المُقنعة إِلاَّ إِذا كان الجهـل متغلبًا على اكثر السامعين فاعمَل ما تراهُ أَنسبَ للحال لان الجهلاء يميلون الى الأَخبار . والعلماء يتقصدون الأَقيسة والأَدلَّة كقول الرسول . لأَن اليهود يسأَلون الآيات واليونانيين يبتغون الحِكمة

(١ كورنتس ١ : ٢٢) ولكن أَنت فلا يكن مرادك آيةً ولا حِكمةً بل فائدة الشعب وخلاص نفوسهم كقول الرسول أَما نحن فانّا نبشّر بالمسيح مصلوبًا . فان هذه البِشارة هي مجموع كل تعليم الواعظين . ثم احترس من أَن تورد في وعظك تعليمًا او خبرًا يقتضي توسيع الذِمّة او قطع الرجاء او الطمع في رحمة الله . وهذا يُسمى الاحتراس . بل أَقم السامعين دائمًا ما بين الخوف والرجاء . واذا أَوردتَ شيئًا من ذلك يلزمك تلافيهِ . وهذا يُسمّى الاستدراك

الخامس تجنَّب في وعظك العيّ والالفاظ الركيكة والقليلة الأَدب والعبارات المُضحكة التي لا محلّ لها . واحترس من التشابيه المستهجَنة والاستعارات الباردة الغليظة . وهذا يُسمى الرَكاكة . ولا تَكن مِهذارًا في وعظك اي كثير الأَلفاظ قليل المَعنى كقول الرسول وانا لمَّا أَتيتكم ايها الإخوة لم آتِكم ببراعة الكلام (١ كورنتس ٢ : ١) لأَنها فراقع ما تحتَها طائِل . وقد نرى وجبة الالفاظ بلا معنًى بمنزلة شجرة بلا ثمر . لأَنها تؤثّر في قلوب السامعين ولا تحركهم نحو الفائدة . وهذا يَدُلّنا على واحدٍ من هذه الخمسة الاشياء . اولًا على عدم درس الواعظ

الكتب الروحيَّة . ثانيًا على اعتمادهِ على عقلهِ . ثالثًا على ضعف حفظهِ . رابعًا على بَلادة فهمهِ . خامسًا على عدم اعتبارهِ السامعين. فيلزمك اذًا يا ايها الواعظ أن تناسب ما بين الألفاظ والمعاني فلا تحصرُ الفاظًا كثيرةً في معانٍ قليلةٍ ولا معانيَ كثيرةً في الفاظٍ قليلةٍ . بل فليكن اللفظ والمعنى متناسبين وهذا يُسمَّى ائتلاف اللفظ والمعنى . واذا كانت الشواهد والايرادات عويصةَ المَعنى فعليك أن تبسُط الكلام في بيانها للجميع ولو ادّى ذلك الى تكرير المضمون مراتٍ ليجتلي السامعون حقيقة المعنى . وهذا يُسمى الترشيح والتبليغ

السادس استعمل في وعظك الالفاظ المفهومة عند السامعين كلهم واسلُك مسلك العبارات المبسوطة المعنى السهلة الفهم على الرجال والنساء حتى الاولاد واتبع عوائد البلاد في وعظك مِن كل جِهة . وكن كالرسول القائل وصِرتُ كلًّا للكُل لأُخلّصَ الكل (١ كورنتس ٩: ٢٢) هذا كلهُ يلزمك يا ايها الواعظ . لانك وانت قائم في مِنبَر الوعظ بمنزلةِ حيَّة النحاس التي رفعها موسى في البَرِّية لينظُر اليها كل ملدوغ فيشفى (عدد ٢١: ٨) . هكذا كن انت حتى تَشفي كلَّ مَن يسمعك من سُمّ حية

الخطيئة . فاحذر اذًا حيَّةَ العُجب . فانها اذا لدغتك تُفسد عقلك ورأيك فتصير تستعمل حُوشيّ الالفاظ والتراكيب المعقَّدة والمعانيَ العويصة الشاذَّة فيلزمك حينئذٍ لذلك ترجمان لان جنّيتك صارت تتكلم بالهنديّة لا بلغة البلاد . واذا وُجد أحد ممن يعرِف ما تقولهُ يلتهي عن فائدة المعاني بما تورده من دقائق الصناعة ومن المعاني الدقيقة التي تنبئُ بأنك عالمٌ علّامةٌ لأن هذا موضوع مُرادك فتذهب حينئذٍ فائدة الوعظ هدرًا عند الفريقين العامّة والخاصة . ولم يعرفوا الله لأنَّك أردتَ ان تعرفهم الله بالحكمة الباطلة . ولهذا يقول الرسول إذ كان العالم وهو في حكمة الله لم يعرف الله بالحكمة حَسُن لدى الله أن يُخلّص بجهالة الكِرازة الذين يؤْمنون (١ كورنتس ١ : ٢١) اي بالسذاجة وانما فعل الله هكذا ليكيدك يا ايها الحكيم الجاهل ويقهرك بالبِشارة الساذجة بواسطة اناس ساذجين كقول الرسول ايضًا اختار الله الجاهل من العالم ليخزي الحكماءَ (١ كورنتس ١ : ٢٧) اي الذين هم جُهلاء مثلك . لقد رأيت قومًا لما سكروا من خمرة رذيلة العُجب وادمنوا تعاطي كاساتها . والاولى أن اقول نجاساتها بلغوا الى درجة عدم الحسّ بالكليّة حتى تزوَّجوا ابنة

الكِبر الكُبرى فأضاعوا في عِشقها تِجارتهم . واني أتعجَّب ممن بلغ هذه الدرجة كيف يعرف واجبات الايمان المقدَّس لأنها ينبوعِ البدع والانشقاقات فاجنح ياصاح منتبهاً واسلُك في وعظك مسلك السذاجة الرسولية . ولا تتظاهر بأنك حكيم طالباً مِدحة الناس . لأنَّ رِضاك عن نفسك هو من فساد عقلك . قال الرسول إن حسِب احدٌ منكم أنَّهُ حكيم في هذا الدهر فليصِر جاهلًا ليكونَ حكيماً (١ كورنتس ٣: ١٨) اي فليصِر جاهلًا حكمة هذا العالم ليكون حكيماً في الله وحدهُ . وهذا المعنى طِبق ما قالتهُ الحكمة الالهية إنّي نائمة وقلبي مُستيقظٌ (نشيد ٥: ٢) قال القديس غريغوريوس الكبير . اذا وعظتَ في البيعة فلا يُسمع صُراخ الشعب بل أصوات البكاء والنحيب . فدموع السامعين تكون مديحك ولا يقولوا اذا خرجوا ما أغرب الأشياء التي أتى بها في الوعظ بل فليخرُجوا تائبين عن خطاياهم . لأن هذا هو المراد من الوعظ وإلَّا فكتب الشعراء وشقاشِق ارتجالهم أفصح من وعظك . فتنبه اذاً يا ايها الواعظ لتعلم كيف ينبغي لك التصرُّف في بيت اللهِ الذي هو بيعة الله الحيّ عمود الحق وقاعدتهُ (١ تيموتاوس ٣: ١٥) وليكن وعظك مع السذاجة

منتسقًا مرتّبًا حتى لا يملّ احدٌ من سَماعهِ ولو أطلت المقام والكلام وهذا يُسمى الانسجام

السابع اذا شَرد عن عقلك قضيَّة من قضايا وعظك فلك فيه ثلاثة اوجهٍ: الاوّل اذا رأيت في ذاتك انك اذا تعدّيتها لا يختلّ المعنى الذي أنت فيهِ فاتركها وخُذ في غيرها. الثاني اذا رأيتها لازمةً في تتمة المعنى فاثبت في البحث الذي انت فيهِ وأطِل الكلام جائلًا بفكرك حول تلك القضيَّة المنسيَّة متذكرًا ما وراءها من الشهادات والادلّة حتى تهتدي اليها وتعرِف في ايَّة شَهادةٍ هي. لان الشهادات مسامير الوعظ كما قُلنا وتنفعنا في مثل هذا العارض. الثالث اذا رأيت ان هذا لم يُفدك ولم تهتدِ بهِ فاجعل لكلامك مناسبةً بينهُ وبين ما وراء تلك القضيَّة المنسيَّة وألحم شيئًا بشيءٍ وعدّ عمَّا نسيتهُ وهذا يُسمى اللحام وسبب هذا النسيان هو عدم حِفظك مسامير الوعظ عند التهيّؤ ودرس ما ألَّفتهُ لتقولهُ فاذا اتقنت التهيّؤ وحِفظ الشَهادات تنجو من عارض النسيان فابذل الجهد في ان تحفظ غيبًا ما كتبتهُ كما ذكرنا سابقًا. وضع في مخيلتك أماكن مسامير الوعظ التي هي الشَهادات والامثلة والبراهين. لأنَّ الاستظهار اي الحفظ الغيبيَّ متوقف

على استحضارها في المخيّلة . واما الالفاظ التي تعبّر بها عن معنى موضوع الوعظ ومعنى الشهادات فضعها من عندك فهي بمقتضى هواك كما مرّ بك القول في فصل التهيّؤ

تنبيه قد ذكرنا سابقًا انك لا تشرُد في وعظك عن الموضوع الذي انت فيهِ ولكن يجوز لك أن تشرُد عنهُ أحيانًا متعمّدًا لمناسبةٍ ما ووقتًا ما . واخصهُ وقت التوبيخ وهذا يُسمَّى الاستطراد . ويكون الشرود برقَّةٍ ملائمة وهو نوع من الالتفات ثم ارجع الى ما كنت فيهِ

الثامن وفيهِ نوعان الاوّل اذا اوردتَ خبرًا من اخبار الزنى فلاحظ فيهِ الايجاز والاحتشام بعبارات لا تؤذي السامعين وبالفاظ لا يستحيي فيها ولا منها قائلها وسامعها . وهذا يُسمّى النزاهة . وافعل هكذا اذا وبخت النساء لئلا يعتريهنَّ الحياء والشكّ وتؤذي الشبّان وتنبه البنات فتكون المضرّة اكثر من المنفعة . ولا تداوم النظر نحو جهة النساء لئلا يشكّ فيك الحاضرون لانك مُراقَب من الجميع . ولا توبخ على الزنى الغير الطبيعيّ مصرّحًا بل من باب التلميح . لأن ذكرهُ فاحشٌ جدًّا يؤذي الجميع رجالًا ونساء واحذَر الوعظ على ما يلزم سرّ الزواج لانهُ فضيحة امام

الناس . هذا شيء يلزم معلّمي الاعتراف لا الواعظ والمخص من كلامنا كلهِ ان تكون خجِلًا متأدبًا في وعظك على الزنى والزُناة كما انك تستحي من ان تظهر امام الناس عُريانًا

الثاني اذا كان احد السامعين مشتهرًا برذيلةٍ تتكلّم فيها فلا تنظر اليهِ ولا تُشِر نحوهُ لئلّا يتوهّم انك تتعمدهُ وتنبّه الناس اليهِ . وهذا شرٌّ عظيم . واحذَر ما يتغيظ منهُ بعض اناس قاصدًا نكايتهم وفضيحتهم وهذا يُسمى التعريض . فانك بهذا لا تكون واعظًا بل عدوًّا . فلا تأمن المَضرّة اذا لسعتهم بحُمَة الملام . امسَس الجبال فتصير دُخانًا (مزمور ١٤٣ : ٥) وقد نهت العلماء عن ذلك ولا يخلو فاعلهُ المتقصد من الإثم الفظيع . وكن كيسوع معلّم وظيفتك . فانهُ لما اورد في بعض مواعظهِ خبر الغني المسكين . أبان عن اسم المسكين الصالح بقولهِ وكان اسمهُ لعازر . وأما ذاك الغنيُّ الطالح فسكت عن اسمهِ (لوقا ١٦ : ٢٠) ولم يستجز أن يبيّنهُ احتشامًا وتأدُّبًا لتتعلّم منهُ يا ايها الواعظ فلا تعرّض لأحدٍ بخطيئته . ولو تحققتها كما اعرض السيّد عن بيان اسم الغنيّ . مع انهُ كان عارفًا بهلاكهِ في جهنم . لكن اذا عرّضت أحيانًا برذيلة توبخ عليها لنفع السامعين فلا بأس عليك

بذلك . ولو عرفت أن هناك أُناساً حاضرين يسمعونك وهم بها متلطخون

التاسع التوبيخ ولهُ مراتب الاولى العتاب اي ان تعاتب الخاطئ على خطيئتهِ . الثانية المغايرة وهي ان تمدح للخاطئ الخطيئة وتذمّ لهُ الفضيلة من باب التعيير والتهكم. الثالثة تجاهل العارف وهو انك تسأَل الحاضرين عن شرّ الرذيلة وخير الفضيلة كانك غير عارف بذلك وهذا النوع لهُ دَخل في مواقع كثيرة. الرابعة المواربة وهي ان تلقي على السامعين الفاظاً تحتمل المدح والذمّ كقولك انك يا خاطئ لتستحقّ الرحمة بالعدل فهذا الكلام يحتمل ان الله ينتقم منهُ ههنا . وهذا وجه الرحمة او ان يهملهُ هنا بغير انتقامٍ وهذا هو وجه العدل . الخامسة الذمّ في معرِض المدح اي انك تمدح السامعين على افعال مذمومة كانما يفعلونها كشيءٍ محمودٍ . السادسة الهزل الذي يُراد بهِ الجِدّ وهو انك تمزح مع السامعين كأَن خطاياهم ليست بخطايا وانها لا تغيظ الله ولا يهلكون من أَجلها. السابعة التهكم وهو احتقار الخاطئين والازدراء بهم . الثامنة التوعُّد والتهديد بان الله يعاقب الخاطئ . وبيّن هنا كل ما يمكنك من الإِرهاب والتهويل والمذمّة فهذه الانواع

كلها يجوز للواعظ استعمالها أيّ وقتٍ شاء في وعظهِ ٠ ما عدا التهكّم والتهديد فاستعمالهما يكون بعد اثباتك الفضيلة والرذيلة في عقول السامعين بقوّة القواعد والدلائل

تنبيه يُقتضَى للتوبيخ أربعة امور الاول ان يكون التوبيخ على حسب درجة الواعظ ووظيفتهِ لان توبيخ الاسقف غير توبيخ القس وتوبيخ الرئيس غير توبيخ المرؤس فلهذا يلزم كل واحد ان يوبخ في وعظهِ بحسب مقامهِ . الثاني انك توبخ على الشرّ الحاضر حالاً لتستاصلهُ كما وبّخ السيّد الذين كانوا يبيعون و يشترون في الهيكل وقلب موائدهم (متى ٢١ : ١٢) لكي يبطل هذه العادة السيئة هكذا انت وبّخ على العوائد الرديّة الموجودة حالًا وعلى اسباب الخطايا الواقعين فيها وعلى المعاشرات وقلّة الادب . ولاسيما جنس النساء اللواتي هنَّ علّة كل علّة ٠ واستعمل في توبيخك نوع الالتفات من الحاضر الى الغائب وبالعكس ٠ ومن المذكر الى المونث و بالعكس ٠ ومن المفرد الى الجمع و بالعكس ٠ وهذا حسنٌ جدًّا اذا كانت هذه الانتقالات برِشاقة وظَرافةٍ . وللك ايضاً أن توبخ على الشرور المستقبل وقوعها حذرَ وقوعها ولاسيما اذا كنت عارفًا بحوادث البلاد وبمواسم عوائدها ٠ فان الانسان الذي يعرِف مِزاجهُ

محتاجاً الى المداواة يداويهِ وهو في حال الصحة لئلا يستقبله المرض كقول الحكيم استطبّ قبل المرض (ابن سيراخ ١٨ : ٢٠) فافعل انت هكذا لتنبه السامعين وتصونهم من الغوائل التي تفاجئهم بغتةً . قال القديس يوحنا السُلَّمي اذا عرفنا هبوب الرياح من ايَّة جهة توافينا رفعنا بعد ذلك قلوعنا مقابلها يعني احذر التي تأتي المضرّة منها . الثالث ليكن التوبيخ لطيفاً ومطلياً بذهب الادب فما ارقّ توبيخ ناثان النبيّ لداود الملك في ذلك المَثل الذي ضربه لهُ . وما اسرع توبة داود (٢ ملوك ١٢ : ١) من جرى ذلك التوبيخ المهذب المملوء حكمةً الهيةً . فانك بهذا تجتذب قلوب الخطأة الى التوبة لا بالعجرفة وقلّة الادب وبالالفاظ السمجة وما أحسن أن تعُدَّ ذاتك من جملة الخطأة الموبَّخين . كن طبيباً لا جلّاداً وكن جرّاحاً يشُق القرحة المتورمة ويستخرج منها المادّة الفاسدة المنتنة لتشفى لا قصّاباً يضرب بساطورهِ بلا تمييز فيكسر العظم ويقطع الأعصاب . قال الرسول لتلميذهِ حاجج ووبخ وعظ بكل أناةٍ وتعليم (٢ تيموتاوس ٤ : ٢) قال بكل أناةٍ اي بالفطنة والأدب ولم يقل اشتموهم واضربوهم بمقارع ألسنتكم الفظّة القاسية الصخرية التي شبهها المرنم بالموسى المسنونة (مزمور

٤:٥١). الرابع يلزمك بعد التوبيخ ان تستعمل إسفنجة الرجاء وتضع على الجراحات التي تقيتها من عَفَنها ضمادات الادوية المناسبة لبرئها ونطّل الأورام بحرارة أمواه التعزية واسقهم أشربة التقوية اللذيذة المبرّدة بكلمات الرجاء والتسلية كما قال الحكيم: انقذ المَسوقين الى الموت (أعمال ٢٤:١١) اي قوِّ منة المشرفين على قطع الرجاء وهذا يكون ختام الوعظ حتى اذا انفصل السامعون عنك يكونون حاملين معهم الأدوية التي وصفتها لهم يا ايها الطبيب الروحيّ ليستعملوها في طبّ أنفسهم

العاشر يلزمك في وعظك يا ايها الواعظ الغيرة اي اظهر غيرة مضطرمةً جدًّا في تخليص السامعين وانك حزين متأسف عليهم من أجل خطاياهم كأنك ذلك الرسول القائل لقد ودِدت لو اكون انا نفسي مُبسلًا عن المسيح من أجل اخوتي ذوي قرابتي بحسب الجسد (رومية ٩:٣) وقل ايضًا مع المرنّم اخذتني الحميّة بسبب المنافقين من اجل الخطأة الذين تركوا شريعتك (مزمور ١١٨:٥٣) اي انك تظهر حزنًا عظيمًا في مخالفتهم ناموس الله. وبيّن لهم في هذه الغيرة مقدار تفاقم شرّ الرذيلة التي انت محترق حزنًا وتأسفًا من أجلها كما قال الرسول من يُشكّك ولا أحترق

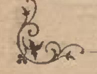
انا (٢ كورنتس ١١ : ٢٩) يريد من يجحد ناموس الله وينكره بالمخالفة له فانّ السامعين اذا رأوا منك هذه الغيرة الحارّة يجلّونك وتعظم في عيونهم فيصدّقون ما تقوله ثم يعتبرون شرّ الخطيئة فيخافونه ويعترمون انهم لا يعودون الى هذا النفاق . واياك ان تتظاهر لهم بغيرةٍ مرَّةٍ مملوة حماقةً مبنية على غير اساس التقوى . فان الرسول يوبخك على مثل هذه الغيرة الحمقاء (رومية ١٠ : ٢) فانّي اشهد لهم انّ فيهم غيرةً لله الَّا أنها ليست عن معرفة . بل غَرْ بتلك الغيرة التي كانت للمرنّم القائل غيرة بيتك اكلتني وتعييرات معيّريك وقعت عليّ (مزمور ٦٨ : ١٠) ان هذه كانت غيرة موسى الذي قال لقضاة اسرائيل اقتلوا كل واحد مَن تَعلّق من قومه ببعل فغور (عدد ٢٥ : ٥) وهذه ايضاً كانت غيرة فِنحاس بن العازر بن هارون الحبر الذي قتل الزاني والزانية معاً (عدد ٢٥ : ٨) وهذه كانت غيرة إيليّا النبيّ الذي قتل كهنة بعل الصنم (٣ ملوك ١٨ : ٤٠) وهذه كانت غيرة يسوع المسيح الذي صنع مِخصرةً من حبل وأخرج بها الذين يبيعون ويبتاعون في الهيكل (يوحنا ٢ : ١٥) وهذه كانت غيرة بولس الرسول الذي ضرب عليماً الساحر بالعمى لأنه كان

يناصب كلمة الله (اعمال ١٣ : ١١) وهذه كانت غيرة بطرس هامة الرسل الذي حرم سيمون الساحر الذي كان يطلب موهبة الروح القدس بالفضَّة (اعمال ٨ : ٢٠) فاذا غِرْتَ هكذا على قتل صنم الخطيئة الذي يعبُدهُ الناس تحرّكُ قلوب السامعين الى الخوف والتوبة ثم أدهِشهم بعالي صوتك المنبثق من عرشِ الغيرة الالهيَّة كالرعد الجائِل في أُفق السحاب . قال القديس يوحنا الذهبيّ الفم في بحث تناول القربان المقدَّس فلنقم عن المائدة الطاهرة كالاسود الضائرة طارحين من أَفواهنا نارًا تروع الأَبالسة . هكذا كن انت يا ايها الواعظ فقُمْ من منبر الوعظ كالأَسد الضائر طارحًا من فيك نار الغيرة الالهية لتخيف قلوب الخطأَة المتصلّبة بالخطيئة

الخلّة الثانية التي تلزمك الحرارة اي كن حارًّا في كلامك وصفاتك وحركاتك كانك نارٌ تتّقد حتى تفزع قلوب السامعين فتؤَثِّر فيها حرارة الندامة على ما فرَّطوا في حقّ الله من الاثم والخطا . قال القديس غريغوريوس الكبير مَن لا يتّقد في ذاتهِ فلا يمكنهُ ان يُحرِق غيرهُ لأَنهُ لن يوجد شيء يحرّكُ الخطأَة الى الندامة مثل الواعظ المتَّقد المتحركُ في ذاتهِ بالحرارة . وهذا

الاتّقاد عينهُ كان في بولس الرسول عند وعظهِ. وحرارة رسائلهِ تشهد لهُ حتى اشتهى اغوستينوس الالهيّ ان يراهُ واعظاً. فيلزمك اذاً يا ايها الواعظ أَن تكون في وعظك حاداً حاراً ليعتقد الجميع انك تحبّ الفضيلة وتُبغض الرذيلة. فاذا اتممتَ هذه الشروط بموجبها تكون أَتممتَ واجبات وظيفتك وتكون قد اشبهتَ سيّدكَ ربَّ وظيفتك وماثلتَ بولس رسولهُ إمام المنذرين والمبشّرين الواعظين فتمسَّك اذاً بما يقولهُ لك ولغيرك من الواعظين حيث ينصحكم قائلًا: ايّها الاخوة مهما يكن من حقٍّ او عَفافٍ أَو عدلٍ أَو طَهارةٍ او صفةٍ محبّبةٍ او حسن صيتٍ. ان تكن فضيلة او مديح ففي هذه فلتكن افكاركم وما تعلمتموهُ وتسلَّمتموهُ وسمعتموهُ ورأَيتموهُ فيَّ فبهذا اعملوا وإلهُ السلام يكون معكم (فيلبي ٤: ٨)







القسم الثالث

في آلات الواعظ وفيهِ تسعة فصول

الفصل الاول

في آلات الواعظ اجمالًا وفي كميتها وتخصيصها

اعلم أَن لكل مِهنة آلةً يكمل بها الصانع صِناعتهُ ولما كان الوعظ من جملة المِهَن بل هو من أَجلّها وأَشرفها. لكونهِ الواسطة الكبرى في تخليص النفس التي هي اشرف ما برأَهُ الله وجب ان يكون لهُ آلات يكمِل بها الواعظ صِناعة وعظهِ. وهذه الآلات سبعٌ الآلة الاولى الاستظهار اي الحفظ غيبًا. الثانية طَلاقة اللسان. الثالثة حسن الصوت. الرابعة عزم الحرارة. الخامسة حسن الحركات. السادسة الشجاعة. السابعة الشهامة. ويأتي الكلام عليها مفصَّلًا ان شاءَ الله تعالى. وهذه كلّها آلات طبيعيَّة في الانسان والدليل على ذلك ان الآلة من شانها ان تكون غير الفاعل لأنها منفعلة عنهُ. وأَما الآت الواعظ المقدَّم ذكرها فهي عين الفاعل كما ترى لكونها غير منفصلةٍ عنهُ فلهذا كانت آلاتهُ طبيعيةً صناعيّةً. ولما كانت كذلك كان استعمال صِناعة الوعظ

على كمال موجبها غير ممكنٍ الّا لمن كانت فيهِ هذه الآلات السبع كاملةً طبعًا لا تطبُّعًا وذاتًا لا عرضًا . وهذا هو الفرق المميّز ما بين هذه الصناعة وبقية الصنائع . يُنتج من هنا أن الوعظ موهبةٌ خاصّةٌ من الله لشخص خاصّ تقتضيهِ آلاتها تامّة وهذه علامة اختصاصها بهِ واختصاصهِ بها . فلم تكن تصلح الّا له ولم يكن يصلُح الّا لها . لأن الروح الذي يخصّ كلًّا بما يناسبهُ هو عينه خصّ الواعظ بهذه الآلات . ومن هنا يقول الرسول . ان للمواهب أنواعًا لكن الروح واحد (١ كورنتس ١٢ : ٤) اي ان مواهب الله ذات انواع مختلفة يهبها روحٌ واحدٌ بمقتضى ارادتهِ وانتخابهِ الخصوصيّ لا بمقتضى استحقاق أحد . ومراد الروح من ذلك فائدة تلك الموهبة المعطاة كقول الرسول انما يُعطى كل واحدٍ اظهار الروح للمنفعة . وغاية هذا النفع تخليص النفس الذي هو غاية مراد الله ولما كانت الموهبة مختلفةً وغايتها واحدة وهي ما قلناه كان واهبها واحدًا ايضًا وهو الروح الواحد في الجميع هكذا قال الرسول فيُعطى واحدٌ بالروح كلام الحكمة وآخر كلام العلم بذلك الروح عينهِ وآخر الايمان بذلك الروح عينهِ وآخر مواهب الشفاء بالروح الواحد . وآخر صُنعَ القوات وآخر النبوّةَ وآخر تمييز الأرواح . وآخر أنواع

الألسنة وآخر ترجمة الألسنة . فهذا كلهُ يعملهُ الروح الواحد بعينهِ موزّعًا على كل واحدٍ كيف يشاء (١ كورنتس ١٢ :٨) والغاية في أقسام هذه المواهب واحدة . وهي المنفعـة في تخليص النفس ليكون الله ممجدًا في الجميع ومن الجميع لأنا كلّنا سُقينا روحًا واحدًا (١ كورنتس١٢ :١٣) . وقد نرى هذا المعنى ظاهرًا ممَّا فعلهُ الله مع سبط لاوي حين اختصّ كل قبيلة منهُ بعملٍ ما في قُبّة الزمان . فهرون وبنوهُ خُصُّوا بخدمة قُبة الزمـان في تقدمة القرابين ووضع البخور . و بنوا قاهت خصُّوا بحمـل أواني القبّة . وبنو جرسون خصُّوا بحمـل سُرادقات القبّة وأعمدتها (عدد ص ٤) وهذه مواهب قد قسَّمها الروح الواحد ما بينهم على يد موسى عبدِهِ . وغاية هذه الاقسـام كلها واحدة وهي خدمة بيت الرب هكذا الحال هنا . فان مواهب الله كلها ترجع الى غاية واحدة وهي تخليص النفس التي هي تابوت الله الروحيّ كقول الرسول أما تعلمون انكم هيكل الله وان روح الله مستقرّ فيكم (١ كورنتس ٣:١٦) واذا تاملت في هذه المواهب كلها التي يؤتيها الروح الواحد تجدها كلهـا دالةً على تخليص النفس كما قلنا . واخصّها موهبة كلام الحكمة والعلم المعطاة للواعظ خاصّةً .

يُنتج من هنا ان الوعظ وظيفة اكثر خصوصية في تخليص النفس ولهذا اقتضت معها آلاتٍ خصوصية تميز في امتلاكها اشخاصاً خصوصيّة . وهم الواعظون المحقّون . ومن ثَمَّ لا يُطلَب من الواعظ التعمق في العلم بمقدار ما تُطلَب منهُ هذه الآلات كاملةً . لقد رأينا علماء كثيرين لا يقدِرون على الوعظ لفقرهم الى آلاتهِ ورأينا واعظين كثيرين قد أتقنوا الوعظ وهم غير عُلماء لوجودها فيهم فما كلُّ عالم واعظاً ولا كل واعظ عالماً . وقد صحَّ أن الوعظ وظيفة خاصَّة بأُناس دون أُناس . غير متوقّفة على علمٍ . ويدلُّنا على ذلك انتخاب الله لبشارتهِ تلاميذ أُميّين سُذَّجاً وقد كان قادراً جلَّ وعزَّ على ان ينتخب لهُ تلاميذ علماء ماهرين من الكَتَبة والفريسيين . قال القدّيس اغوستينوس ان قلت لِمَ لم يدعُ يسوع نثنائيل الى وظيفة الرسالة والوعظ والتبشير في الابتداء ولا في الانتهاء مع أنهُ كان مؤمناً فاضلًا وقد شهِد الله بفضلهِ (يوحنا ١ : ٤٧) اجبتك انهُ كان رجلًا عالماً علّامةً في الشريعة فلهذا لم ينتخبهُ الربُّ رسولًا لكونهِ تعالى لم يصطفِ للبشارة الا الفقراء الاميّين الخالين من العلم والفقه انتهى



الفصل الثاني

في الآلة الاولى وهي الاستظهار اي الحِفظ غيبًا

قد قلنا سابقًا ونقول الآن ايضًا ان الواعظ يلزَمهُ أن يكتب مختصَر موعِظتهِ ويعيّن المقدّمة وأماكن الاقسام ان كان هناك اقسام . ويثبت ما يقولهُ بالشواهد والأَمثلة والبراهين . ويجعلها بمنزلة المسامير لأَركان وعظهِ . فاذا تمّ هذا بحسب الواجب واستعدّ للوعظ يلزمهُ قبل أَن يعِظ بايام كثُرت او قلّت على مقتضى طول وعظهِ وقصرهِ وبحسب وقتهِ وسهولتهِ وبحسب قوة حافظتهِ أن يحفَظ ما كتبهُ غيبًا ليقولهُ غيبًا ويتّسع فيهِ بمقدار ما عندهُ من قوّة الفهم . لان خطابهُ الناس من ورقة مكتوبةٍ يقرأها عيبٌ كبير . وهو غير مستعمل عند الواعظين . اولًا لانهُ لا طلاوة لهُ وهو فاتر في عيون الناس ولاسيما الفهماء . ثانيًا لانهُ كلام ميت مثل قراءَة كتاب على الغير ليس فيهِ روحٌ حيٌّ يتحرَّك بالآت الوعظ . ثالثًا لأَن الواعظ لا يمكنهُ ان يقول اكثر ممّا هو مكتوب في تلك الورقة المنحصرة فيها صناعتهُ كلها . وان قال فلا يتهيأ لهُ ربط كلام بكلام آخر فيكون مفسّرًا لا واعظًا . هكذا امر الملاك يوحنا ان يبتلع الكتاب (رؤيا ١٠ : ٩) اي يحفظهُ غيبًا

واورد لهُ السبب قال لانـهُ لا بدَّ لك من ان تتنبأ ايضاً على شعوبٍ وأممٍ وألسنةٍ وملوكٍ كثيرين . يعني ان حفظهُ غيباً يوسّع عليهِ كثرة المعاني والمقاصد . بمنزلة من يكون قد اتقن علماً او مهنةً فهو يتكلم بما اتقنهُ وبفهمٍ تامّ واتساعِ مفهمٍ . واما الكتابة فهي تحصر هذا الاتساع . ولهذا لما أراد يوحنا ان يكتب مـا سمعهُ منعهُ الملاك قائلاً لهُ لا تكتُب (رؤيا ١٠ : ٤) . رابعاً لان الواعظ بقراءة الورَقة لا يحرّك قلوب السامعين لفقد حركات صناعة الوعظ المحركة لانهُ لا يمكن ان يقرأ ويستعمل آلات الوعظ معاً . واذا استعملها فلا يُتقنهـا فهو حـ نصف استعمالٍ بل أَقل كاولئك الذين كانوا يبنون سور اورشليم باليد الواحدة وسلاحهم باليـد الاخرى (نحميا ٤ : ١٧) وكانوا بهذا يشتغلون نصف شغل بحسب اقتضاء العقل بقطع النظر عن التـأييد الالهي . فاذا كان الواعظ هكذا كان السـامعون فاترين في السَماع لضَعف عزم الخطاب الذي هو بمنزلة شخصٍ جامدٍ غير متنفّس ولا حسَّاس . فيلتزم الواعظ من هنا ان يحفَظ ما كتبهُ غيباً ثم الحفظ غيباً لا بدَّ لهُ من ثلاثة اشياء

الاول اختصار الكتابة ليسهُل ضمُّ المعنى في صفحة المخيّلة .

هكذا صنع استفانوس اوَّل الشهداء لما اراد ان يُثبت لليهود مجيء السيِّد المسيح فانهُ اورد لهم تاريخ ابرهيم ونسلهِ والانبياء والهيكل وما يتعلق بهذا كلّهِ بالفاظٍ وجيزةٍ مختصرة جدًّا يمكنهُ ان يحصُر معنى ذلك كلَّه في مُخيلة اليهود (اعمال ٧: ٢) هذا نفسهُ يلزم الواعظ ان يصنعهُ ليتمكن من حفظ المعنى جيدًا. لكن يلزمهُ وهو قائم في الوعظ ان يستعدّ لأن يملأَ من عندهِ تلك الاماكن التي يلزمها الاطالة في الكلام والبيان ويدمج فيها الفاظًا ذات قوة وطلاوةٍ . وهنا تظهر صناعة الواعظ وبراعتهُ. وهذا يساعدهُ عليهِ التهيؤ الذي ذكرناهُ في الفصل الخامس من القسم الثاني هنا . ومما هو ضروري للواعظ ايضًا ان يضمّن من عندهِ كلامًا مناسبًا للموضوع في تلك الاماكن التي يلزمها التضمين ولكن بالمناسبة حتى لا يكون وعظهُ مثل الشجر المطعَّم أَصلهُ تفاح وثمرهُ كمثرى . وليحذر هنا من عيب العيّ وهذر الكلام الذي لا طائل فيهِ . فكن اذًا يا ايها الواعظ حكيمًا بمنزلة البنَّاء الحكيم . فانهُ يتمم البيت الذي يبنيهِ بما يلزم من ابواب وشبابيك وطاقاتٍ ومغالق وغير ذلك

ثانيًا ان يكثر من درس ما كتبهُ ويحفظهُ في عقلهِ شيئًا

فشيئاً ليتقرّر معناهُ في فَهمهِ بمنزلة الطفل الذي يتعلَّم سورتهُ ليقرأها على شيخهِ كلمةً فكلمةً من غير غلطٍ ولا لحَن . لانهُ ان ادمن هذا الدرس وهذا الحفظ يصير له الحفظ عادةً فان كانت المواظبة تعلم الحيوان الغير الناطق خصالًا غير خصالهِ الطبيعية . فما ظنُّك بفعلها في الحيوان الناطق ولاسيما اذا كانت المواظبة تمكنهُ في خصالهِ الطبيعية كالحفظ غيباً لان الانسان مائل الى العلم طبعاً كما تقول الفلاسفة

ثالثًا ان يكون اجتهادهُ منصباً نحو حفظ الشَهادات والأَدلَّة ويحفظ معناها غيباً . لأن هذا شيءٌ هيّن عليهِ . وربما يحفظها من قبل ان يكتُبها لكن يلزمهُ ان يحفظ مع ذلك اما كنها ومواقعها ويجعلها لهُ بمنزلة العلامات لتدلَّهُ على ما تقدَّم من الكلام وتأَخَّر كالذي يذهب في طريق لا يعرفهُ . فانهُ يضع له فيهِ علامات تدلُّهُ حتى اذا رجَع في ذلك الطريق يهتدي بتلك العلامات كما علَّق جواسيس يشوع بن نون في اريحا خيطاً أحمر في بيت راحاب الزانية التي خبأَتهم عندها حتى اذا رجعوا الى اريحا ليهدموها يعرفون ذلك البيت من علاماتهِ فلا يؤْذون من فيهِ (يشوع ٢ : ١٨) ولهذا وغيرهِ سمَّاها الخطباءُ مسامير

الوعظ لأنها تمكّن معنى الوعظ وتدلُّ الواعظ عليهِ

الفصل الثالث

في الآلة الثانية وهي طَلاقة اللسان

كما ان النار مستعدَّة للاحراق طبعًا ويزداد احراقها بمقدار ازدياد المادَّة فيها كذلك اللسان فانهُ نار كما يقول الرسول (يعقوب ٣:٦) يزداد طَلاقةً بمقدار ما تقدّم لهُ من المادة ولوازمهُ خمسةٌ

اوّلها درس الكتب الروحية المناسبة للوعظ فان الواعظ يخزُن منها في عقلهِ وفكرهِ معاني كثيرة تكون مادّةً في وعظهِ فينطلق لسانهُ حرٍ في ايرادها وبيانها كما قال اغستس لبولس الرسول في خطابهِ مع اغريبا الملك لقد جُنِنتَ يا بولس ان كثرة الدروس تصير بك الى الجنون (اعمال ٢٦ : ٢٤) فكأنهُ يقول لهُ ان الكتب الكثيرة التي درَستها وخزَنت معانيها في عقلك هي التي تحملك على الاسهاب في كثرة الخطاب. وهذا قد تكلمنا فيهِ في الفصل السادس من القسم الثاني

ثانيها كثرة السامعين وأمارات شوقهم الى سماع الوعظ ولاسيما اذا كان فيهم اهل فضل وتقوى واهل فهم وذكاء وقد

نرى السيد صنع هكذا لما كان جالساً على سِيف البحر فانهُ لما رأى كثرة الجموع صعِد الى السفينة وجلس يعلّمهم (متى ١٣ : ٢) فان السيد لما رأى كثرتهم ورَغبتهم في الوعظ تحرك نحو تعليمهم . لأنهُ لا شيء يرغّب الواعظ في اتقان وعظهِ بآلاتهِ مثل كَثرة السامعين وتشوّقهم الى التعليم . ولا شيء يزهّد الواعظ ويُضعف آلات وعظهِ مثل قلّة السامعين او عدم اصغائهم اليهِ . فلهذا يشتدّ الواعظ في وعظهِ ويتسلح متدججًا بآلاتهِ اذا رأى الكَثْرة والرَغبة . واذا اشتدَّ الواعظ انطلق لسانهُ ضرورةً كالماء المنحدر من القناة . فانهُ اذا كثُر وضاق منفذهُ اشتدّ صعودهُ

ثالثها اذا كان هناك موضوعٌ قابلٌ لاطالة المقال . فان الحال الواقعة تلجئهُ الى الاسهاب في الخطاب ضرورةً . ان الريح اذا اشتدّت في فصل الشتاء اتت بأمطارٍ كثيرةٍ واذا اشتدّت في فصل الربيع ارسلت الاشجارُ ازهارها واوراقها . واذا اشتدّت في فصل الصيف اينعت الثمار . واذا اشتدّت في فصل الخريف أَسقطت الثمار والاوراق معاً . لأَن كلًّا منها موضوعٌ قابلٌ لذلك فكذلك يكون الواعظ إذا كان موضوع كلامهِ قابلًا للاسهاب والاطناب . هكذا صنع بولُس لما أذن لهُ اغريبا الملك ان يحتجَّ

عن نفسهِ (اعمال ٢٦ : ١) فانهُ أَسهب وأطال في الخطاب لما رأى الموضوع قابلًا حتى ضجَّ السامعون منهُ ونسبوهُ الى الجنون وهكذا صنع يسوع في خطابهِ مع تلاميذه بعد غسلهِ أقدامهم لما رأى الموضوع قابلًا (يوحنا ١٣ : ٣١)

رابعها تمكن الواعظ في حفظهِ موعظتهُ فان الانسان لا يجود الا بما عندهُ من الموجود فان العين لا تبعث ماء الا بمقدار ما تحويهِ من الرطوبة

خامسها غيرة الواعظ وحرارتهُ فانها تنبه قريحتهُ وتشحذها فيتحرَّك لسانهُ ضرورةً فينطلق مسترسلًا في كلامهِ كما نبَّهت الغيرة قريحة بولس فاسترسل في كلامهِ مع اليهود (اعمال ٢١ : ٤٠)

الفصل الرابع

في الآلة الثالثة وهي حسن الصوت

انَّ حسن الصوت ولو كان طبيعيًّا في الانسان الَّا أَن لهُ اشياء توذيهِ فتُخرجهُ عن مركز طبعهِ . أَوَّلها استعمال المُوالح والحوامض كالكوامخ ونحوها . ثانيها الإمعان في الاكل وشُرب الخمر والماء البارد جدًّا . ثالثها التعب البالغ وعدم تلافي المزاج

من الحرارة والبرودة وضعف الجسد الزائد عن حدّهِ . رابعها السهر الزائد . خامسها الزيادة في استعمال التتن لأنهُ يُحدِث ضيقاً عند التنفُّس . سادسها كثرة اكل السمك والاشياء الرَطْبة فانها تُحدِث البلاغم وتسُدّ مجاري الصوت . سابعها كثرة استعمال اكل الزيت فانهُ يخشّن الحلق . ثامنها استنشاق الريح الباردة فهذه كلها يلزم تلافيها ولهُ اشياء تقوّيهِ وتنفعهُ أولها استعمال الأمراق الدَسِمة والمآكل الكثيرة الدهن . ثانيها اكل السمن والسيرج وأنواع الحلاوات . ثالثها استعمال مقدار عشرة دراهم من العَرَق قبل النوم او بعدهُ فانهُ يُذيب البلغم . رابعها الدِفْء ولاسيما دِفْء العنق اذ هو مجرَى الصوت . لأن الواعظ اذا احترس على حسن صوتهِ ملَك قلوب السامعين وجذَبهم نحو مُرادهِ لأن الصوت فيهِ قوَّتان الاولى قوَّة مرهِبةٌ اذا كان شديداً جهيراً كما ارهب الله شعب اسرائيل بأصواتهِ الجهيرة يومَ خاطبهم من طور سِيناء بأصوات الرعود وصوت البوق ففزع الشعب جداً (خروج ١٩ : ١٦) وكذا يوحنا فانهُ سمِع في رؤياهُ أصواتاً تنبثق من العرش (رؤيا ٤ : ٥) هكذا الواعظ فانهُ اذا أرعد بصوت وعظهِ أدهش السامعين وأرهب قلوب الخطأة .

الثانية قوَّة ملذّذة . وذلك اذا كان الصوت صافيًا خارقًا بلذّة حسنهِ في المسامع شجيًّا رخيمًا في نغمتهِ . فانهُ يلين القلوب ويرقّقها ويملأُها خشوعًا ووداعةً فكما ان داود لما كان يأخذ العود ويضرب بهِ فيستريح شاول ويتعش وينصرف الروح الشرّير عنهُ (١ ملوك ١٦ :٢٣) هكذا الواعظ فانهُ اذا ضرب للسامعين بعود صوتهِ الرخيم يبعد الروح الشرّير الذي يعذّبهم بالتجارب . ويميل بهم الى التوبة والندامة والخشوع . ان المغنّي اذا كان صوتهُ رخيمًا أطرب السامعين وأمالهم الى سماعهِ ولو كان ما يقولهُ ركيكًا لا معنى لهُ . لان الصناعة التي معهُ وحسن صوتهِ يغشّيان تلك الركاكة ويجعلانها لذيذةً معتبرةً كما يُغشّي الذهبُ النحاسَ ويجعلهُ للناظرين ذهبًا كلّهُ . هكذا الواعظ الحسن الصوت . فانهُ يجتذب السامعين اليهِ بحسن صوتهِ ولو كانت عباراتهُ ركيكةً . ويتلاعب بهم كما تتلاعب الريح بالأغصان . وهذا شيءٌ طبيعيٌّ لان النفس تنبسط من ذلك الفرح الذي انبثّ في القلب والمسبّب لهُ من لَذَّة نغمة الصوت فيميل بكُلّية قواهُ نحو ما يسمعهُ ملتذًّا بهِ . وقد يتَّفق للانسان أن يموت احيانًا من إفراط عزم تلك اللذّة . هذا نفسهُ يحصُل للتائبين من سماع

حسن صوت الواعظ حتى يموت بعضهم أحياناً من فرط ندامته على خطاياهُ الصادرة له من نَبَرات الواعظ الهائلة كما ان العصب إذا كان قوياً يقوي بدن الحيوان مع ضعفهِ . هكذا حُسن الصوت فانه يقوّي بدن الوعظ ولو كان الواعظ ضعيفاً ويفخّمهُ ولو كان ركيكاً . وهذا معلومٌ من المجرَّبات

الفصل الخامس

في الآلة الرابعة وهي عزم الحرارة

إنّ الرحى بغير عزم الماء المنصبّ اليها لا تطحَن شيئاً ولا تُفيد أحداً والصوت بغير عزم الحرارة لا يُفيد السامعين ولا يقوّي عبارات الواعظ أصلاً . كأنهُ طعامٌ لا ملح لهُ . فلهذا لا يكون مقبولاً ولا لذيذاً الّا عند البهائم التي لا تميّز ما بين الغثّ والسمين . فان اردتَ أن يكون صوتك مقبولاً فامزجهُ بملح الحرارة وإدامها لكن بمقدارٍ . ولهذا كان للحرارة في الوعظ اما كن اضرَّت كما يُضرّ عدمها . لأنَ الشيء اذا تجاوز حدَّهُ . جانس ضدَّهُ . ان البدن قائم بالحرارة الغريزيَّة . وبها نموّهُ وحياتهُ . فان زادت او نقصت عن عِيارها . انفعل البدن واعتراهُ المرض . وان فنِيت مات . هكذا حال الحرارة في الواعظ فان تعدَّت اما كنها او

سكنت تلاشى جسم الوعظ واما كنها اولًا بيان صعوبة الموضوع بايراد الشواهد والادلَّة المقنعة . ومن هنـا كان يبكي صاحب الرؤيا لانه لم يُوجَد أحدٌ يستحقّ ان يفتح الكتاب ولا ان ينظر ما فيهِ (رؤيا ٥ : ٤) ثانيًا بيان ارادة الله في ذلك الموضوع . ومن هنـا قام بطرس الرسول بالحُجَّة على ان المسيح جاء ضرورة وان الايمان بهِ ضروريٌّ للخلاص . ولهذ امر اليهود الذين آمنوا بالاعتماد (اعمال ٢ : ٣٨) ثالثًا بيان ضرورتهِ في خلاص الانسـان . ومن هنا احتدَّ يوحنا الصابغ قائلًا : من لا يؤمن بالابن فلا يعـاين الحياة ولكن غضب الله مستقرٌّ عليهِ (يوحنا ٣ : ٣٦) رابعًا التوبيخ لاجل ذلك الموضوع ومن هنا احتدَّ الرسول على الغلاطيـين موبخًا لهم بقولهِ ايها الغَلاطيُّون الأَغبياء مَن الذي سحَرَكم حتى لا تطيعوا الحق (غلاطية ٣ : ١) فان الحرارة في مثـل هذه الاماكن بمنزلة سَهم ناريّ تطعَن بهِ قلب الخاطئ فتستفرغ منهُ جميع المواد الفاسدة . ثم استعمل الوَداعة بعد هذه الحرارة بمنزلة إسفَنجة تمسَح بها آثار ذاك القيح المنتن واضبُط لسانَك من فلَتاتهِ وقت الحرارة لئلا تجرح الاماكن الطيّبة او تفصد العرق غير المقصود بمبضع لسانك أَو تتعمق في الجرح اكثر من المطلوب . فتُحدِث من

ذلك قتلًا او في الاقل سقمًا باهظًا . ومن هنا استحق التوبيخ يعقوب ويوحنا من السيد لأَنهما طلبا الانتقام بحرارة زائدة من اهل السامرة . لكونهم لم يقبلوا المسيح وهذه حفرةٌ قد تهوّر بها كثير من الوعّاظ فان النار اذا اشتدَّت حرارتها من اضطرامها الزائد أَحرقت اليابس والأخضر معًا . ليس على الواعظ خطَرٌ في وعظهِ مثل خطر عزم الحرارة ولاسيَّما عند التوبيخ لكونها تغيّب الواعظ عن وعيهِ وتُخرجهُ عن حسّهِ . اسأل مجرّبًا ولا تسأل حكيمًا . ومن جرَّب المجرّب حلَّت بهِ الندامة . واكثر الوعَّاظ تهوُّرًا في هذه الحفرة الواعظ الفصيح المعجَب . لأن الفصاحة تطلق لسانهُ وفرح العجب يغيّبهُ عن حِسهِ فيسقُط ودواؤُهُ هنا استعمالهُ آلة الشهامة كما يأتي بَيانها في مكانها

الفصل السادس

في الآلة الخامسة وهي حسن الحركات

اعلم أَن حركات الواعظ نصف وعظهِ كما أَن حركات المؤدّب نصف أَدبهِ . قال الحكيم من منظرهِ يُعرَف الرجل (ابن سيراخ ١٩ : ٢٦) هكذا الواعظ فانهُ يعرَف من حركات وعظهِ . فلهذا يلزمهُ الحرص على اتقانها كما يلزمهُ الحرص على اتقان وعظهِ كلّهِ . انَّ

الحيوان الناطق مركَّب من جسد ترابيّ ومن نفس ناطقة. والوعظ الناطق غير الميت كقراءة الكتب الروحية مركَّب من الفاظ ساذجة ذات معنًى ومن حركات حيَّة ومن حرارةٍ . فالجسد الترابيّ غير حسَّاس واما النفس الناطقة فانها حسَّاسة عاقلة فهي اذًا قِوام الانسان . وبغيرها لا يُعَدّ الانسان الَّا شبه الانسان . هكذا الوعظ فان اللفظ فيهِ ميت غير متحرك . واما الحركات فانها كنفس الوعظ الناطقة . وجوهرهُ القائم فيهِ الالفاظ الميتة . فكما ان الانسان لا يُعَدّ بدون النفس الناطقة انسانًا . هكذا الوعظ فانهُ لا يُعَدّ بدون الحركات وعظًا بل انما يكون صورة وعظٍ كما ان ذلك صورة انسان فيُنتَج من هنا ان الحركات قِوام الوعظ وانها المتممة لما ينقص منهُ . اي ان الواعظ يستعين بحركاتهِ في وعظهِ على ما ينقصهُ من اللفظ والحرارة كما استعان بنو اسرائيل ببسط يدَي موسى النبي في انتصارهم على العمالقة فكانت يدا موسى بمنزلة السلاح الاعظم (خروج ١٧ : ١١) فيدَا موسى هما عين حركاتك يا ايها الواعظ . فاستعِن بهما على حرب عمالقة الخطيئة وعلى الخاطئين . ان المشيَ هيّن على الانسان لا يخاف معهُ السقوط لانهُ طبيعيٌّ لهُ . لكنَّهُ يصعب عليهِ اذا

كان فوق حبلٍ ولو كان طبيعياً فيهِ ويخاف السقوطَ معهُ كثيراً. فاذا اراد ان يتلافى نقص هذا المشي الطبيعيّ ويزيل خوفهُ العارض لهُ من عروض الحبل يتناول الميزان بيديهِ ويحركهُ متلاعباً بهِ فيستقيم حينئذٍ مشيهُ ويزول خوفهُ. ويمشي وهو فوق الحبل كمشيهِ فوق الارض بل اسرع وارشق ويُظهِر في مشيهِ فوق الحبل غرائب تدهش الابصار حتى يقول الناظرون اليهِ ما هذا بشراً. وهذا انما يتأَتَّى لهُ من حركات الميزان الذي بيديهِ. فهذه صورة الواعظ فانهُ وهو في وعظهِ بمنزلة من يمشي فوق حبلٍ والحركات ميزانهُ فان تلاعب بها مستقيماً وعظ مستقيماً وأدهش نواظر الناظرين. فتمسَّك اذاً يا ايها الواعظ بميزان حركاتك ولا تدَعهُ يسقُط لئلا تسقط انتَ معهُ لأن قوتك كلها في حركاتك فان سكنت تلاشت. ان شمشونَ لما جُزّ شعر راسهِ أُخذ أسيراً (قضاة ١٦: ١٩) فانت مثلهُ لانهُ ان سكنت حركاتك وأَنت في مِنبَر الوعظ تشبه صنماً يتكلَّم بصناعةٍ بشريَّةٍ فلا تتكل على بقية آلاتك وتُهمل هذه. لأن السفينة لا تسير بغير الريح ولو كانت آلاتها تامةً وقلوعها معدَّةً. هكذا سفينة وعظك فانها لا تمشي الَّا بريح الحركات. ولو كنت أَفصح الفصحاء في عصرك

وأعلم العلماء في دهرك . ثم ان هذه الحركات تختلف باختلاف أخلاق سكّان العالم . لأن للاتينيّين حركاتٍ تخُصُّهم في بلادهم غير حركات اليونانيين . وكذلك اهل الهند وفارس و بلاد العربية من العراق الى مصر وما يليها . فان خرج كلٌّ منهم عن حركات بلادهِ خرج عن استقامة وعظهِ وتستدلُّ على انواع حركاتهم في وعظهم ولو لم ترَها من حركاتهم وإشاراتهم عند حديثهم وكلامهم في تصرُّفهم بين الناس . فانها عين تلك الحركات التي تكون منهم في الوعظ . واذا أراد احد ان يتظاهر بحركات بلادٍ في بلاد أخرى فيكون قد صنع نُكرًا يُضحك الناس عليهِ . ولهذا يلزم الواعظ في غير بلادهِ ومرباهُ أن يتعلَّم اولًا حركات تلك البلاد ثم يعظ و يأتي بالفائدة تامَّةً . هكذا قال الرسول وصرت مع اليهود كاليهوديّ لأربح اليهود . فلا يجوز للواعظ اللاتينيّ واليونانيّ ان يتظاهر في البلاد العربيَّة بحركات بلادهِ . ولا للواعظ العربي ان يتظاهر عند اولئك بحركات وطنهِ فان هذا يُعدّ عيبًا كبيرًا في صِناعة الخطاب افهَم ذلك

ثم الحركات قسمان قسم يخُصّ الصوت وقسم يخُصّ الاعضاء . فالقسم الاول الذي يخصّ الصوت نوعان الاول . طبقات

الصوت . وهي ثلاث رفع ونصب وخفض . فيلزم الواعظ ان يتلاعب بصوتهِ في هذه الثلاث كما يتلاعب الزمّار بزمرهِ تارةً يرفع وتارةً ينصب وتارةً يخفض حسب مواقع الكلام الآخذ فيهِ . فان أخلَّ بالترتيب ضاع غرض المعنى ضرورةً وكان بمنزلة طفل يصفر في أنابيب القصب لا يُعرف لهُ اوّل من آخر . يلزم الواعظ اولًا ان يرفع صوتهُ في الاماكن التي تلزمهُ فيها الحرارة وقد تقدّم بيانها في الفصل المتقدم فليراجع . ثانيًا ان ينصبهُ اي يعتدل بهِ وذلك في الاستفهام والتعجُّب وفي ايراد الشواهد والاخبار . ثالثًا ان يخفضهُ وذلك في التعليم والنصيحة والعتاب ولا يستعمل همس الصوت بالكلية لئلا يُبهَم كلامهُ عند السامعين فلا يسمعوهُ فتفوت الفائدة . فهذه الطبقات الثلاث يلزم استبدالها في الوعظ بمقتضى مواقعها . وهذا هو مراد الرسول بقولهِ للغلاطيين انّي اودّ لو اكون الآن حاضرًا عندكم فأُغيّر صوتي لاني قد تحيرتُ فيكم (غلاطية ٤ : ٢٠) فكأنهُ يقول انني اغيّر خفض صوتي الذي كنتُ استعملهُ معكم للتعليم والتهذيب وانقلهُ الى رفع التوبيخ والتهديد . ثانيًا حركات الصوت وهي سبع اولًا الامتداد اي ان يمدّهُ بالترثي وذلك وقت التوسُّل والخشوع

والمذلّة والتواضع والندامة والانسحاق والاقرار بالضعف والنقص والخطايا . وطبقتهُ الخفض . ثانيًا الاستفهام ولهُ فيهِ حركة السؤال . وطبقتهُ النصب اي الاعتدال . ثالثًا التعجُّب ولهُ فيهِ حركة المندهش المبهوت . وطبقتهُ النصب . رابعًا التهديد والوعيد ولهُ فيهِ حركة القاضي المنتقم . وطبقتهُ الرفع . خامسًا الشفقة والحرص ولهُ فيهِ حركة الاب الشفيق . وطبقتهُ النصب . سادسًا النصح والتعليم ولهُ فيهِ حركة المعلم مع تلميذهِ . وطبقتهُ الخفض . سابعًا الخطاب والمذاكرة ولهُ فيهِ حركة الاحاديث والاخبار . وطبقتهُ النصب فالواعظ يلزمهُ ملاحظة هذه الحركات في وعظهِ مع ملاحظة طبقات الصوت وليرفع كلًّا في موقعهِ وقرارهِ على طِبق المعنى ولا يزلّ فيهِ اصلًا . وهنا تظهر براعة الواعظ . واذا خرج من طبقة الى طبقة فليكن خروجهُ بغتةً فان هذا نوع من الالتفات لهُ في النفوس أحسن تأثيرٍ وموقعٍ وليصنع كذلك اذا خرج من حركةٍ الى حركةٍ أُخرى

القسم الثاني الذي يخصّ الايدي وبقية الاعضاء وهو نوعان الاول هيئة الواعظ وهي ثلاث ضمٌّ وفتحٌ وكسرٌ فيلزم الواعظ ان يقدم لله ذبيحةً سليمة تامّة لا عيب فيها اي لا يوجد

فيها نقص يعيبهُ ولا يشينهُ في حركاتهِ . وكما قال الرب لموسى كل قُربانٍ من تقادِمك تملِحهُ بالملح ولا تُخل تَقدِمتك من ملح عهد إلهك مع جميع قرابينك تقرّب ملحًا (احبار ٢ : ١٣) هكذا يلزم الواعظ أن يملّح قربان حركاتهِ في مواعظهِ كلها . اولًا ضم حركاتهِ بالتهذيب اي ان تكون حركاته كلها مضمومةً مهذبةً بملح الرَزانة والرَصانة لا طائشةً بخفّة العقل والراس بل فلتكن كلها مضمومةً تحت طيّ الحكمة . ثانيًا ان يفتح قامتهُ اي انهُ يكون منتصب القامة غير متلوٍ ولا مخلّع تخلّع الراقصين لئلا يكون راقصًا لا واعظًا . ثالثًا ان يكسِر قدمهُ بالثبات في موضعهِ حتى يكون ثابت القدمين بالكليّة فلا يحركهما ولا يخرجهما عن قرارهما ابدًا فاذا ملّح قُربانهُ بهذا الملح يكون حـ مقبولًا . الثاني حركات الواعظ وهي سبع . اولًا اذا انتصب الواعظ في مِنبر الوعظ يفتتح كلامهُ بآية من الكتاب المقدّس تكون براعة استهلال وعظهِ ويداهُ مضمومتان على صدرهِ وعمامتهُ بين يديهِ ان كان لهُ عمامة ثم يلبسها ويبتدئ في شرح كلامهِ وهو يحرك يدهُ اليمنى تحريكًا خفيفًا حتى اذا تمادى في كلامهِ حرّك يديهِ معًا ثانيًا يتلاعب بيديهِ وراسهِ ويُجيل نظرهُ متلفّتًا يمينًا وشمالًا

في حالة التعليم والتوبيخ والبيان فيما هو آخذٌ فيهِ

ثالثًا يبسُط يديهِ عند التعجب كأنهُ منذهل ويضمُّهما الى صدرهِ شكل صليب عند التوجُّع ويتمايل براسهِ ويداهُ منبسطتان عند النوح والندب

رابعًا يضرب يدًا على يدٍ أو يدهُ على رُكبتهِ عند التندُّم كأنهُ خسِر شيئًا ثمينًا

خامسًا يمدُّ يدَهُ اليمنى متسلطًا بعزم الحرارة عند الانتقام والتهديد ويبعد بكفَّيهِ او بكفّهِ عند الطرد ويُقبل بهما نحوَ صَدْرهِ عند الاقبال

سادسًا يرفع يديهِ الى السماء عند الابتهال والخشوع ويحني راسهُ عند التذلُّل والاتضاع

سابعًا حركة الاشارة وهي خمس

اولًا ان ذكر شيئًا من الاعضاء فليدُلّ على عضوهِ المشار اليهِ وكذلك اذا اشار الى الذات والقلب والعقل

ثانيًا اذا اشار الى الجهات الستّ وهي قدَّام وخَلْف وشِمال ويمين وفوق وتحت . فليدُلّ على كلّ منها بيدهِ

ثالثًا اذا اشار الى المخاطب فليدلّ نحو الحاضرين والى

المتكلم فنحو ذاته والى الغائب فنحو البعيد

رابعًا اذا اورد ذكر آلة ما مثالًا أو خبرًا وغير ذلك لمضمون كلامهِ فليصوّر فيها إشارة فعلها

خامسًا اذا وبّخ فليخالف في إشارات التوبيخ نحو الحاضرين خوفًا من الظنّ . والحاصل فلتكن الحركة مناسبةً لما يتحرّك من اجلهِ والاشارة تناسب المشار اليهِ ولتكن عيناه تابعتين حركات يديهِ حسب الامكان ولا يزال جسده ملتفتاً يمينًا وشمالاً وعيناه تجولان على السامعين كأنهُ ينظرهم كلهم معًا ولتكن قدماه مع هذا كلّهِ ثابتتين في الارض كأنهما عمودان لا تتحركان ولا تنتقلان. وأما حركات عزم الحرارة فقد مرّ بيانها في الفصل المتقدّم هنا استطرادًا

الفصل السابع
في الآلة السادسة وهي الشجاعة

انّ موقِف الواعظ في مِنبر الخطاب مَهيبٌ جدًّا لكونهِ في ذلك الموقف فريدًا ما بين جموعٍ كثيرةٍ محدقةٍ بهِ وعيون الجميع ترمُقهُ وهي شاخصةٌ فيهِ يميزونهُ تميزًا خاصًا من فرقهِ الى قدمهِ. فلا يمكن ان تختفي عليهم ادنى حركة من حركاتهِ ولو رفّة جفن وينتقدون ألفاظهُ ويتأملون معانيها ويشاهدون حركاتهِ

عِيانًا . وكلهم صاغون الى صدى صوتهِ فترى كثيرين يشاهدون واحدًا . وواحدًا يشاهد كثيرين ولاسيما اذا كان ثَمَّ علماء واعظون منتقدون . واصعب من هذا كلّهِ اذا كان فيهم حُسَّاد مبغضون يترقَّبون عَثرة الواعظ ليتعلَّقوا عليهِ بالردى . فأعظم بها من حالة هائلة تشدَه البصائر وتُدهش الأبصار وقد تشكَّى منها الرسول قائلًا : وكنت في أخطار من أُمّتي وأخطار من الأُمم وأخطار في المدينة وأخطار بين الإخوة الكَذَبة (٢ كورنتس ١١ : ٢٦) يعني بهم القوم الحاسدين فيلزم الواعظ هنا شجاعةٌ وتأييد الهيّ . وهذا بالمعنى قد تقدمنا فنبّهنا عليهِ غير مرّةٍ في سياق الكلام . فان كنتَ يا هذا غير شُجاع في طبعك فلا تتورَّط في هذه الوظيفة الشريفة . ولا تخُض هذه اللجَّة التي غرق في ساحلها كثيرون . لأنك وُعدت من الله ان تكون في هذه الوظيفة خروفًا بين الذئاب كما قال رب المجد لهُ المجد : ها انا مُرسلكم مثل خرافٍ بين ذئاب (متى ١٠ : ١٦) فليتأمل الواعظ في حالة خروف وديع تحدق بهِ ذئاب مفترسة مملوءة حسدًا وبغضًا وتعنُّتًا وعِنادًا وقذفًا وافتراء كما كانوا محدقين قبلهُ بالسيد المسيح رب وظيفتهِ . فان كان المتقدم الى هذه الوظيفة جبانًا

فليتأخَّر عنها غير متكل على آلاتهِ. لان جبانته تُنسيهِ صناعته فلا تفيده شيئاً غير تعريض نفسهِ للرزايا واقامتـهِ ذاته هدفاً للبَلايا. قد رأيت واعظاً جباناً. كان في وعظهِ يرتجف كله مع صوتهِ كأنهُ قصبةٌ في مهبّ ريح عاصفةٍ فرحمته متوجعاً له بقلبٍ شفيق متألم عنهُ لافراط هلَعهِ وجزعهِ. وقلت فليصمُت واعظٌ مثل هذا اذ الحديث حرامٌ عليهِ فكيف الخطـاب على المنابر. وقد كان يكفيهِ الاتّعاظ بذلك المثل الذي اوردهُ السيّد قائلًا: مَنْ منكم يُريد ان يبني برجاً ولا يجلس اوّلًا ويحسُب النَفقَة هل عندهُ ما يكمّلهُ بهِ (لوقا ١٤: ٢٨). ولهذا اقول لك يا مَن يروم ممارسة هذه الصِناعة. انك ولو كنت شجاعاً طبعاً فلا بدَّ لك في الابتداء من كل هذه المرائر. لتصِل بعدهـا الى اكل القطائر. فانها ارض الميعاد التي من دونهـا طعنٌ ومصادفة أهوال. ومكافحة أبطال. لكن يقول الله تعـالى ثِقُوا فإني قد غلبتُ العالم (يوحنا ١٦: ٣٣) فلهذا انصحـك قائلًا: اذا تهيَّبت الناس في ابتداء ممارستك وظيفة الوعظ فلا تجبُن ولا تهلَع ولا تسقط عن مِنبرك في يد الخوف الظالم لئلا يصير فيك ملكةً فتموت بهـذا الداء الذي فتَك بقلوب كثيرين من الواعظين

والتخلُّص منهُ اجعل الموعظة اولَا مختصرةَ ذات معنًى سهل . وإياكَ ان تخدع ذاتك بقولك انني اذا قرأتها اوّلًا في قرطاس على السامعين تقوى اخيرًا عبارتي فأصير أقولها غيبًا . ما اكثر المنخدعين بهذا الوهم الباطل . قد رأينا غيرك ظنَّ هذا الظنّ الفاسد ومات متحسّرًا على ما طلبتَ وطلب . لانهُ لا شيء يزيدك سقمًا مثل هذا . ان النزل اذا اخذ له مُجرى في البدن يلزمهُ اولا التنقية من داخلٍ فان لم تُفد التنقية يلزمهُ الكيّ فيستقيم النزل جاريًا والكيّ مخرجاً . فان كنت لا تحفَظ ما تقولهُ غيبًا فاستعمل العلاج في الحفظ . وهذا هو التنْقية . وان كان لا يشفى بهذا العِلاج فتلتزم بالكيّ . فان قلت وما هو الكي قلت هو ان تمسك قرطاسًا مكتوبًا وتقرأهُ على السامعين . فكيف تطمع بعد هذا ان تستغني عن هذا الكيّ . والطبيعة أخذت مجراها اليهِ لانهُ لم تفدها التنقية قبلًا فالأَوفق لك ان تترك الوعظ من أَن تُبتلَى بهذا الكيّ الوخم . واتّعظ بما قالهُ السيد في شجرة التين افلحها وازبلها فان لم تثمر فاقطعها (لوقا ١٣ : ٨) اي ان لم يمكنك الحفظ غيبًا بعد علاجهِ الذي ذكرناهُ هنا في الفصل الثاني من هذا القسم فاترك الوعظ وعدِّ عنهُ

ثانياً اقطع النظر عن المنتقدين واحسُب السامعين كلّهم مستفيدين لان حرصك من المنتقدين وممن يمسكون عليك الغلط يزيدك وهماً . واذا زاد الوهم فُقِدت الشجاعة ضرورةً فتسقط حينئذٍ عن درجة وعظك . فاقطع النظر عن هذا التوهُّم واطلب رضى من رَضي بتسبحة الأَطفال والرُضَّع يوم الشعانين (متى ٢١ : ١٥) ولا تطلب رضى الناس الذين قالوا ليسوع وهو فوقَ الصليب ان كان هو ملك اسرائيل فلينزل الآن عن الصليب فنؤمن بهِ (متى ٢٧ : ٤٢) فلم يلتفت يسوع الى رضاهم بل التفت الى أن يتمم مشيئة ابيهِ السماويّ . وهكذا قل معَ الرسول لو كنت بعد ارضي الناس لما كنت عبداً للمسيح (غلاطية ١ : ١٠) اي ان كنت تقصِد في وعظك رضى المنتقدين فلا يمكنك ان تصير واعظاً حقيقياً ليسوع في تخليص الانفس لان المنتقد متعنّت ورضَى المتعنت غايةٌ لا تُدرَك

ثالثاً لا تمعن نظرك ولا تكرره كثيراً في السامعين لئلا تهولك كثرتهم وهيئتهم . بل ليكن نظرك متوجهاً نحو موضوع وعظك . وهو كيف تقتل الخطيئة وتحيي الخاطي مثل يهوديت البارّة لما ارادت بالهامٍ الهي ان تخلّص مدينة بيت فلوَى من يد

أليفانا قائد جيش بختنصر الملك الذي كان محاصرها بمائة وعشرين الف رجل واثني عشر الف فارس (يهوديت ١٣ : ٩) فهذه الجموع كلّها ما هالت يهوديت البارَّة. لان غرضها كلهُ كان موجَّهًا نحو قتل اليفانا وتخليص الاسرائيليين منهُ. ولهذا اخترقت الصفوف الجندية وتمت حيلتها حتى قطعت رأس الكافر. وخلَّصت الشعب فكن انتَ في عزمك متوجهًا نحو تمام نيَّتك ولا تلتفت الى كَثرة الجموع كما لم تلتفت تلك الى كَثرة الجنود. واقطع رأس الخطيئة بجدّ لسانك. وخلّص الخاطي منها

رابعًا اذا نسيت شيئًا من وعظك فجزهُ وخذ في غيرهِ لأنَهُ ليس الوقت وقت التفتيش عندَ مبتدئ مثلك ولا تعتبر عتب السامعين فدَعهم يقولون غلط ولا يقولون خَرِس. لانك ان فتشت ذلك الوقت تنسى الجميع فتخرس. بل كن كالصبيّ الذي يخطَف التفاحة ويفرّ هاربًا ولا يلتفت الى شتائم صاحبها. وهذه المهاول كلها تصيبك في ابتداء تعاطيك صناعة الوعظ فاذا ادمتها فلا تعود ترى من هذه الاوهام شيئًا. والذي يزيدك شجاعة قولك لذاتك هٰذا قد تعاطيت وظيفة الوعظ وما عاد لي منها بِراح فلنجدّ الإحضار في اتقانها واياك من أن تصغُر نفسك

فتضجر . ولهذا تبطـل الوعظ وفيك آلاتهُ تامّة واسباب صِغَر النفس ثلاثة . الاوَّل اذا رأيتَ حاسديك يثلبونك ويلذعونك بالكلام المؤلم . الثاني اذا رأيت ذاتك ليس كما تريد من استقامة وعظك . الثالث اذا رأيت البعض لا يُثنون على وعظـك ولا يمدحونك فتصغُر نفسك من هنا وتطلُب ان تُبطـل الوعظ . وهذا هو مراد ابليس عدّو الخير ومراد تلاميذهِ الحـاسدين وعلامة كبريائك وحبّك مجد العالم لا مجد الله

الفصل الثامن

في الآلة السابعة وهي الشهامة

الشَهامة مصدر شهُم كفضُل فهو شَهْم بفتح الشين . ومعنى الشهامة في اللغة ذكاء الفؤاد وتوقّد العقـل والمعنى فيهما واحد وهو ان الواعظ يلزمهُ في وعظهِ

اوّلًا أن يكون ثابت القلب ذكيَّ الفؤاد لا يَملّ ولا يضجَر ولا تصغُر نفسهُ لئلا يعتريهُ النسيـان والبَلادة . بل يلزمهُ أن يجود باحسن ما أمرهُ بهِ الرسول القائل تكلم بمـا يليق بالتعليم الصحيح (تيطس ٢ : ١)

ثانيًا ليكن الواعظ متوقّد العقل واسع الوعاء غير مكترثٍ

بما تهجس بهِ الحُسَّاد المحدقون بهِ من الهذيانات . لأنهُ لا شيء يزيدهم حريقًا ويذيبهم حسدًا وكمدًا مثلما اذا رأوك يا ايها الواعظ تجود وتجول في مَيْـدان وعظك وقد حزت فيهِ قصبةَ الرِهان . فان هذا اعظمِ عذابٍ لهم . وتظهر علامة جودة وعظك من زيادة ثلبهم لك ومذمّتهم لما قلتهُ . فان ذوي العيوب يُحبُّون إشاعة معايب الناس فان أذكوا عليك نيران الفتنة فاثبُتْ انت بذكاء القلب وتوقُّد العقـل كعود النَدّ الذي كلما زاد حريقًا زاد طيبًا . فتلذّهم من جهةٍ حاسّة الشمّ بلذة رائِحة تعليمك الزكيّ وتحرقهم من جهةٍ اخرى حاسّة السمع من حرارة تعليمـك المتّقد الزكيّ قال الشاعر :

اني لأرحَمُ حاسديَّ لحرِّ ما ضمَّت صدورُهم من الأَوغارِ
نظروا صنيعَ الله بي فعيونهم في جَنَّـةٍ وقلوبهم في نارِ

وليس في هذا المعنى مثالٌ أُقدّمهُ لك الا هامان ومردخاي (استير ٧ : ٩) فاذا راجعت قصَّتهما ترى فعل الله غير فعل البشر

ثالثًا ليكن الواعظ ذكيّ القلب واسع العقل في ان يستحضر وهو واعظ جميعَ ما يلزمهُ أَن يقولهُ ويفعلهُ ويتحرّك بهِ في الوعظ اي انهُ يلزمك ان تلاحظ وانت في مِنبر وعظك اشياءَ كثيرةً

توردها من المعاني ومن التشابيه والأمثال والاستعارات المفيدة لك وللسامعين . وأن تلاحظ اشياء أخر تنبه وتوبخ عليها وتضرب على الوجع من ثاقب عقلك وسابق معرفتك بما اطّلعت عليهِ حتى يظنَّ السامعون أنك أُعطِيتَ روح النبوَّة حتى يُقال فيك ما قيل في المسيح هَلُمّوا انظروا رجلًا قال لي كلما صنعت (يوحنا ٤ : ٢٩)

رابعًا يلزمك يا ايها الواعظ ان تحترس من فَلَتات اللسان . ومن تناقض العبارات ومن خَلَل الشَهادات حتى لا تقول بعد انتهائك من وعظك ياليتني قلت هذا ولم أَقُل ذاك . وهذا كلّهُ يساعدك عليهِ اتساع العقل لأن الواعظ الذي ليس فيهِ شهامة بمنزِلة من يركب فرسًا جموحًا ويركض بهِ ما بين الصخور بلا تمييز فهذا لا يخلو من عِثارٍ وسقوط . فالراكب انت والفرس الجموح الوعظ الحارّ والصخور هم السامعون . فان كنت تخاطبهم بغير فِطنةٍ ولا تمييزٍ فانت قريبٌ الى السقوط من عثرات لسانك وتضيع تعبك كلَّهُ وتعود تحت لائمة العُقَلاء وشَماتة الجهلاء ولا سيما الحسَّاد الذين هذا غاية مرادهم . قال الحكيم من ضبط فاهُ صانَ نفسَهُ . ومَنْ فتق شفتَيْهِ فحظُّهُ الدمار (امثال (١٣ : ٣) فاحترس من فَلتات لسانك في وعظك لأن كمال وعظك

متوقّف على هذا كما قال الرسول إن كان أحدٌ لا يزِلّ في الكلام فهو رجل كامل (يعقوب ٣: ٢) فاصلح اذاً كلامك في وعظك لاسيما وقت التوبيخ والزجر. وليكُن ذا ذوقٍ وطَعْم مقبولٍ كقول الرسول ليكن كلامكم ذا لُطْفٍ كلّ حينٍ مصلحًا بملحٍ حتى تعلموا كيف ينبغي لكم أن تُجاوبوا كل انسانٍ اي لتعطوا كل إنسانٍ الدواء الذي يناسبهُ في شِفائهِ. فان كنت يا ايها الواعظ خاليًا من آلة الشهامة فلا تمدّ يدك الى الوعظ فتكون بقلة فطنتك وسفاهة لسانك كالباحث عن حَتفهِ بظِلفهِ والجادع مارنَ انفهِ بكفّهِ. فتندم ح ندامة الكُسَعيّ. فان انت غلطت في جميع آلات الوعظ تخسر خَسارةً واحدةً وهي انحطاط قدرك وقيمتك فقط. واما اذا غلطت في آلة الشهامة فتخسر ثلاثة أشياء. الاوّل انحطاط قدرك بين الناس لعدم فطنتك وسفاهة لسانك. الثاني انثلام ذمّتك لانك فرَّطت في محبة القريب لعدم فطنتك وتدبير وعظك. الثالث عداوة السامعين لأنهم صاروا يعادونك من اجل ما فرَّطت في حقّهم. وليس لك مندوحةٌ تعتذر بها عند الناس. لأنك عندهم بمنزِلة عالمٍ علّامةٍ وما كان اغناها عن الحالين. والفرق بين الشجاعة والشهامة. أن الشجاعة قوة القلب

في الحواسّ الظاهرة والشهامة قوة القلب في الحواسّ الباطنة

تنبيه قد تقرَّر من هذا كلِّهِ أنَّ هذه الآلات ضروريَّة للواعظ جدًّا وبدونها لا يكون واعظا اصلًا . لكن لأجل فائدة الناس ومساعدة القريب في تخليص نفسهِ ولأَجل اتمام مشيئة الله في ذلك لا يمتنع احدٌ عن الوعظ والتعليم ولو نقصتهُ هذه الآلات لأنَّا نجد عند الضرورة مَنْ يستعمل الخياطة والنجارة وهو لا يكون خيَّاطًا ونجَّارًا هكذا الحال هنا . فانهُ يمكن لكل كاهن متزوّجًا كان او غير متزوّج أن يعِظ ويعلّم علانيةً ولو لم يكن حاصلًا على هذه الآلات . وذلك رغبةً في تخليص نفس القريب المطلوب خلاصها عند الله جدًّا . والشاهد لهذا موسى النبي الذي كان ألثغ اللسان وكان واعظًا على الوف من الاسرائيليين (خروج ٤ : ١٠) لأنَّ قوة الله تبين من هذه الجهة أعظمَ فعلًا واعتبارًا لكن اذا كان ذلك الانسان خاليًا من آلة الشجاعة والشهامة فليس لهُ أن يمارس وعظًا وتعليمًا عامًّا اصلًا لئلا يسبب من جبانتهِ وعدم حكمتهِ سَجَسًا في السامعين عظيمًا ويسمع من الشعب ما قالهُ الكتاب المقدس أعنتكَ الربُّ في هذا اليوم لماذا أعنتَّنا (يشوع بن نون ٧ : ٢٥)

الفصل التاسع

في التقليد

أَخصّ الصنائع في التقليد صِناعة الكتابة . فان المعلّم يكتب لتلميذهِ سطرًا ويطلب منه أَن يقلّده في كتابة ذلك السطر وفي طريقة إمساك القلم والقرطاس واما التلميذ فيلزمه اوّلًا ان يتأمل في يد معلمهِ وكيف يمسك القلم ويتلاعب بهِ في كتابة كل حرفٍ وكيف يبتدئ بكتابة هذا وكيف ينتهي في ذاك وكيف يجرّ الآخر . واذا تأمّل التلميذ هذا يضع في عقلهِ . ثانيًا طريقة التقليد لمعلمهِ في كل شيء . تأمّله من حركاتهِ . لأنه بهذا التأمّل وبهذا التقليد يتعلّم التلميذ الكتابة ويأخذ قاعدة معلّمهِ . هذا نفسه جارٍ في تعليم صِناعة الوعظ . وهذا لازمٌ جدًّا ان كنت تريد ان تكون واعظًا مستقيمًا . لأَن الرسول يقول ان كان احدٌ يجاهد فلا ينال الاكليل ما لم يجاهد جهادًا شرعيًّا (٢ تيموثاوس ٢ : ٥) وليست السُنّة هنا الا ان تقلّد الواعظ الماهر لتكتسب منه قاعدةَ الوعظ فاذا اكتسبتها تكون واعظًا ماهرًا على موجب سُنّة الوعظ وقواعدهِ فتصير ح رجل اللهِ كاملًا متأهّبًا لكلّ عملٍ صالح (٢ تيموثاوس ٣ : ١٧) اي فتكون واعظًا لله حقيقيًّا مستعدًا لكلّ

فَنٍّ من فنون الوعظ المفيد . ان الذي يرغب في صِناعة التصوير تراهُ لا يكتفي بما يعرفهُ بل لا يزال مفتّشاً عن أشكال صور مختلفةٍ ليقلد ما كان الأحسن فيها . فتراهُ يأخذ من هذه حركات لَحميتها . ومن الأُخرى تجعيد اثوابها ومن الأُخرى صِناعةً أُخرى لازمةً لهُ في محلّها . وقد تراهُ أَحياناً يأخذ رسماً لصناعتهِ من تقطيع الغيوم ومن رَشّ الماء على الارض او على الحيطــان وما يشاكل ذلك . ومرادهُ بهذا كلهِ زيادة المعرفة في صِناعتهِ . هذا نفسهُ يلزمك يا ايها الواعظ أَن تطلُبهُ وتقلّده ان أَرَدت كمالك في صِناعتك . واياك من ان تكون مكتفياً بذاتك والاتك وتقول كما قال ذاك الغنيّ أَنا غنيٌّ وقد استغنيتُ ولا حاجة لي الى شيء (رويا ٣ : ١٧) فانهُ من هنا يظهر جَهلك وعدم فطنتك وحكمتك وتسمع ح ما قالهُ الله لذاك لستَ تعلم أنك شقيّ و بائِس ومِسكــين وأعمى وعُرْيان (رؤيا ٣ : ١٧) قد ذكر الله خمس صفاتٍ وكلها تحثُّك على ان تطلُب العلم من اهــلهِ ولا تكتفي بذاتك ولاسيما اذا سِمعت ربَّ المجد كان جالساً في وسط العلماء يسمع منهم ويسألهم . فانهُ بهذا يطلُب منــا ان نُصغي الى صوت التعليم ونسأَل عمّا هو الضروريّ لفائدتنا . فاقصِد اذاً حذّاق الواعظين واسألهم واسمع

منهم واعمَل بما يقولونهُ لك . وقلِّدهم في قواعد صِناعتهم . واسمع من الواعظ الحقيقيّ رئيس الواعظين القائل لك أنا أشير عليك أن تشتري مني ذهباً مصفًّى بالنار (رؤيا ٣ : ١٨) اي قواعد وعظ مختصرة مجرَّبة ممتحنة حتى اذا امتلكتها مني بالنظر والسؤَال والتقليد تصير غنيًّا بالوعظ وتلبس قواعدهُ بمنزلة ثيابٍ بيض رونق حسن الصِناعة ولا تظهر خِزيَ عُرْيَ جهلك . وكحِّل عين بصيرتك بذَرُور السؤَال والتقليد لتُبصر حِ دقائق صِناعة الوعظ وحركاتهِ . وهذا المعنى نفسهُ قد تقدَّمنا فذكرناهُ في الفصل السابع من القسم الثاني هنا . وهو ان المتعلّم صِناعة الوعظ يلزمهُ النظر الى مَهارة الواعظين وهم في وعظهم . وأن يسأَلهم ويتعلَّم منهم ما يلزمهُ من هذه الصِناعة ليقلِّدهم فيهِ . وأَخَصّ هذا التعليم وهذا التقليد يكون في آلات الوعظ الظاهرة ليمكن التوصُّل الى تعلّمها من ظهورها للعيان وهي ثلاث :

الأُولى حركات الايدي ونحوها فانهُ يلزمك ان تصنع ما يصنعهُ الصبيُّ في تعلُّم الكِتابة كما تقدمنا فقلنا وهو أنك تتأَمل في حركات ذلك الواعظ الأُستاذ الناظر اليهِ في وعظهِ تأَمُّلاً مليًّا وتنقُش في صَفحة مخيلتك ما رأيتهُ فيهِ ثم قلِّدهُ في ذلك فعلاً

وان امكنك فقلّده وانت وحدك في الخلوات . وأبدِ حركاته واشاراته ولفتاته وجولانه بحيث لا يراك احد ليلا يرتابوا بعقلك لعدم معرفتهم بمرادك . لان هذه من مساعدات التعليم . ان الله بعد ان أرى موسى رسم القبّة في الجبل أمره ان يصنع مثلها بالعمل (خروج ٢٥: ٩) هكذا انت فانك من بعد ان رأيت مثالاً في حركات ذلك الواعظ يلزمك ان تقلّده بالعمل

الثانية حركات الصوت أي تأمل في حركات صوت ذلك الواعظ . وأمعِن النظر في مواقع صوته وطبقاته في مقتضيات مضامين الكلام المختلف الأنحاء إذ لكل موقع كلام صوت يخصّه كما مرّ . واحفظ ما رأيته فيه من صناعة الصوت حفظًا مليًّا لتقلّده فيه ولكن احذر من أن تخرج في صوتك عن مقتضى طبعه الغريزيّ فيك لتقلّد صوتاً آخر طبيعياً فيه وذلك كأنْ يقلّد الرجل صوت المرأة او تقلّد المرأة صوت الرجل كما يقع في تقليد خيال الإزار. فان هذا شيء معيب جدًّا يستسمجه السامعون ويضحكون منه . لان الطائر الخارج عن لغته لحّان . وانما يكفيك أن تقلّده في اماكن مواقع طبقات الصوت لا في مجراه . واما انت فاثبت على مجرى صوتك الطبيعيّ كما عمل يعقوب أبو الآباء . فانه

قلّد اخاهُ عيسو في مَجَسّ يدَيهِ لكن لم يقلّدهُ في صوتهِ . فلهـذا اشتبه الامر على اسحق ابيهما حتى كان يقول ان الصوت صوت يعقوب لكنَّ اليدَين يدَا عيسو (تكوين ٢٧ : ٢٢)

الثالثة حركات عزم الحرارة اي تأمل في مواقع حرارة ذلك الواعظ وسكونهِ . اي اين يحتـدّ واين يلين . وقلّدهُ في ذلك كلّهِ . ان الطبيب همّهُ كلهُ مع المريض المحموم في ان يعرِف أَسباب الحمَّى وعلاماتها ليُعالجها بما يناسبها في درجاتها ودورهـا . فليكن همُّك هكذا في حرارة الوعظ لتعرف منهُ متى يكون دورها وما هي درجاتها لتعالجها بالتقليد . فان هذا التقليد يساعدك مساعدةً كبرى في تعلُّم صِناعة الوعظ ان كنت حريصًا وغيورًا على ذلك وقل مع الرسول وكنت افوقهم غيرةً على سُنن آباءي (غلاطية ١ : ١٤) لكن الذي تقلّدهُ يلزمهُ ان يكون واعظًا حاذقًا متفننًا في صِناعتهِ لانك في هذه الصنـاعة بمنزِلة غصن طريفٍ كيفما عدَّلتهُ يعتدِل جيّدًا كان أَو رديًا . واجتنب الواعظ البعيد في سيرتهِ المعوجّة عن خوف الله كما تقدَّمنا فقلنا حتى لا تمزُج خمر التقليد الممدوح بماء التقليد المنتن كقول النبي صِرفكَ مُزِجَ بماء (اشعيا ١ : ٢٢) فهذا ولو كان ماهرًا في صناعتهِ

لكن سيرتهُ التي تسترقك بالتقليد الذي تسترقهُ منه يضرّ نفسك ويلاشيها كما قال ارميا النبي عيني تُتلف نفسي (مراثي ٣:١٥) اي ان نظرك اليهِ يسلُب منك ذخيرة نفسك فاهرُب منهُ فالعلم بلا عمل كقوسٍ بلا وَتَر

القسم الرابع

في تأليف الوعظ وفيهِ سبعة فصول

الفصل الاول

في تأليف أجزاء الرذيلة

اذا اردت أَن تبنيَ بيتاً يلزم اولاً ان تهيّئ آلة البنيان وتحفِر اساسات البيت ثم تشرع بعد ذلك في البُنان هكذا الحال هنا. فان جميع ما ذكرناهُ من الابتداء الى الآن هو تهيّؤ آلات الوعظ وحفر اساسهِ. ولما اتممنا كل شيء من لوازم هذا البُنيان بنعمة الله وتأييد روح القدس وجب علينا من الآن فصاعداً أَن نبتدئ في بُنْيان بيت الوعظ. لأَن هذا هو نتيجة ما قُلناهُ ورتَّبناهُ شيئاً فشيئاً فمن ثَمَّ كان بُنيان هذا البيت متوقفاً على أَربعة أَشياء الفاعل. وهو الواعظ. والمادّة. وهي تراكيب الوعظ وما ذكرناهُ من الأَقسام والفصول المتقدم ذكرها. والصورة. وهي

نفس الوعظ . والغاية . وهي تخليص النفس المتوقّف خلاصها على استئصال الرذيلة واقتناء الفضيلة كما قال المرنّم جانب الشرّ واصنع الخير (مزمور ٣٣: ١٥) وهذا يتمُّ بالوعظ والتعليم . فاذا فهمنا هذا نقول ان الواعظ اذا ابتدأ في وعظهِ يفتتح كلامهُ بآيةٍ من الكتاب المقدَّس تكون عُنوان موضوع وعظهِ الدالّ عليهِ دلالةً ابتدائيَّةً سواء كان موضوع وعظهِ رذيلةً ام فضيلةً فيبتدئ أوّلًا بالمقدّمة وهي انهُ يأتي الى هذا الموضوع عن بعدٍ حتى ينتهي اليهِ بالنتيجة . لأَنهُ من شرط المقدّمة ان لا تكون نفس التعليم في الموضوع المقصود بل هي كلام يتوصَّل بهِ الواعظ الى موضوع التعليم الذي يقصِدهُ فاذا انتهى اليهِ يعرِّفهُ اوّلًا ويؤيّدهُ بالشواهد والبراهين . ثمَّ يقسِمهُ وينبه على مضمون أَقسامهِ إجمالًا كأَن اقسامهُ فهرس مقالتهِ . فاذا انتهى من ذكر الاقسام وفهرسها يقول ولكن قبل الشروع في ذلك نطلُب التأييد من الروح القدس . ونقدّم والدة الله شفيعةً ونسلّم عليها قائلين : السلام عليكِ الخ . ويجوز لهُ ان يُعرِض عن التصريح بذكر الاقسام مراعاةً للسامعين لئلا يضجروا من الابتداء اذا سمعوا بذكر الاقسام ويجعَل اقسامها في ذاتهِ سرًّا يوردها شيئًا فشيئًا

وليعمل ما يراهُ الانسب ولو كان الاوَّل أولى

تمرين الرسم

المقدمة

في الكبرياء

مِثال ذالك في الكبرياء . قال الرسول ان الله يُقاوم المتكبرين (١ بطرس ٥:٥) ان العداوة تصغُر وتعظم وتخِف وتثقُل وتهون وتصعُب بالنظر الى درجة من تعاديهِ . فانَّ عداوة الحاكم اصعَبُ من عداوة الرعيَّة لسمو درجتهِ . وعداوةَ الملك اعظم من عداوة الحكَّام الذين تحت يدهِ لسموّ سلطانهِ العامّ . واذا كان الله عدوَّنا كنا تحت خطَر انتقامٍ لا يوصَف لسُموّ سلطانهِ تعالى الغير المتناهي . فان قلت ما سبب عداوة الله أجبتَك هو عدم الخضوع لهُ المسبّب من الكبرياء ولهذا قال الرسول ان الله يقاوم المتكبّرين لكون المتكبر لا يزال يضادّ اللهَ بعدم خضوعهِ واتّضاعهِ لهُ المسبَّب عن مخالفته وعِصيانهِ . وهذا هو معنى الكبرياء وتعريفُها . ومن هنا نرى ان الله قد أعدَّ لها عذابًا اليمًا كقولهِ تعالى بمقدار ما تمجَّدت ذاتها وترفت سُمومها عذابًا

ونوحاً (رؤيا ١٨ : ٧) فاذا كان هذا شرّ الكبرياء يلزمنا الآن الكلام فيهِ ونقسمهُ الى ثلاثة اقسام القسم الاول في بيان شرّ الكبرياء . القسم الثاني في أثمار الكبرياء . القسم الثالث في جهل المتكبّر لكن قبل الشروع في ذلك نطلب التأييد من الروح القدس مستشفعين والدة الله ونسلّم عليها مع جبرائيل الملاك قائلين : السلام عليكِ الخ

القسم الاول

في بيان شرّ الكبرياء

قال الحكيم كل مترفع القلب رِجْسٌ عند الرب (امثال ١٦ : ٥) لماذا كان المتكبر نجساً اوّلاً ان الكبرياء لما كانت تبعد الانسان عن الله وتنزع منهُ طهارة التواضع وتجعلهُ لله عدوًّا مضادًّا كانت نجسةً عند الربّ هي ومرتكبها كما قال الحكيم أُتنِج من هنا أَنها بمنزلة بَرَصٍ تفسد النفس وتُعدِمها الخير الابديّ وتورثها عِقابًا ابديًّا . وكما أَن البرص ينجس المتعلق بهِ كما جاء في شريعة موسى (احبار ١٣ : ٤٥) هكذا المتكبر فانهُ نجِسٌ لتعلُّق برص الكبرياء بهِ

ثانيًا ان الكبرياء تحتقر نعمةُ الله وبالنتيجة تحتقر الله ولهذا نرى المتكبر يستسهل فعل الخطيئة أُنتج من هنا انهُ لا يخاف الله فكأنهُ يقول مع فرعون العاتي مَنْ هو الربُّ فأسمع لقولهِ لا أعرِف الرب (خروج ٥: ٢)

ثالثًا ان الكبرياء تصيّرنا عثرةً لغيرنا ومثالًا شرّيرًا. ويُهان بسببنا اسم إلهنا وإيمانهُ المقدس كما قال الرسول مستشهدًا ان اسم الله يجدّف عليهِ في الأمم بسببكم (رومية ٢: ٤) أُنتِج من هنا انهُ لا أشرّ من المتكبر المفتري على الله وعلى ايمانهِ بكبريائهِ. ولهذا كان مترفّع القلب نجِسًا عند الربّ لأنّ نجاستهُ تدُلّنا على نَجاسةِ أثمارهِ * وهذا هو القسم الثاني

القسم الثاني

في أثمار الكبرياء

ان الكبرياء تثمر في النفس اوّلًا زوال شرفها وكرامتها كما أزالت شرف اليهود وكرامة المبتدعين المشاقّين هكذا قال النبي بنو صهيون الكرام الموزونون بالإبريز كيف حُسبوا آنيةً من خزَفٍ (مراثي ٤: ٢) فكما ان الخزف سريع العطب هكذا

صارت النفس بكبريائها مكسرًا للعالم والشيطان والجسد أُنتج من هنا ان المتكبر ينطفئ منهُ نور النعمة حتى يعود يرى الشرّ خيرًا والخير شرًّا والظلمة نورًا والنور ظلمةً والمرّ حلوًا والحلو مرًّا (اشعيا ٥ : ٢٠)

ثانيًا فاذا اظلم عقل الانسان صار يكذّب شرائع الله بعملهِ ونفاقهِ ويزدري بقدّيسيهِ . وهذا هو معنى قول السيّد من ثمارهم تعرفونهم (متى ٧ : ١٦) مجدّفين منافقين مفترين على الله وقديسيهِ

ثالثًا ينتج للمتكبرين من هنا عدم الحسّ فيصيرون في قبضة إبليس حياتهم كلها فيموتون بغير توبةٍ هكذا قال النبيّ من أجل أن قلبهُ ارتفع في علوهِ اسلمتهُ بيد أشد الأُمم ليصنع معهُ حسب نفاقهِ (حزقيال ٣١ : ١٠) فمن اين نرى كثرة الهالكين الَّا من هذا . انتج من هنا ان المتكبر يرضى بهذا الشرّ الاعظم لأَنهُ لا يريد ان تستضيءَ بصيرتهُ بنور التواضع لينجو من ظلام الكبرياء لكون ظلام الجهل استولى عليهِ بالكلية * وهذا هو القسم الثالث

القسم الثالث

في جهل المتكبر

ان الكبرياء تسوق الانسان الى جهلٍ فاضحٍ اولًا تجعله راضياً بفقر ذاتهِ من نعمة الله الضروريَّة في خلاصهِ وانهُ راضٍ بمرض نفسهِ الذي يسوقهُ الى الهلاك الابدي كقول الحكيم حيثما دخل التجبُّر دخل الهوان (امثال ١١:٢) انتج منهُ ان الجهل يسبّب الهوان الابدي

ثانيًا ما اكثر الكفَّار والمبتدعين الذين تابوا من اول نصيحة. وما اكثر البهائم التي غيَّرت خصالها الرديَّة بالتهذيب. والمسيحي المتكبر ثابت الى الآن على شرّ كبريائهِ. أنتج من هنا أن ليس المانع الا بُرقع الجهل الممدود على بصيرتهِ. فلا يدعهُ يرى الحق ليهتدي فكأنهُ من قوم موسى الغلاظ الرقاب الذين كانوا يسمعون الناموس ولا يفهمونهُ هكذا يقول الرسول حتى انهُ الى اليوم اذا قُرئ موسى فالبرقع موضوع على قلوبهم (٢ كورنتس ٣:١٥)

ثالثًا فلهذا كان جهلك غير معذورٍ لأنك بنعمة الله قادرٌ على الخلاص ان أردت لأن لك أسبابًا كثيرة تسهِّل لك الخلاص

الذي انت ملتزمٌ بهِ اذا طرحت مانع الكبرياء وجهلها . هكذا قال يسوع للفريسيين لو كنتم عُمياناً لما كانت لكم خطيئةٌ . والآن انتم تقولون انَّكم تُبصرون فمن اجل هذا خطيئتكم ثابتةٌ (يوحنا ٩ : ٤١) انتج من هنا أنك لا تريد فلهذا لا تخلُص . فاهرُب يا اخي من شرّ الكبرياء التي تمنعك عن الخلاص ملتجياً تحت ستر التواضع الذي يخلّصك اولاً بواسطة تأملك في تواضع يسوع والقديسين . ثانياً تأمّل شقاوة ذاتك الصادرة من شرّ الكبرياء ثالثاً تذكر الموت الذي لامحيص لك عنهُ فهو يريك ان كل مترفع القلب نجِسٌ عند الربّ

الفصل الثاني

في تأليف اجزاء الفضيلة

تمرين الرسم

المقدمة

في التواضع

قال السيّد المسيح تعلموا مني اني وديع ومتواضع القلب (متى ١١ : ٢٩) ان الذي يرغب في علم من العلوم لا يكف عن مطالعة كتب ذلك العلم ولا عن الدخول الى مدارسهِ ومعاشرة اهلهِ

لكي يكون متمكناً في ذلك الفنّ . واذا بلغهُ خبر احد انهُ متعمّق فيهِ جدًّا يقصِدهُ دون غيرهِ ويتتلمذ لهُ خاصّةً . ويبالغ في خدمة ذلك العالم وطاعتهِ ليستفيد منهُ ذلك العلم . وبمقدار عِظم قدر ذلك العالم ونفع ذلك العلم يكون مقدار اجتهاد ذلك التلميذ على خِدْمة ذلك العالم والتماس ذلك العلم . فاذا كان هذا استحقاق العلوم الأَرضية فما ظنُّك بالعلوم السماوية . وان كان هذا اعتبار العلماء الأَرضيّين فما ظنُّك بالعلماء السماويّين . فان قلت ما هذا العلم ومَنْ هذا العالم اجبتك يسوع ابن الله القائل تعلَّموا مني انّي وديعٌ ومتواضع القلب . فعلمهُ اذًا هذا التواضع السماويّ . فتعالَ الى مدرسة يسوع وتعلَّم منهُ حكمة التواضع الذي هو مجموع كل حكمة كقول الحكيم ومع المتواضعين الحكمة (امثال ١١ : ٢) لأَن التواضع ليس هو الّا التشبُّه بسيرة يسوع الذي بهِ خلَصنا فكما ان يسوع لم يخلّصنا الا بالتواضع كذلك نحن تلاميذهُ لا نخلص الا بالتواضع . ولهذا يقول تعلموا مني الخ فان كان التواضع الى هذا الحدّ ضروريًا لنا فقد وجب الآن علينا ان نتكلم فيهِ وهو موضوع كلامنا . ونقسِمهُ الى ثلاثة أقسام . القسم الاول في التزامنا باقتناء الاتّضاع . القسم الثاني في ضرورة الاتّضاع .

القسم الثالث في ان الكمال يقتضي اقتناء الاتّضاع لكن قبل الشروع في ذلك نطلب التأييد من الروح القدس مستشفعين مريم العذراء والدة الاله ونسلّم عليها مع جبرائيل الملاك قائلين : السلام عليك يا مريم الخ

القسم الاول

في التزامنا باقتناء الاتّضاع

قال المرنّم القلب المنكسر المنسحق لا ترذلهُ يا الله (مزمور ٥٠ : ١٩) كما ان الكبرياء ينبوع كل رذيلةٍ على ما قال الحكيم (ابن سيراخ ١٠ : ١٥) كذلك التواضع فانهُ اصل كل فضيلة على ما قال القدّيسون . فمن هنا كنا ملتزمين باقتناء الاتّضاع

اوّلًا لأَن الله يطلبُها منا بقولهِ ان لم ترجعوا وتصيروا مثل الصبيان لن تدخلوا ملكوت السماوات (متى ١٨ : ٣) ولهذا اعطانا اسبابًا كثيرة في اقتنائها وأيّدنا بروحهِ القدُّوس حتى اذا امتلكناها يهبنا خير المتواضعين

ثانيًا ان كنت قد اقتنيت التواضع فاحرص عليهِ فان أَضعتهُ بكبريائك كنت قد أَهنت يسوع الذي اقناك هذه

الفضيلة بسفك دمهِ كقول النبي وبشَدْخهِ شُفِينا (اشعيا ٥٣: ٥) اي من كبريائنا

ثالثًا يلزمنا اقتناء التواضع لأنا بهِ نقتني كل فضيلةٍ ونقهر الكبرياء التي هي اس كل رذيلةٍ وبهِ نتشرَّف بالشرف الذي حازهُ المتواضعون فلم نُرذَل لان القلب المنكسر المنسحق لا يرذلهُ الله . انتج من هنا ان المسيحي ملتزم باقتناء الاتضاع لانهُ ضروريٌّ لخلاصهِ * وهذا هو القسم الثاني

القسم الثاني

في ضَرُورة اقتناء التواضع

ان اقتناء التواضع ضروريٌّ لنا جدًّا لانَّا بهِ نقتني غيرهُ من الفضائل التي بها نُشبه القدّيسين . لكونك ترى المتضع ممدوحًا من الله ومن الجميع كقول مريم العذراء لانهُ نظر الى تواضع امتهِ فها منذُ الآن تطوّبني جميع الأجيال (لوقا ١: ٤٨)

ثانيًا لأَن التواضع فضيلة تهوّن علينا اتعابنا وتريحنا من تكاليف كثيرة وتخفف أثقال النفس والجسد فنجد عند الموت أمنًا وافرًا . وهذا كلهُ انما نقتنيهِ بحكمة الاتضاع كقول الحكيم

مع المتواضعين الحكمة فكيف لا يكون التواضع ضروريًا لنا وهذه فائدته

ثالثًا لأَن التواضع لما كان مُرضيًا لله وللملئكة والبشر كان اقتناؤهُ ضروريًا لنا لأَننا ملتزمون بارضاء الله ضرورةً . ومن يرضي الله لا يرذُلهُ الله هكذا قال المرنّم القلب المنكسر المنسحق لا يرذلهُ الله أَنتج من هنا اذا اردت ان تكون كاملًا مثل ابيك السماويّ الكامل فاقتنِ الاتضاع * وهذا هو القسم الثالث

القسم الثالث

في أَن الكمال يقتضي اقتناء الاتضاع

اوّلًا ان الخلائق الحسَّاسة وغير الحسَّاسة تقتضي الكمال في طبعها فكم بالحري يلزم الانسان الذي هو اعقلها أَن يكون كاملًا في طبعهِ . فمن هنا كان اقتناء الاتّضاع يلزمنا لنكون كاملين . فان كانت الحكمة كما يقول الحكيم فتحت افواه البُكم وجعلت أَلسنة الاطفال تُفصح (حكمة ١٠ : ٢١) فكم بالحري تفعلهُ الفضيلة اذا كنا بها كاملين

ثانيًا ان كان الكفار قد تهذَّبوا بنور العقل والبهائم تروَّضت

بالتعليم والتمرين فكم اولى بك يا ايها المسيحي ان تكون كاملًا باقتناء الفضيلة بواسطة نور العقل والايمان معًا وانت موتلف في ذلك كما قال الرسول انني أعرف ان أتَّضع واعرف ان أرغد فاني مدرَّب في كلّ مكان وكلّ شيءٍ واني استطيع كلَّ شيءٍ في الذي يقوّيني (فيلبي ٤: ١٢-١٣) اي بتأييد الايمان بيسوع المسيح

ثالثًا ان كنا نكُدّ ونتعب ونخاطر في تحصيل امور باطلة لنكون فيها كاملين فما لنا لا نجاهد في اقتناء التواضع لنكمل بهِ مع ان ثمرتهُ حياةٌ أبديَّة . أنتج من هنا ان كنا نُجدّ على إكمال نقص الجسد يلزمنا أن نجدّ اكثر على إكمال نقص الروح . فانت اذًا ملتزم باقتناء التواضع بهذه الوسائط الثلاث . الأُولى سيرة يسوع والقديسين . الثانية تعليم يسوع والقديسين . الثالثة قهر الذات وإماتة النفس فاستند الى هذه الدعائم الثلاث تصِرْ كاملًا . هكذا قالت الحكمة الالهية مَن هذه الطالعة من القفر المستندة على حبيبها (نشيد ٨: ٥) اصعَد من قفر كبريائك مستندًا على هذه الثلاث فتقتني كمال الاتضاع فيقبلك يسوع حبيبك لان القلب المتخشع المتواضع لا يرذلهُ الله



اعلم اني وضعت لك هذين الرسمين وضعاً مختصراً في تأليف الوعظ بمنزلة دُستور تَرسُم على شَكْلهِ أشكال صورة وعظك في كل موضوع تَقصِده ُوتوسَّع فيهِ حسب مكنتك ولك أَن تقدّم وتؤخّر . وتزيد وتنقُص وتبدِل شيئاً من شيء حَسَبَ جولانك واتّساع قريحتك في هذه الصِناعة . ان العَرُوضيّين وضعوا للشعر موازين تَزِن بها الشعراء اشعارهم بمقتضى رأيهم وفهمهم . هكذا زِنْ انت بميزان هذا الدستور ما تنظِمه ُ من المواعظ بمقتضى رأيك وفَهمك

الفصل الثالث

في طريقة أُخرى في تأليف الوعظ

توجد طريقة أُخرى مختصرة في تأليف الوعظ وهي اذا شئتَ أَن تُنشئَ مثلًا وعظًا في فضيلةٍ او رذيلةٍ أَو في عيبٍ ما فاجعَل بَراعة الاستهلال آيةً من الكتاب المقدّس مناسبةً لموضوعك ثمَّ ابتدئ في ذمّ الرذيلة وامدَح الفضيلة وأَثبتها بالشواهد والبراهين . ثمّ خُذْ في تقسيم ذلك الموضوع الذي انت فيهِ واشرَع اوَّلًا في تعريف الفضيلة او الرذيلة وبيّنها بعلاماتها وأَثبِت ذلك كلَّه ُ بالشواهد ولا تخرُج حتى تكون قد

اسَّسته في عقول السامعين وفهموه فَهْمًا جيّدًا . ثانيًا أورد أَسبابًا وادلّةً مقنعةً في طلب تلك الفضيلة او تجنُّب تلك الرذيلة بالشواهد والبراهين ووبّخ هنا توبيخًا ملائمًا في ذلك لتتحرَّك قلوب السامعين اليهِ لأَن هذا هو الضروريّ لنا . ثالثًا أورد الوسائط الموصلة الى امتلاك الفضيلة او الأَدوية المانعة حصول الرذيلة حَسَبما يقتضيهِ الترتيب الطبيعيُّ لانك اذا أَدركت معرِفة الداء بأَسبابهِ وعلاماتهِ لزِمك بعد ذلك أن تقدّم الدواءَ المناسب في علاجهِ لشفائهِ . وهذه طريقة سَهْلة في الوعظ جدًّا ممكنةٌ لكل احد وأَكثر الواعظين اليوم مكبُّون على استعمالها في الاماكن التي لا تُعتبَر ولاسيما في زمان الرسالة

الفصل الرابع

في طريقةٍ أُخرى في تأليف الوعظ على ترتيب الصلاة العقلية

ان غاية الوعظ والصلاة العقلية واحدةٌ وهي استئصال الرذيلة واقتناء الفضيلة كما قُلنا في آخر الفصل الثاني من القسم التاسع . فاذا أَرَدت ترتيب موعظتك على ترتيب الصلاة العقلية فابنِ المقدّمة فيها على هذه الأَركان الاربعة اللازمة لهذا الترتيب الركن الاوّل العِلّة الفاعلية . الركن الثاني العِلّة المادّية . الركن

الثالث العِلَّة الصوريَّة . الركن الرابع العِلَّة الغائِية ثم اختم الغاية بالنتيجة التي تبني عليها كلامك . مثال ذلك في الكبرياء العلَّة الفاعلية هي القوّة الغضبيَّة المحرّكة في الانسان باختيارهِ نحو التسامي والتظاهر . العلَّة المادّية هي شهوة الارتفاع والتشامخ بالاشياء العقليّة كالعلم والفضل او بالاشياء الحسية كالقُدْرة والغنى والجاه . العلَّة الصورية هي ابراز هذه الشهوة الى الفعل بحركات عقليةٍ متحرّكة بحركات حِسّيةٍ . العلَّة الغائية هي التشامخ على الغير فيكون المتكبّر في وهمهِ أنهُ الاعلى وغيرهُ الأَدنى ويلزمك ان توضح ايضاحًا مختصرًا معاني هذه العلل الأَربع في أقسام التأمّل الثلاثة التي هي الاعتبار والعاطفة والقصد . وللاعتبار ثلاثة اركان الاول ايضاح شرّ الكبرياء وبيان حالاتها ومضرّاتها وبيان أَسبابها وعلاماتها وما يتفرّع منها . الثاني ان تُري السامعين حقائق ما أوضحتهُ لهم من شرّ الكبرياء واسألهم عن تصرّفهم بها وأجِب عما تسألهم عنهُ . الثالث أَن توّبخ السامعين لأَنهم تصرَّفوا بالكبرياء وأَثبِت ذلك كلّهُ بالشواهد والبراهين والامثلة ووبّخ عنهُ توبيخًا ملائمًا . والعاطفة تحريك قلوب السامعين نحو بغض الكبرياء وحبّ التواضع نظرًا

الى مضرَّة تلك وفائدة هذه فهي اذًا بمنزلة النتيجة من الاعتبار. والقصد حثُّ السامعين أَن يثبُتوا على ما قصَدوهُ من الغاية التي اقتنوها من الاعتبار والعاطفة . وان يقصِدوا السلوك في طريق اكتساب التواضع ورذل الكبرياء . واجعل الخاتمة الدواء المناسب لذلك وأَثبِت هذه كلَّها بالشَواهد والبراهين والأَمثلة

الفصل الخامس

في طريقة أُخرى في تأليف الوعظ في عيد أَحد القديسين

اجعل براعة الاستهلال آيةً من الكتاب المقدس تناسب الفضيلة التي تريد ان تخُصّها بذلك القديس . ثم اذكر اولًا سيرتهُ باختصار وأَدرج فيها مديحهُ . واجعل فضيلتهُ نتيجة وعظك . وهذه هي المقدّمة ثم صِفْهُ بعد انتهائك من المقدمة بهذه الاوصاف الثلاثة الاول اعترافهُ بالحق الذي اعترفَ بهِ الآباء والانبياء والرسل والشهداء والمعترفون وأورد هنا الدلائل لذلك واسّس هذا الاعتراف على فضيلة ذلك القديس الذي خصَّصتهُ بها وأَنتج من هنا توبيخ السامعين . لأَنهم لم يقتدوا بهِ . الثاني الغَيرة اي صف غيرة ذلك القديس من فضيلتهِ وحثَّ السامعين على مثل هذه الغيرة . الثالث الشجاعة اي بيّن شجاعة ذلك

القديس من فضيلتهِ واقرِنها بجبانةِ السامعين وحرّك قلوبهم نحو الشجاعة ليقتنوا تلك الفضيلة بواسطة الشواهد والبراهين والأمثلة ثمَّ صف لهم الدواء المناسب في اقتناء تلك الفضيلة . واذا كان الوعظ في سرّ من أَسرار التجسد . فاجعل براعة الاستهلال نصّ كلام ذلك السرّ واذكُر في المقدّمة ثلاثة اشياء الاوّل محبة الله لنا في ذلك السرّ . الثاني ضرورة وجود ذلك السرّ . الثالث فعل الله في ذلك السرّ من أَجل خلاصنا . ثمَّ أنتج فضيلةً مناسبةً لهُ وابنِ أقسام وعظك على تلك الفضيلة ورتبها الترتيب المقدّم ذكرهُ . وان امكنك فابنِ الموعظة كلَّها على معنى ذلك السرّ او على مدح ذلك القديس وضمّن فيها معاني الفضيلة او الرذيلة التي قصدت بيانها وهذه طريقةٌ حسنةٌ جدًّا وهي اكمل الطرق الا أَنها شاقَّةٌ في التأليف والخطاب وَعْرة الفهم عند السامعين وتحتاج الى زيادة ايضاح و بيان وتكلف في صناعة الوعظ

تنبيه يلزمك في تأليف وعظك على أَيّ أسلوب أَردتهُ أَن تراعي براعة الاستهلال وبراعة التخلُّص وبراعة الختام كما مرّ معنا ذكرُهُ واثبت كل ما توردهُ بالشواهد والبراهين والأَمثال




الفصل السادس
في ظروف الحدوث

اعلم أن ظروف الحدوث ستةٌ وهي مَنْ ومتى وأينَ وماذا ولماذا وكيفَ وسُمّيت ظروفاً لأنها تتضمَّن كل حادث يحدُث من فكرٍ وقولٍ وفعلٍ في كل مكان وزمان فلا يخلو عنها شيءٌ ما اصلًا . ولهذا كانت تساعد الواعظ مساعدةً كبرى في وعظهِ . اذا ضمَّن منها كلًّا أو بعضاً في كلامهِ وتطبع المعاني في عقول السامعين طبعاً موءثّراً . وا كثر ما يستعملها حذّاق الواعظين . ولها الرتبة الثانية من الشواهد والدلائل لانها تعصِم ذهن الواعظ من الغلط ومخيّلتهُ من النسيان ولا يشرُد عنهُ شيء اذا كان منتبهاً اليها . مثال ذلك في الكبرياء مَن المتكبّر . انسانٌ ضعيف مخلوق من التراب . متى يتكبر حين يعتدُّ بقوّتهِ او بعقلهِ او بغناهُ او بآلاتهِ . ومـا شاكل ذلك . ولهذا يفضل ذاتهُ على غيرهِ . أين يتكبَّر في هذا العالم الناقص المملوء ذُلًّا ونقصاً ومشقاتٍ حيث فيهِ كلما يضادّ المتكبرين . بماذا يتكبر . بالضعف والنقص اللذين هما في كل ما يفعَلهُ ويظنُّهُ كمالًا في ذاتهِ . لماذا يتكبَّر ليمجّد ذاتهُ اذ يرفعها على مَن هو أعلى منهُ او على من هو

مساويهِ او على من هو دونهُ . كيف يتكبَّر يحتقر الله ويذُل وصاياهُ فيخطأ ويحقر القريب فيترفَّع عليهِ فيهينهُ . وقِس على هذا المثال استعمال كلّ فضيلة ورذيلة توردها في وعظك . ولك أن تقدّم وتؤَخر فيها . وان تستعمل بعضًا وتترك بعضًا وترد في كل مكان تريدهُ من الموعظة وأَخصّهُ مكان التوبيخ . ولك أن تضع لفظة ما موضع لفظة مَن في الاشياء الغير العاقلة نحو ما الفرس وما أورشليم وفي الاشياء المعنويَّة مثل ما الكبرياء وما الاتضاع لأَن مَن تختصُّ بمن يعقِل وما بما لا يعقِل غالبًا

الفصل السابع
في الدلائل الطبيعية

ان المعلّم شيشرون إمام أيمّة الفَصاحة عند اللَّاتينيين قسم الدلائل الطبيعية الى ستة عشر نوعًا فقال الاول الحدّ وهو ما يبيّن حقيقة الشيء ويميّزهُ عن غيرهِ كالموت مثلًا فانهُ سلب الحياة والاشياء الموجودة . الثاني الكلام الجامع وهو اطلاق ما يلزم النوع على افرادهِ . كقولك ان كان الانسان يموت فانتَ تموت . الثالث المشاكل وهي اطلاق المشتقّ منهُ على المشتقّ كقولك ان كنت ابن آدم المائت فلا بدَّ لك من الموت . الرابع

التشبيه وهو اطلاق ما يخص الشبه على المشبّه بهِ كقولك ان اصحابك قد ماتوا وانت تموت مثلهم . الخامس الجنس وهو اطلاق ما يخصّ الجنس على بعض انواعهِ كقولك ان الانسان ميتٌ طبعًا حين خطئ لانهُ مركَّب ولا بد لكلّ مركّب من التلاشي . السادس النوع وهو كلما يصدُق على النوع يصدُق على أفرادهِ كقولك انك من نوع البشر والبشر تراب فانت اذًا ترابٌ مثل نوعك . السابع مراعاة النظير وهو ما يصحّ في شيء يصحّ في شيء آخر بالمناسبة كقولك اذا رأيت غيرك يموت وهو يستغيث فاستغث أَنت من قبل أَن يوافيك الموت. الثامن المقابلة وهي الاختلاف الواقع في المقابلات التي ينافي بعضها بعضًا كالفرق بين موت الصالحين والطالحين . التاسع التضادّ وهو أَن ينافي الشيء ضدّهُ كالخاطئ الذي تحاربهُ عند موتهِ جهنم وشقاوتها . ويضادّهُ تركهُ قنيتهُ وأنسباءَهُ . العاشر الظروف وهي المكان والزمان والنوع والهيئة كتذكر الانسان عند موتهِ وطنهُ وعمرهُ ومبداهُ ومنتهاهُ . واين يكون بعد الموت . الحادي عشر الاطّراد المتقدم وهو اتباع السابق باللاحق قبلًا كتذكر الانسان الملوك والجبابرة الذين ماتوا قبلهُ واحدًا بعد آخر . الثاني عشر

الاطّراد المتأَخر وهو اتباع اللاحق بالسابق كتذكر الانسان الذين يموتون من بعدهِ قرنًا بعد قرنٍ . الثالث عشر المساواة وهي المساواة بين المتخالفين بالطبع كقولك ان البشر والبهائم متساوون بالموت وكلهم الى تراب الارض يرجعون . الرابع عشر الاتباع وهو وجود العلَّة عند وجود المعلول كالانسان الذي لما خالف الوصية حكم عليهِ بالموت . الخامس عشر التوليد وهو حصول العِلَّة من المعلول كحصول الموت من المخالفة . السادس عشر المذهب الكلامي وهو مناسبة الاكبر للاصغر والجزء لمثلهِ كقولك ان كان قد مات الأَنبياء والرسل والقدّيسون حتى المسيح فَمَنْ أَنت حتى لا تموت . وهكذا اصنع في كل موضوع تريدهُ اذا كان مناسبًا لوعظك . ولك ان تقدّم وتؤَخّر في هذه الانواع على اقتضاء الحال وان تختار منها بعضًا وتترك بعضًا وان تأْخذ منها ما يناسب وعظك

تنبيهٌ يلزمك في ترتيب الدلائل ان تضع الدليل القوي اولًا ثم الضعيف ثم الاقوى فقل مثلًا مات الآباء والانبياء والرسل . مات الملوك والأُمراء والاغنياء . وما لي اقول فلانًا وفلانًا ها هوذا المسيح كلمة الله المتجسد نفسهُ قد مات . وقُل ايضًا ان

الخطيئة اهلكت القياصرة والملوك والجبابرة . وما لي اذكر مثل هؤلاء وزناها اسقطت الملئكة من السماء

الخاتمة

في كيفية سماع الوعظ

ان السيّد لهُ المجد مثّل لنا سَماع الوعظ المقدَّس بمثل الزارع وبيّنهُ لنا في أربعة أنواع . فقال انَّ منهُ ما وقع في الطريق فوطئ ومنهُ ما وقع على الصخر فيبس . ومنهُ ما وقع بين الشوك فاختنق ومنهُ ما وقع في الارض الجيّدة فأثمر (لوقا ٨: ٥) فهذه انواع سامعي الوعظ . ومنهُ فهِمنا ان السامعين كثيرون لكن المستفيدين قليلون . والفرق بينهما كالفرق بين المدعوّين والمنتخبين . وقد فسَّر لنا السيّد معاني هذه الانواع الاربعة . النوعِ الاوَّل ما وقع في الطريق فديس يشير بهذا الى الذين يسمَعون الوعظ بقلوب فاترةٍ يتشاغلون بالأَحاديث او بالافكار الدنيوية وقوم منهم يقفون متضجرين وآخرون يتناعسون بل ينامون ويستغرقون في نوم ثقيل فترى قلوبهم معبرًا لكل آفةٍ فيأتي ابليس فينزَع كلمة الوعظ من قلوبهم ويدوسها . وقد كان

فيها كفاية لتخليصهم لو أصغوا اليها قال القديس اغوستينوس ان كلمة الله بمنزلة الصِنَّارة تصطاد من يصطادها . هكذا انت فاذا اصطدت كلمة الله تصطادك الكلمة من لُجَّة خطاياك ولهذا ينصَحنا الرسول قائلًا : كونوا عاملين بالكلمة لا سامعين لها فقط (يعقوب ١ : ٢٢) لانهُ ما الفائدة من سَماع الوعظ بغير حفظ ولا عمل . وقد قال الرسول ليس السامعون للناموس هم ابرارٌ عند الله بل العاملون بالناموس هم يُبرَّرون (رومية ٢ : ١٣)

النوع الثاني ما وقع على الصخرة فيبس يشير بهذا الى الذين يسمعون الوعظ بقلوب قاسية متصلبة لا تشعر بمعاني الكلام كأَنها صخر عديم الحس والتأْثير لانهم يقفون في الوعظ متفرجين على الواعظ هل يأتي بمعانٍ رفيعة واخبار غريبة . وهل هو صاحب صِناعةٍ وبَراعةٍ في وعظهِ او لا فمثل هؤُلاء لا يؤَثّر الوعظ في نفوسهم ولا يتأَصل فيهم لكونك تراهم بعد سَماعهم الوعظ يعودون الى ما كانوا عليهِ من العوائد الرديئة والأَعمال السيّئة بسببٍ وبغير سببٍ لعدم ذوقهم كلام الله الذي لم يستقر فيهم ولو قليلًا . قال القديس غريغوريوس الكبير ان المِعدة التي تقذِف المآكل تكون مريضةً وصاحبها مشرف على التلف .

هكذا الذي يسمَع الوعظ ولا يثبُت في عقلهِ ونفسهِ . فانهُ يدُلّنا على مرض نفسهِ المهلك لأَنهُ لا يصنع بما قالهُ المرنّم في قلبي صُنتُ أَقوالك لكي لا أَخطأَ اليك (مزمور ١١٨ : ١١) لان القلب اذا كان صخريّاً لا يثبُت فيهِ زرع التعليم المقدّس

النوع الثالث ما وقع بين الشوك فاختنق يشير بهذا الى الذين يسمعون الوعظ بقلوب حشوها شوك الاهتمام الباطل والهواجس الشَهْوانية الدنِسة فيكون جِسم في الوعظ وعقلٌ في البيت والحانوت . جسم في الوعظ وفكرٌ في الأَحباب والاصحاب جسمٌ في الوعظ وقلبٌ متبول في العِشق والهوى . فلهذا يخنُقون كلام الله في مثل هذه الاشواك فلا يأتون بثمرةٍ . وما اكثر مثل هؤلاء السامعين تظنُّهم من الخارج حُمْلانًا وديعةً وهم من داخل ذئابٌ خاطفة . من خارج مسيحيّون ومن داخل وثنيّون . من خارجٍ في البيعة ومن داخل في المسكِرات وعلى الموائد ما بين عشراء سُفَهاء . تراهم يميلون طبعاً نحو الباطل ويكرهون بل يشمئزون من كلام الله ولهذا يقول السيّد لمثل هؤلاء مَن كان من الله يسمَع أَقوال الله ولهذا انتم لستم تسمَعون لأَنكم لستم من الله (يوحنا ٨ : ٤٧) فليتنبه الى هذا المعنى سامعو الوعظ ليعرِفوا

أمؤمنون هم أم كافرون . ان هذه العلامات حدٌّ جامعٌ مانعٌ وخاصة هذا الحد الجوع الى سماع كلام الله . والَّا فلست بمؤمن لانك لستَ بجائع . قال القديس يوحنا الذهبي الفم كما أَن الجوع والرَّغبة في المآكل دليلٌ على صِحَّة المزاج وخلافهُ دليلٌ على مرض الجسم كذا الجوع الى كلام الله دليـلٌ على صحَّة النفس . فهى اذًا من الله وخلافهُ دليل على مرض النفس فهي اذًا ليست من الله . النوع الرابع ما وقع في الارض الجيدة فاثمر يشير بهذا الى الذين يسمعون الوعظ بقلوب جيّدةٍ ونيَّةٍ مستقيمةٍ ورغبةٍ متَّصلةٍ حيث يخاطبون الوعظ المقدس قائلين مع الحكمة الالهية اجذِبني وراءَك فنجري الى نسيم طيبك (نشيد ١ : ٣) اي يا ايها الوعظ المركَّب من طِيب كلام الله الذكيّ برائحة الخلاص استملني اليك . فاذا اردت ان تكون في سَماعك الوعظ من حزب هؤلاء الأَتقياء يلزمك قبل سَماع الوعظ ثلاثة شروط احدها ان تنسى أَشغالك وتعلّقاتك كلَّها واحسُب انك قائِم مع موسى في سينـاء تسمع كلام الله ووصاياهُ وناموسهُ . وقل مع الرسول انسى ما وراءِي وامتدّ الى ما أَمامي (فيلبي ٣ : ١٣) اي ضع العالم وراءَك وتوجَّه نحو سماع الوعظ كلام الله برَغبةٍ كليَّــةٍ غير ملتفتٍ الى احد

متذكرًا امرأة لوط التي لما التفتت الى وراءها صارت عمود ملح (تكوين ١٩: ٢٦) بل حاضرٌ نحو الغرض الى اكليل دعوة الله العلويَّة بيسوع المسيح التي تسمعها من فم الواعظ . والثاني أن تضَع على الواعظ صورة المسيح . فكأَنهُ يخاطبك مع تلاميذهِ بألفاظٍ الهيّةٍ لا بشريّةٍ كقول الرسول ان الانجيل الذي بُشّر بهِ على يدي ليس بحسَب الانسان لاني لم أتسلَّمهُ أو أتعلَّمهُ من انسانٍ . بل بوحي يسوع المسيح (غلاطية ١: ١١) . الثالث أن تطلُب من الروح القدس نعمةً وانارةً علويةً تفهمك ما تسمعهُ كي تحفَظهُ . الثاني يلزمك حال سماعك الوعظ ثلاثة شروطٍ ايضًا الاوّل أن تُصغي بعقلك وفهمك الى ما يقولهُ الواعظ بنيَّة طاب الفائدة فكأنك مريضٌ وانت تُصغي الى الطبيب فيما يصِفهُ لك من الدواء لتشفى من دائك كما أَصغت اليهود الى وعظ بطرس هامة الرسل كما يقول الكتاب المقدَّس فلما سمِعوا هذه الأَقاويل نُخسوا في قلوبهم وقالوا لبطرس ولسائر الحَواريّين ماذا نصنعَ (اعمال ٢: ٣٧) فقُل انت هكذا وقلبك يخفِق من حقائق ما سمعتهُ ماذا أَصنع لأَخلُص . لأَن حقائق كلام الله اذا فُهِمت وأثّرت معانيها في العقل تحرّك قلوب الخاطِئين الى التوبة

وتحرقها بالندامة . هكذا قال التلميذان المنطلقان الى عمواس وتراءى لهما المسيح في الطريق وكان يخاطبهما في شأنهِ . فلما توارى عنهما تنبها اليهِ وقالا ألم تكن قلوبنا مضطرمةً فينا (لوقا ٢٤ : ٣٢) هكذا فسّر القديس ايرونيموس هذه الآية . الثاني أن تكون راغبًا مشتاقًا الى سَماع كلام الله كأنك جائع وقد أقبلت الى مائدةٍ حافلةٍ بالمآكل اللذيذة فلا يلهيك شيء عن سماع الوعظ كما لا يلهيك شيء عن تناول القوت واختلط بالجموع التي تركت ضروريات معاشها وخرجت الى البرية لسماع وعظ يسوع (مرقس ٦ : ٣٥) . الثالث ان تنسُب الى ذاتك كلما يقولهُ الواعظ ويوبّخ عنهُ واحسَب انك انت الخاطئ وحدك بين السامعين واليك يشير الواعظ في كلما يقولهُ . واياك ان تنسُب الى أحدٍ شيئًا ممَّا تسمعهُ فكُن اذًا في الوعظ سامعًا مستفيدًا لا قاضيًا مقسّمًا هذا لفلان وهذا لفلانة . الثالث يلزمك بعد سَماعك الوعظ ثلاثة شروطٍ أُخرى الاوّل خُذ لك من الوعظ بعض نتائج واجعلها دواءً لشفاء داء آثامك . وقل حقًّا ان الله نطق بفم هذا الواعظ بما يناسبني وانا محتاج اليهِ جدًّا . الثاني ان تتذاكر مع محبّيك واولادك وعيالك فيما سمعتهُ من الوعظ وتحثّهم على سماعهِ

لئلا تنسى ما سمعتهُ فيفوتك الضروريّ لخلاص نفسك . وتفي عن ذمتك اذا علَّمت أنسباءك ايضًا ما تعلَّمتهُ من الوعظ . الثالث ان تشكر الله الذي وفَّقك الى سماع الوعظ الذي هو الآلة الكبرى في خلاص نفسك وحظيت بما لم يحظَ بهِ الا الاكثرون بالنعمة الخاصة وأن تصلّي من اجل ارتفاع شأن الكنيسة المقدَّسة الجامعة فاذا سمِعت الوعظ على هذا الأُسلوب وهذا الترتيب تكون ارضًا جيّدةً قابلةً بِذار التعاليم الروحيَّة وتأتي بثمرةٍ فيُعطي الواحد مائةً والآخر ستّين والآخر ثلاثين (متى ١٣ : ٢٣) .

والى هنا انتهى ما فتح الله بهِ علينا من بيان موضوع صناعة الوعظ المقدَّس . ونرجو بهِ حسن الخاتمة بهذه الخاتمة بمنّهِ وكرمهِ

آمين





فهرس الكتاب

المقدّمة في ماهية الوعظ وضرورته وفي شرف الواعظ وفيها ثلاثة فصول

القسم الثالث في آلات الواعظ وفيهِ تسعة فصول

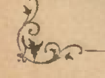
صفحة

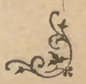
القسم الرابع في تأليف الوعظ وفيهِ سبعة فصول

اصلاح بعض ما وقع من الخطاء في الطبع

صحيفة	سطر	خطا	صواب
٥	١٥	السيرة ثم	السيرة حقًّا ان هذا الوعظ هو الحصاة البيضاء المكتوب فيهـا اسمٌ جديد لا يعرفهُ الَّا من يأخذهُ (رؤيا ٢ : ١٧)
٥	١٦	الرؤيا ابصر	الرويا لما أَبصر
٥	١٦	الذهبية بأَوصاف	والذهبية وصفهُ بأَوصاف







نبذة

من كتاب أَشعَّة الحقّ

وهو

مجموع ما انشأهُ من الخطب

والمقالات سعيد افندي الخوري الشرتوني

غفر الله ذنوبهُ وستر عيوبهُ



خطبة

في ان الخطابة اعظم قوَّة وهبها الله للانسان

ٲُلقيت في ١٩ نيسان سنة ١٨٩٢

ايها الكرام

قد تجسم قدري في خيالكم حتى نظمتموني في سلك من تدعونهم للخطابة في نادي اخويتكم حالة كوني اعتقد ان نسبتي الى الخطابة نسبة الواو الى عمرو وقد انضمَّ الى هذا الضعف الحقيقي لا الادّعاءِي انهُ لم يتسع لي الوقت لاعداد كلام لا احمرّ منهُ خجلًا اذا سمعتموهُ بعد اذ رسمتم لي في مخيّلاتكم صورة رجل ينفق من كثر بل يغرف من بحرٍ فاضطررتُ قُبيل وفودي عليكم ان انقطع عن عملي واكتب ما يفتح الله عليَّ تفادياً من ان يشرّف مدعوّكم الالبّاء ثم يندموا على اضاعة خطواتهم في طلب ما لا نفع فيهِ او في استماع ما تردَّد على آذانهم وتكرَّرت قراءتهم لمثلهِ فاخذت القلم على اسم الله تعالى اكتب في بيان ان الخطابة اعلى قوةٍ أُوتيها الانسان راجياً ان الله يمدّني بشعاع من العرفان اهتدي بهِ الى الصواب فيما اقول حتى اخرج من بينكم ولست عندكم كما انا عند نفسي

اعلموا ارشدكم الله انَّ في الدنيا قلاعاً لم تروها . ومعاقل ما سمعتم بها لم تُبصرها عين جوَّالٍ ولا اخبر عنها رحَّالة ضعيفة البنيان شديدة الامتناع عجزت منها كرات المدافع الهائلة . وتثلَّمت دونها السيوف المرهفة . وضعفت عن فتحها الكتائب المظفرة . وخزيت امامها وجوه الفاتحين . وباتت تهزأ بحملات الانسان وجور الزمان وراية الغَلَب والظفر تخفق من فوق شرفاتها . واعلام طلَّابها وسيوفهم مصلتة على الاعناق . حتى اَداروا بها كل قاسرةٍ . وسلَّطوا عليها كل جائحة . فأمست وايم الله محلّ العجب العُجاب ذليلةً عزيزةً . ضعيفةً قويةً . رِخوةً شديدةً . اَسيرةً مطلقةً

وان قلتم ماذا عسى تلك القلاع تكون . قلت هي حصون بناها الله من لحم

وضرب عليها سرادق من الاضالع وفي صدر كل منكم حصنٌ منها. وهي عداد سكان الارض. وان استردتموني بياناً تقابلون بذلك الاكثار من الكنايات عنها قلت تلك الحصون او المعاقل انما هي القلوب البشريَّة. ألا وانمــا هي القلاع التي استعصت على هجمات الفاتحين وحملات الغازين. ووقفت على ضعفها لا تنسفها من اضطهاداتهم الاعاصير. ان القلوب وان كانت لحماً لا تذلّ للسيوف البتَّارة. ولا تفرُّ من الرماح الخطَّارة. فاصحابها يصبرون على السيف ويصابرون العذاب. ويهدّدون التنكيل بعدم المبالاة حتى ان السيوف لتخطف رؤوسهم وما يرتدون عن عقائدهم. أليس على ذكرٍ منكم أقاصيص الشهداء أم لم تمرَّ بمسامعكم احاديث اضطهاد القياصرة الرومانيين للمتنصرين وذراريهم. ام لا تذكرون كيف احتفروا الحُفَر في رومة على عهد المضطهدين مفضلين الاقامة بهــا مع بقائهم في ايمانهم على سكنى القصور على الراحة والسعة مع انكارهِ ولو باللسان. واحسبكم تتذكرون حديث اصحاب الاخدود وهم نصارى نجران الذين أُريدوا على اليهوديَّة فأبوا فخدَّ لهم زرعةُ أُخدوداً وملاهُ ناراً وخيَّرهم بين اليهودية والنار. فاختاروا النار فقذفهم فيها فتقحموها ولم يرتدُّوا عن دينهم. وبعبارةٍ أُخرى اقول لو ان ملكاً حارب مملكةً. ودوَّخ كل اقليمٍ من اقاليمها واخذها عنوةً حتى استأمن اليهِ اهلها ودخلوا في طاعتهِ لبقي في قلقٍ على نزعها من يدهِ ما دام سكانها منطوينَ لهُ على الحقد وطلب الثار ورفع الضيم. فيكونُ والحالة هذه قد استحوذ على البلاد والاجسام. و بقيت الاهواء في حصون منعتها تشنأُ منظرهُ وتنبو سمعاً عن ذكرهِ وتنشدهُ بلسان القائل

فباتَ يريني الخطبَ كيفَ اعتداؤهُ وبتُّ أُريهِ الصبرَ كيفَ يكونُ

او تجاهرهُ بقول الآخر

فان تكن الايَّامُ فينا تبدَّلت بؤُوساً بنُعمى والحوادث تنقلُ
فما ليَّنت منَّا قناةً صليبةً ولا ذلَّلتنا للذي ليس يجملُ
ولكن رحلناها نفوساً كريمةً تحمَّل ما لا تستطيعُ فتحملُ

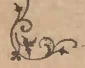
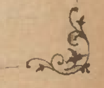
ان لم ترتضوا ما قلتُ برهاناً واحتججتم ان سطوة الدين على القلب انما هي التي تفعل هذا قلتُ فُطِر الانسان على ان يتمسَّك بما يراهُ صواباً. وهذا لا يخرج

عنهُ ظاهرًا او باطنًا في حال من الاحوال الَّا ان يكون امرًا لا علقة لهُ بالعقائد فيخرج عنهُ ظاهرًا امَّا رغبةً وامَّا رهبةً . واما العقيدة فاذا كلِّف انكارها رفع صوتهُ بذكرها واذا سئل اخفاءها اعلنها واذاعها . وقد يشتدّ حبّ غير العقيدة على الانسان فيفديهِ بنفسهِ . وقد فعل هذا غير واحدٍ منهم وزير صيني كان على عهد شمر مرعش ومنهم مخترع الحربة وقايةً من الصاعقة فانهُ خاطر بحياتهِ ليطّلع كيف يتم انقضاض الصاعقة فانقضَّت عليهِ فذهب شهيد التحقيق

وقد تقرَّر مماَّ ألمعت اليهِ ان الاضطهاد والضيق والتنكيل ونقف الاعناق كلها اعجز من ان تصل الى اهواء القلوب واضعف من ان تملكها

فان قلتم أفما لتلك القلاع كتائب تغزوها ومحارب يظفر بهـا قلت بلى ان في الكون سلطانًا شديد البأس يقاتل بالكلام و يحارب بالكلام لا يشهر سيفاً ولا يشرع رمحًا ولا يطلق مدفعًا لكنهُ يجري لسانًا ينثر لائهُ فتقبل عليها شوارد القلوب فتدخل في طاعة هذا السلطان جارَّةً ذيل الفخار وهي مغلوبة . وذلك السلطان هو الخطابة فهي اعلى قوةٍ وُهبها الانسان . وهي السيدة المستبدة بالاهواء . واعظم مشهدٍ أرتنا فيهِ بدائع قوتها وغرائب سطوتها قد كان منذ مضيّ ١٩ قرنًا غير ٨ سنين حين انتشر في الارض اثنا عشر صعلوكًا يدعون الناس الى النصرانيَّة فاطلقوا ألسنتهم في بيان حقيقة ما يريدون الناس عليهِ وامدَّتهم حقيَّةُ هذا الدين والهيتهُ ببراهين السيرة الفاضلة . فاخذ الوثنيُّون يكسرون اوثانهم بأيديهم واشياع موسى يتركون فرائض العهد العتيق ويتعلَّقون بفرائض العهد الجديد وعلى هذا النحو انتشر الفتح المسيحي واستطار في الكون استطارة الحريق ولم يتكلفوا لبقاء تلك الممالك المفتوحة شروى نقير

على ان طبيعة هذه الديار قد سطت على الخطابة وصارت تلجئ الخطيب الى ان يكون آلةً يخدم اهواء الناس وان معاديةً ومعاندةً لما في ذهنهِ فضعف سلطانها وكادت تفنى قوَّتها الَّا في يسير ممن بقي فيهم آثار الاخلاق الصالحة والقواعد الدينيَّة كهذه الاخوية التي امدَّتها المبادئ المسيحية بالنماء

خطبة في ان الدين مقتضى الحكمة والكفر مقتضى الجهل
أُلقيت سنة ١٨٩١

احمد الله اليكم ايها المائلون الى الصواب حيث كان . المظاهرون للحقّ كيف تقلَّب بكم الزمان . المكرمون للعقل بردّ ما يردّهُ البرهان . العائفون للنفس ما لا يحمل ذكرهُ بلسان

وبعد فان الضمير يطالبني ان انبّه الخواطر اليوم الى مسئلة هي اعظم من ان يُستطاع الاغضاء عليها . وربما استراح من اضطجع على الشوك ولا يستريح من يحسن تصورها . ألَا وهي الوهم القائم في اذهان جماعةٍ من الخواصّ ان الدين والعقل ضدّان لا يجتمعان الّا متى اجتمع الليل والنهار . وعدوّان لا يتسالمان الّا متى تسالم الحرّ والقار وهو الوهم الذي سطا زمناً على ابي العلاء المعرّي الضرير فقال

قُسم الورى قسمين هذا عاقلٌ   لا دين فيهِ ودين لا عقلَ لهُ

ويتبع الوهم ذاك ان كل دائن بدين انما هو جاهل بحت لا حظّ لهُ من العقل . وان اهل العلم يتظاهرون بالدين بحكم القواسر الماشيــة ولولاها لجحدوهُ وحرّروا انفسهم من ظلمهِ . وان رؤساء الدين المعروفين بالعلم انما يتظاهرون بهِ وليسوا في شيء منهُ لكن يبعثهم على ذلك حبّ ان يستمرّوا سادة النــاس وحكامهم واصحاب الكلمة النافذة في ارواحهم . ولولا تلك ما زيّنوا للناس الاستمساك باصولهِ والقيام بفروضهِ حالة كونهم يرونهُ حبالة من جدّ وراء التسلّط على القلوب . وبعبــارة اخرى نحن معاشر اهل الدين في نظر الواهمين عوامّنا جَهلَة كالبهيمة العجماء ورؤساؤنا وعلماؤنا زنادقة . هذه نتيجة هذا الوهم الذي كان اول قدومهِ الينا على يد بعض دعاة البدع ثمّ افشاهُ عبيد الشهوات الملقّبون انفسهم برجال الحريّة حتى صار يتكلَّم بهِ اليوم على وجه المفاخرة بعد اذ كان يُستحَى من ذكرهِ

وقد اندسَّ هذا الوهم في كثير من الشبان واعظم داسٍ لهُ امران احدهما معاشرة المصابين بهِ المضروبين بقروحه . وهؤلاء يتذرعون الى القاء بذورهِ في اذهان الشبان مرةً بالقدح في اصول دينيّة يخرجونهُ مخرج الهزل الذي يُراد بهِ الجدّ ليجتنوا من روض البديع عذراً لهم اذا كان ثمّ من ينكر عليهم كلامهم . ومرةً بتزيين الاجابة

لدواعي اللذات البدنيّة لمن اكبر همهم قضاء اوطارهم منها . وكلاهما من اسهل الطرق التي تدبّ فيها آفات العقائد والفضائل الى القلوب . والثاني مطالعة المكتوبات التي دُسّ فيها من المطاعن والشُبَه ما يجرُّ الوهن الى عقائد العوامّ . وذلك اضعفهم عن ردّها وبيان وجوه الفساد فيها . والمتعلمون لعهدنا جلّهم او كلّهم خالو الاذهان من علم العقائد وحِكَم الشرائع وتواريخ الاديان ومقتضيات العمران حتى انها لتدخل على اذهانهم الشُبَه بصُوَر الحقائق المنزلة

واذا علمتم ذلك كان اول واجب علينا نحن المتشرفين بسمة الدين ان ننبري لدفع هذا الوهم . ونلطخ بعار الجهل جباه اهلهِ . ونخلع ثوب الرثاء والزندقة على ذويهِ فعل من يُفتأت عليهِ وهو حيّ ناطق فاقول ان القائلين بالدين هم اهل الحكمة والعلم والصدق والامانة . واما الذين قالوا ان الدين ظلمُ العقل فهم الجهَلة الاغرار الذين تبرّأت منهم الحكمة واليك اثبات ذلك بخمسة مناهج

المنهج الاوّل ان عمّار الارض من الآدميّين لا بدّ لهم من اختلاط بعضهم ببعض وذلك بحكم الحاجة ولا يتسنّى لهم هذا الاختلاط على وجه الراحة والطمأنينة الّا متى كان كلّ مطالباً من قبل نفسهِ ان لا يخون ولا يغدر ولا يمكر . وموقناً انهُ ايّان غدر او مكر تعس جدّهُ في امر اخراهُ . وصار مغضوباً عليهِ عند من لا تخفى عليهِ خافية . ولا يكون الناس في هذه الحال الّا وهم على دين يحرم الضرّ ويأمر بالنفع ويثيب على الحسنات . ويعاقب على السيئات . وعلى رأي هؤلاء الواهمين لا يكون للانسان مطالب داخليّ يطالبهُ بالتزام الصدق والوفاء والمحافظة على حياة القريب فيضطرب المجموع البشريّ وتختلّ شؤونهُ . وليس اضطرابهُ واختلال شؤونهِ بالامر اليسير . واذا ذكرتم ما نالكم من ايجاس الخوف عند انتشار خبر الوباء منذ قليل علمتم ما يكون عن اضطراب المجتمع الانساني هذا في جانب الناس . واما في جانب الله فهو غضاضة على حكمتهِ والتواء في تدبيرهِ وحاشا لهُ من ذلك . وان قيل ان كثيراً مرقوا من الدين والاحوال منتظمة قلت ان السائد حتى الساعة انما هو الدين . وبآثارهِ الحسنة يتمتع بالاطمئنان اولئك الذين كذّبوا بهِ وحاولوا استئصالهُ من قلوب معتقديهِ . على ان كثرة الكفّار قد اوقعت اثراً غير محمود في الالفة ألا وكل يشعر اليوم بأن طمأنينة الخلق قد اعتلّت بانتشار ما انتشر من

مبادئ المعطّلة . وعاد الناس في عناء من تفشّي الخيانة في المعاملات . ألا قولوا لي ناشدتكم الله أَمن يتخذ وقايةً لحياتهِ واموره هو الجاهل ام من يعرّض حياتهُ للقتل وامواله للسلب فلا شكّ ان الثاني هو الجاهل الاعمى والاوّل هو الحكيم البصير

المنهج الثاني ان الرسل الذين جوّلوا الارض ونثروا حبّ العقائد في الصدور لو كانوا يعرفون ان هذا الدين اكذوبة ما اقتحموا الخروج من مشارب قبائلهم ولا جافوا اذواق اقوامهم . ولا فرّوا مما كانوا عليهِ الى الفقر ومناهدة الناس واثارة سخط الملوك والاقدام على بذل النفوس . ومن البديهي ان الحامل لهم على الخروج من كل خيرٍ دنيويّ انما هو حبّ الحقّ الذي رأَوا ان لا سعادة للانسان في دار البقاء الّا باتباع سنّتهِ فمن اين يكون هؤلاء خدّاعين مكارين . فدعوى الواهمين اذا لا يليق ان يرتفع لها حجاب السمع . ولا جرم ان قبولها من اشدّ ما يُحتقَر بهِ العقل

المنهج الثالث ان التعطيل على تقادم عهدهِ وجدّ ذويهِ الى ان يقرّروا لمبادئهِ السيادة في الخلق لم يخبرنا تاريخ من التواريخ انهُ كان في عصر من الاعصار الخطّة المتبعة في مملكة من الممالك مع ان الوثنيّة على علّاتها قد سادت ولم تزل حتى اليوم ديانة عدد كبير من الناس . نعم نقل الرواة ان التعطيل كان يستوبئ في بعض الازمنة كما تستوبئ الامراض فيجرف عقائد الذين يأنسون بهِ جرف السيول ثم لا يلبث ان تنكسر عاديتهُ وتخمد ناره . اما الدين فقد ساد من لدن تألّفت الجمعية الانسانية الى يومنا هذا ولن يبرح سائدًا يدَ الدهر . والحاصل ان حلاوة ثمرة الدين هي التي سوّدتهُ واعلت في عيون العقلاء مرتبتهُ . ومرارة الكفر هي التي تسبّبت في ركود ريحهِ والجأت اهلهُ في كل عصرٍ الى التستر برداء الدين والاستذراء بظلّ الايمان

المنهج الرابع ان الحرية التي كانت شعار دعاة الدين وزعمائهِ واَتباعهِ والشجاعة التي اظهروها بين يدي من كان يخيّرهم بين القتل والردّة ومجاهرتهم باختيار القتل على الردّة واستحباب الدين مع المذلّة والمتربة على الترَف وسعة العيش في ظلّ التعطيل . كل ذلك يثبت للدين اجمل صورة واعلى قيمة عند أُولي الالباب . بل كل ذلك جواب مسكت مخجلٌ لمن يرمي عوامّنا بالجهل وعلماءنا ورؤساءنا بالرثاء قل لي

هداك الله هل تجتمع الحرّية والرثاء بل هل يأتلف الجود بالنفس في اعزاز الدين مع الزندقة

فيا ليت شعري لو قُدِّر ان ملكاً وثنياً اراد كافرًا على الوثنيّة فقال لهُ انت بين اثنتين امّا ان تعبد الوثن وتعيش واما ان لا تعبدهُ وتُقتَل اكان يمدّ عنقهُ للقتل كما فعل آباؤنا الاولون . كلّا بل كان يقول آمنتُ بالوثن وصدّقتُ ويدخل في الوثنيّة طائعاً . وهو الصواب بحسب قاعدة التعطيل لانهُ لا يسخط الهًا يعبدهُ ولا يخاف على ثواب يرتجيهِ ولكنهُ يصير كاذبًا بدعواهُ انهُ انما يفعل عن تلقين العقل وانما يجري على حكم البحث فما ثبت بهِ يكون مقبولًا عندهُ . وقد صحّ بعد البحث ان عبادة غير الله مرفوضة بحكم العقل فلماذا خالفها ان كان ينقاد لاحكام العقل . وكفى بهذا للعاقل دليلًا على ثعلبيّة المعطّلة فما من حكيم يخاصهم من التناقض بين دعوى الحريّة والتلبُّس بالدين

المنهج الخامس ان انوار العلم انما بزغت في الغالب من رجال الدين فهم الذين تولّوا تعليم الناس وارشادهم وعنهم أُخِذت المعارف والعلوم وقد نبغ عالم من المتديّنين وبلغوا شأوًا من العلم قصّرت عنهُ جياد الاذهان . وقد تسهّل لبعضهم اسباب المروق من الدين فما فعلوا بل ثبتوا وكتبوا ما هو صريح بان الدين هو مصدر المدنيّة وحياة الانسانيّة . فلو أنّ العلم يبطل الدين ما كان رؤساء الدين يبنون المدارس وينشرون المعارف ولو أنّ العلماء الذين ترقّت بهم علومهم الى مراتب عالية من الفهم وصفت نفوسهم من اكدار المطامع والشهوات لو انهم يرون الدين اكذوبةً لارتدُّوا عنهُ وجاهروا بمقاومتهِ . الّا وان حالهم حال من يُنصف عقلهُ ولا يظلم حِسّهُ . فهذه خمسة مناهج كلٌّ منها ينتهي بك ان نهجتهُ الى الاقتناع بان الديانة ثمرة الحكمة والكفر ثمرة الجهل والشهوات والمطامع

ثمَّ انكم تعلمون ان في هذا العصر جمعيات كثيرة بعضها مرفوض المبادئ في مذهبنا كما هو معلوم لكل احدٍ وقد صدرت المناشير البابوية بانشاء اخويات ينضمّ فيها الشبّان الكاثوليكيون ويتعاونون على تأييد الفضائل والآداب واحياء مكارم الاخلاق وكل ما هو ضروريّ لانتظام الجمعيّة الانسانيّة وتوثيق دعائم الملك حتّى تكون لهم سيرة حسنة تقرّب اليهم من كان بعيدًا عنهم والغاية تهذيب

الاخلاق وتصفية النفوس انشئت هذه الاخوية . والامل معقود بانها تصل الى ما تريد من تهذيب السيرة بعناية غبطة السيّد السند يوحنا بطرس البطريرك الانطاكي والسيد المفضال المطران يوسف الدبس مطران بيروت وسائر مطارنة الطائفة الاجلاَّء وكهنتها الفضلاء ووجهائها العقلاء وكل من يعلم ان تحسين الهيئة الاجتماعية تابع لتحسين الاخلاق حتى تكون في جملة مخلّصات الحضارة في ديارنا من علل التعطيل والسلام

خُطبة في ممثّلي الامم والممالك

خُطِبت سنة ١٨٩٢

احمد الله اليكم أيُّها المستازون بالانفة من مواقف الحيف والهوان . المتبرّمون بسطوة المين والبهتان . ثم اقول قد سبقت لي خطب في مثل هذا المشهد تتنزَّل من خطبة هذا اليوم منزلة الاساس من البنيان . وها اني موافيكم الساعة بما لم يكن في الحسبان مبرز لاعينكم صورةً يهولكم منظرها . ويروعكم مخبرها . وهي لديكم ومن العجب انكم لا ترونها . تلك صورة آفة هائلة لكنها ما تراءت لأمةٍ الَّا استلَّت السخائم من صدور آحادها . وازالت ما كان من التقاطع والتدابر بينَ افرادها . وبدَّلت القطيعة بالوصال والتخاذل بالتناصر لا تعدو بذلك سُنَّة الشرع ولا تفوت حدود النظام حتى تصورها لسائر الامم صورة الرجل الواحد في الاقبال على ما ينفع والادبار عمَّا يضرّ والتزام ما يفتح في وجوهها ابواب العلم والثروة ومجافاة ما يدحرها الى مهاوي الجهل والفقر

تلك صورة من يرتدون مجد الامم والممالك وتهمي عليهم غيوث الرزق باسمها ثم يتثاقلون عن تلافي شؤُونها ويدوَون عند هجوم المخاطر على كرامتها ويسجلون الكلام في حرصهم على حقها . وهم يبيعونها بما استحي ان اذكرهُ واخجل ان اعيّن مقدارهُ فربما كان اقلّ مما باعت الاسباط بهِ يوسف ذلك الصديق بل اقلّ مما باع بهِ عيسو بكريَّتهُ . مع انهم لو عقلوا ما حجبوا عن مقاماتهم نسمات الشكر ولو فكروا لتبيَّنوا انهم ما ارتفعوا الى مناصب العزّ والوجاهة الَّا على مناكب تلك

الامم والممالك . ولا استقرَّت لهم قدم فيها الَّا بنعمة انتمائهم اليها. فما كان جائزاً لهم بوجهٍ ما ان ينسوا سبب ارتفاعهم ويذهلوا علَّة ارتقائهم . ولكن من لا يتدبَّر العواقب تُبطرهُ النعمة وتأخذهُ سكرة العزّ ويرين على خلائقهِ الصلَف فيعود مثلهُ في تصوراتهِ مثَل من تخبَّط في ظلمةٍ وتورَّط في حيرةٍ

فمن كان هذا شأنهُ فقد قاطع الحقّ . وجافى الشرع . وقلب للانصاف ظهر المجنّ وتبرأ من قومهِ بل تبرَّأ من عقلهِ ونادى لسان حالهِ بعداوة ملكهِ وخيانة مملكتهِ . وصاحت عليهِ احكام القانون بانهُ عدوّ المملكة وخصم الشريعة . ألا وانَّ من يتولى النظر في شؤون الناس ينبغي ان يضع نفسهُ من مقامات الأمانة والحزم والعلم حيث وضعهُ الناس كما ينبغي لهُ ان يلتزم إرادة سلطانهِ . ويتبع في احكامهِ شريعة مملكتهِ اتباعاً خالصاً عن التمويه والخداع بحيث لا يحكم الَّا بما تقتضيهِ شريعة المملكة ليخلص من معاذلة وجدانهِ ووخزات ضميرهِ وان نكب عن هذه الخطَّة فقد نكث الذمة وخان عهد المملكة وذلك هو الاثم الذي لا كبيرة وراءهُ تجاه قوانين الممالك بل تجاه احكام الشريعة الالهية

واذا تقرَّر ذلك فاقول ان راحة المجتمع الانسانيّ وتقدُّم العمران معقودان بحافظين احدهما الوازع الباطن وهو الدين والثاني الوازع الظاهر وهو الحكومة . اما الوازع الباطن فهو سائد على كثير من عباد الله . واليهِ يستند كل ما نجدهُ من الخير في المعاملات المطلقة من قيود الوثائق والشهود المؤمنة من يخلّ بها مسَّ صيتهِ عند من يجتهد ان يصوّر لهم نفسهُ بصورة الامين . ولكنهُ قد اعتلَّ في صدور من اذا عرضت لهم الشبهة تردَّدوا . وترحَّل عن صدور ادعياء العلم الذين لن يُوجد ابعد منهم عن الصواب في هذه المسئلة . وانخضدت شوكتهُ عند من في صدورهم استعداد لقبول العدوى وفي الجملة فقد ابتُلينا بضعف سطوتهِ . وقعدنا نتململ على نار علتهِ . ولكن صبراً فما نحن بالمنفردين في نقمتهِ . فقد انتشر ضررهُ في اطراف المعمور فنحن اذاً في زمن احد الوازعين فيهِ عليل والآخر صحيح

وهذا الوازع الصحيح هو في اصل طبيعتهِ لا يُبصر ما يبصر ذاك ولا يتوصل الى ما يتوصل الى معرفتهِ من الحوادث السريَّة والوقائع الخفيَّة . وشتَّان ما بين الغائب

والشاهد فكيف بهِ وقد صار ملترمًا ان يسدّ مسدّ اخيهِ عند من لم يبقَ لهم والعياذ بالله وازع باطن

وانفع علاج لهذا الداء انما هو تسليم امور الامة الى من لهُ علم يهديهِ ودين يحميهِ فبالعلم يطّلع على الحقّ وبالدين يرتدع عن الخيانة

واذ قد انجرَّ بي الكلام الى هنا ترتَّب عليَّ ان اذكر ممثلي الامة باقل ما يكون من الكلام فاقول ممثلوا الامة ولا يخفى عليكم هم الذين يتقلّدون مناصبها. ويتبوَّأون مراكزها ويُرجَع اليهم في شؤونها. ويطالبون بترويج مصالحها وتعزيز كلمتها ولكن على طريق الشرع ومن وجه النظام. ذلك كفاء ما تلبسهم من شرف المناصب. وتدرُّ عليهم من الوظائف فهم صورة الامة عند الناس. وعنوان حالها في اعينهم. ووكلاء حقوقها. وحُماة عرضها وشرفها. ومن ثمَّ ينبغي ان يُنتقَوا من اوسع رجالها علمًا وابلغهم حجةً وارسخهم أمانةً ووفاءً. واشدهم مروءةً. واعلاهم همةً. وأثبتهم جأشًا. واقواهم جنانًا. وأرحبهم صدرًا من كل من يخوض الغمرات الى الحقّ ولا تشرف نفسهُ على طمع. وقد اتفقت الامم على اشتراط هذه الاوصاف في كل من يقوم ممثلًا لامة في منصب ما. وايّ امة لا تتبع هذه الخُطّة في اختيار ممثليها تكون كمن يهدم بيتهُ بيدهِ. ويقوض اركان مجدهِ بسعيهِ ويجعل حقوقهُ عرضةً للهلاك واذا لم تتوفر هذه الشروط في الرجل فيكون وضعهُ ممثلًا للامة كوضع المدية الحادَّة على عنق الحقّ. وابشع احوال الممثل ان يجتمع فيهِ العلم بالقانون وحِيَل الشريعة مع عدم الوفاء وضعف الامانة. وقد اجملت ولكم تركت التفصيل ففصّلوا ان شئتم والسلام

خطبة في سعادة الحياة

أُلقيت سنة ١٨٩٣

احمد الله اليكم يا أيها الذين علموا ان لا اطمئنان لمن زاغ عن الشريعة. ولا سعادة لمن عاج عن سواء السبيل ولا هناء لمن عصى الله بل يا ايها الذين ان سئل عن ذوي الآثار الحسنة كنتم على أسلات الالسنة. وان قيل اينَ احبَّاء من لا يُرجى خيرهُ. واخلَّاء من لا يُخشَى شرّهُ أشير اليكم فيا حبّذا مكان حفل بكم ومدينة

انتم من رجال الخير فيها ولا اكتمكم ان لنفسي اكبر لذَّةٍ بمشهدٍ يشهدهُ نواصي الناس أدبًا وحبَّ خيرٍ ونزاهـة نفسٍ وطهارةَ خلُقٍ كهذا المشهد الذي نرى فيهِ اشجار الفضائل الطَيّبَة وينابيع الرأفة العذبة بل جنَّةً يسقيها فُرات التعاليم الانجيلية فتؤتي أكلها إِخوان المسيح ذوي البُؤسى الذين يتبرَّرون خالقهم فلا برحت ظلال فضلها وارفةً ومياه حسناتها دفقةً

أَما بعدُ فقد سُئِلتُ الكلام في هذا المشهد الحافل بأهل الذكاء والفضل المزيَّن بامير الخطباء ولباب الالبَّاء مصباح الحكمة ونسمة الحياة لكل مشروع حميد مطران هذه المدينة الزاهرة فسوَّفت الامر لتزاحم الاشغال وتنازع الاعمال حتَّى اذا كانت ليلة امسِ وقد دنا موعد الالتئام راجعتُ كتاب الايَّام وتصفَّحت احوال الزمان وهو المصباح الذي استصبح بهِ في خطبي ومقالاتي فجئتُ بالكلام في الامر الذي عليهِ الاتفاق وفي الاتجاه اليهِ الاختلاف. وهو «سعادة الحياة» هي رغيبة كل حيّ وأقصى أمانيّهِ ولها يقاسي الأهوال. ويعاني الاشغال. ويتقحّم الاخطار. ويبرّ ويُبحِر ويُغير ويُنجد ويُشرّق ويُغرّب

أما وقد اتفق الآدميُّون من لدن الخَلْق على الجدّ وراء الحياة السعيدة الهنيئة غير انَّهم اختلفوا في وجوه التماسها وطُرق تحصيلها اختلافًا طويلًا عريضًا. وذلك لتباعد افكارهم في رسم صورتها. وتباين آرائهم في تعقل حقيقتها. وقد أفضى ببعضهم الامر الى ان طلبوا السعادة من معدن الشقاء والطمأنينة من موضع الاضطراب كاللصوص والقتَلة وزرَّاع الاحقاد وداسّي الدسائس ومُحفظي الناس بسوء الصنيع والناس في ذلك مذاهب يكاد يُعيي الطالب حصرها. واليكم الآن مذاهب بعضهم في السعادة

منهم من ذهب الى ان السعادة انما هي توفر المال لدى الانسان فسعى وراءهُ سعي الجدّ واصلًا عمل النهار بعمل الليل لا تأخذهُ فيهِ سأمةٌ وقد كلفت نفسهُ الكسب والادّخار وأُولِعت بالشحّ الى حدّ أن حرم ذاتهُ من كل ما تشتهيهِ نفوس المكثرين من التأنُّق في المطعم والمشرب والملبس والمركب حرصًا على الدينار وفرارًا من التألم بلوعة فراقهِ ووحشة بعادهِ. فكأَنّ الواحد من اهل هذا الوهم انما

يتمتع ويتمجد وهو في قبرهِ بقول الناس تُوفّي عن كذا وكذا الفاً من الدنانير واخصّ اوصاف هؤلاء انهم الوكلاء الامناء لورّاثهم

ومنهم مَن يعدّ السعادة كلها في رخاء العيش والتوسّع في النفقة وابهّة المظهر فيسكن الدار الشاهقة الفيحاء المزخرفة بالنقوش المزيّنة بانفس المتاع ويلبس الثياب الفاخرة ويتخذ المراكب البهيَّة المزخرفة والخيول المطهَّمة ويستكثر من الخَدَم . وتسخو نفسهُ أن ينفق وُجْدهُ في سبيل ملاذّهِ فتراهُ يصرف للذَّة اذنهِ العشرة الآلاف والخمسة عشر الفاً في الليلة الواحدة . وقد يكون في جوار بيتهِ بل في انسبائهِ من تحنُّ نفسهُ الى اكلة من العدس فلا يرضخ لهُ بشيء . وهذا صنف المنغمسين في التَرَف الذين لم يعرفوا من اطوار الحياة الَّا الطور الجسماني . ولم يذوقوا شيئاً من لذَّات الحياة المعنويَّة بل اكتفوا أن يتقلَّبوا على بساط الطور الجسماني المبسوط على وحول البهيميَّة . رفعنا الله وايَّاكم عنهُ وقُصارى الكلام ان الواحد من هؤلاء يبذل وسعهُ حتَّى يستوفي جميع ملاذّ الطور البهيميّ قبل خروجهِ من الدنيا . ومَن كانت حقيقة السعادة عندهُ التَرَف ماتت فيهِ الاخلاق الفاضلة وفارقتهُ الهِمَم العالية واصبح كالبهيمة السائمة لا يهمُّها من الدنيا الَّا عَلَفها

ومنهم من يقولون انَّ السعادة انما هي السلطة فيطلبونها ويستحقرون في سبيلها كل نفيس وهم رجلان رجل يبتغيها قصداً الى تقويم الأَوَد بإحياء الحقوق واسعاد الرعية . فيكون ولا ريبَ من اكبر نِعَم الله على عبادهِ واغزر بركاتهِ على خلقهِ ورجل يطلبُ السلطة ليُطلق يدهُ في حقوق الناس ويُقيم فيهم شريعة مطامعهِ وينفذ عليهم احكام اهوائهِ فيكونُ اكبر نقمة تحلّ على الرعية واعظم نازلةٍ تنزل بهم ولا ينتصف من هؤلاء كالتاريخ فانهُ يصوّرهم بكمال شناعتهم ويمثّلهم بهول هيئتهم فيخلد لهم في الناس اقبح ذكر

ومنهم من يحصر السعادة في الصيت الحسن والذكر الطيب . وهؤلاء لا يرون لوجه الحياة جمالًا الَّا باتيان ما يُمدح ومجانبة ما يذمّ فيبذلون الاموال ويكابدون العناء في خدمة الناس ومصالحهم حتى ترى البلاد كأنها السنة تحدّث بمحامدهم وتنطق بمكارمهم ولا يحفلون بما جاء في الامثال من قولهم « سِمَن الكيس ونيلُ

الذكر لا يجتمعان ». ألا وهم الذين يوقنون ان من يُعطي المسكين يُقرض الله والله سبحانهُ لا يُجاوَد. فمن بذل في سبيلهِ واحدًا انعم عليهِ بعشرةٍ

ثم ان هذا التصوُّر للسعادة لهو من معادن الآثار الحسنة ودعائم الاعمال الخيرية واصحابه احمد الخلق ذكرًا واعزّهم في قلوبهم حكماً فهم موضع ثقتهم ومحلّ امانتهم

واياك ان تضمّ اليهم من يتحيَّلون حتى يُعرَفوا بالخير ويوصفوا بهِ ثم يتخذوا ذلك الذكر سلاحاً يستعينون بهِ على اختلاس الاموال وقرض الاعراض فهم كالذي قيل فيهِ

صلَّى وصام لامرٍ كان يطلبهُ حتى حواهُ فما صلَّى ولا صاما

ومنهم من يقولون انما السعادة تطبيق السيرة على وصايا الله تعالى فهؤلاء يتحاشون المنكرات صغيرها وكبيرها ويأتون المعروف قليلهُ وكثيرهُ لا يبتغون لذلك عوضاً الَّا اطمئنان ضمائرهم ورضوان خالقهم وهم الذين يحرّمون على انفسهم القذف والغيبة وزرع الشقاق ودسّ الدسائس. وهم الذين لا تطوّع لاحدهم نفسهُ ان يبذل قرشاً تعجيلًا للوصول الى حقّ وان كان اكرم الكرام وانما ذلك وقوفاً عند نهي الشريعة. وان دُعي احدهم الى منصب اكتفى بأجرتهِ وقال لمن يحملهُ على مخالفة الشريعة ما قال الامام عليّ لاخيهِ عقيل وهذا نصّ مقالهِ « والله لان ابيت على حسك السعدان مسهَّدًا وأُجرّ بالاغلال مصفَّدًا احبّ اليَّ من ان القى الله ظالمًا لأحد من الناس » وهؤلاء هم عملة الخير الظافرون بالسعادة الحقَّة الانقياء الصدور من وَضَر الاحقاد المترهة ضمائرهم عن هواجس المفاسد. ومن لبابهم ان شاء الله اعضاء هذه الاخويّة السائرة في سبيل الاحسان الفائزة لحسن صنيعها برضا السيّد السند يوحنا بطرس البطريرك الانطاكي والسيد المفضال يوسف الدبس رئيس اساقفة بيروت الذي على يده قامت عندنا هذه الاخوية يتبارى اعضاؤها في المحامد ويتنافسون في المبارّ. ويشيرون بسيرهم الحسن الى افضل ما تُصوَّر بهِ سعادة الحياة واخصّ ما تعرف بهِ والله المسؤول ان يرينا الجميع قد تصوَّروا السعادة كما تصورها القائلون انها تطبيق السيرة على شريعة الله عزَّ وجلَّ

محـاورات في علم الخطـابة

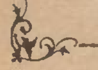
للعلَّامة فنلون

اسقف كمبراي المشهور

ترجمهُ من الفرنسويَّة بالعربية

سعيد افندي الخوري الشرتوني اللبناني

عُفي عنهُ




محاورات في علم الخطابة

المحاورة الاولى

في ذم تكلُّف النكات البديعية في المواعظ وفي ان الغرض من الخطابة انما هو تهذيب الناس وتقويم سيرتهم وفي أن الخطيب لا يبلغ هذا الأرب ما لم يتنزَّه عن جرّ النفع لنفسهِ *

١ قد سمعتَ الوعظ الذي اردت منذ قليل ان تذهب بي لسماعهِ. واما انا فقد اكتفيتُ بواعظ رعيَّتنا

٢ قد سُررتُ بواعظي وأَنت قد فاتك ما فاتك. ولقد استأْجرتُ موضعًا حتى لا تفوتني عظةٌ من عِظات الصوم. هذا الرجل نادرة الزمان فان سمعتهُ مرَّةً لم يَرُق لك من بعدهِ واعظ

١ سأَتحامى اذًا حضور وعظهِ تفاديًا من أَن يكرّه اليَّ سائر الوعَّاظ فاني أدور ابتغي رجلًا يكسبني الاستحسان والاجلال لكلام الله بحيث اكون اشدّ استعدادًا لسماعهِ حيث كنت لكن اذ قد فاتتني الفوائد الجمَّة وانت ممتلئ الذاكرة من هذه الموعظة الحسنة فتلطَّف وقل لي شيئًا ممَّا علق بخاطرك منها استعيض بهِ

٢ أَعفِني من ذلك فاني اذا رويت هذه الموعظة اشوّهها بروايتي ويتفلَّت ما شاءَ الله من محاسنها فينبغي ان الواعظ بنفسهِ يذكرها لك

---

* اشرنا بالعدد الاول الى فناون وبالثاني والثالث الى صاحبَيهِ

١ اذكر لي على الاقلّ مقصدها وبراهينها ومغزاها واخصّ الحقائق التي بُنيت عليها. ألم يعلق شيء منها بالحافظة أم لم تكن مصغيًا

٢ ما اصغيتُ في عمري لموعظةٍ كما اصغيتُ لها

٣ واعجبا اذًا تحبّ ان نُلِحّ عليك في السؤال

٢ كلّا لكنّ معانيها غايةٌ دقّةً ولطفًا وعباراتها غايةٌ رشاقةً وسبكًا بحيث انها تخلب قلب السامع لكن يشقّ عليهِ ان يتذكّرها فيما بعد واذا تذكّرها رواها بعبارات أُخر فلا تبقى هي بعينها بل تذهب طلاوتها وقوّتها

١ اذًا سيّدي تلك المحاسن سريعة العطب اذا مُسّت اضمحلّت فالأحبّ اليّ موعظة جانب المعنى فيها اقوى من جانب اللفظ. شديدة التأثير في النفوس احفظ للمعاني . ألا ترى ان ليس الغرض من الكلام الّا الاقناع والتهذيب وتمكين المعنى في ذهن السامع

٣ ها قد التزمتَ ان تتكلّم

٢ اقول ما بقي في الحافظة. هذه آية الموعظة « اكلتُ الرماد كالخبز » هل في الامكان اختيار آية اتمّ من هذه مناسبةً ليوم الرماد. وبيّن الواعظ بحسب هذه الآية ان الرماد ينبغي ان يكون اليوم قوت نفوسنا ثم ادخل في مقدّمته بالطف اسلوب قصّة ارتميس (١) على رماد زوجها واحسن الانتقال الى السلام الملاكي واجاد في التقسيم كما ستحكم بذلك. قال هذا الرماد

(١) هي ارتميس الثانية ملكة هاليكرناس التي بنت لزوجها موزول قبرًا محيطهُ ١٣٧ مترًا وعلوهُ ٤٧ مترًا وهو يُعدّ في عجائب الدنيا السبع . كانت سنة ٣٥٥ ق م وانما قال رماد زوجها اذ كانت عادتهم حرق الاموات

وان كان علامة التوبة فهو اصل الهناء. وان ظهر انهُ يذلّنا فهو مصدر مجد وان مثّل لنا الموت فهو العلاج المفيد الخلود. وقد ذهب في هذا التقسيم مذاهب متعددة وفي كل مذهب كان يكسو جملة المتضادّة رونقاً جديداً واما سائر الخطبة فلا اقلّ تهذيباً ولا اقلّ رونقاً والعبارة كانت فصيحة مهذبة والمعاني جديدة والجمل المتعلقة المتّسقة كثيرة وكلها كانت مختومة بعبارةٍ عجيبةٍ مذهلةٍ وجاءنا بأوصاف ادبيّة كلٌّ منّا كان يقول هذه الصفات صفاتي وقد اتى بتفصيل لاهواء القلب الانسانيّ يُعادل حِكَم رُشفُوكل (١) وعندي ان هذه العظة كانت مستوفيةً الكمال فما رأيك سيّدي فيها

١ اخشى ان اكلّمك في هذه الموعظة واحرمها مالها في نفسك من المنزلة. سبيل المرء ان يبجّل كلام الله ويغتنم كل حقيقة يفسرها الواعظ ويحاشي مشرب النقد حرصاً على سلطة خادم الله ان تضعف

٢ لا تخشَ ذلك فما اسائلك عنهُ شراهةً الى الاطلاع بل لاني محتاج الى ان اكون على تصور صحيح في ذلك. اريد ان اثقف نفسي تثقيفاً راسخاً لا لحاجاتي فقط بل لحاجات الغير ايضاً اذ ان وظيفتي تلزمني ان أعظ فقل لي اذاً ما عندك ولا تدّخر شيئاً ولا تخف تخطئتي ولا تشكيكي

١ بما انك تريد ذلك اجيبك اليهِ ولكن على تقريرك نفسهِ أُنتج ان تلك الموعظة غير جيدة

٢ كيف ذلك

(١) كاتب فرنسويّ الّف كتاباً في الحِكَم . وُلد سنة ١٦١٣ ومات سنة ١٦٨٠ للميلاد




١ ستتبيَّن الامر قل نشدتك الله أَجيّدة الموعظة التي تطبيقات الكتاب المقدَّس فيها غير صحيحة والتي يتعلَّق بها التاريخ العالميّ بوجهٍ باردٍ صبيانيّ والمستعبدة لما لا طائل تحته من المحاسن البديعيّة

٢ لا ريب ان موعظةً من مثل هذه ليست بجيّدة لكنما الموعظة التي ذكرت لك لا يظهر لي انها من هذا النمط

١ مهلًا ستوافقني على ما اقول. لما اختار الواعظ آيةً لهُ هذه الكلمات «أكلتُ الرماد كخبزي» هل كان يجوز لهُ ان يكتفي بأَن يجد علاقة لفظيّة بين هذه الآية واحتفال النهار. أَما كان عليه ان يبدأ بافهام المعنى الحقيقيّ لآيتهِ قبل ان يطبّقها على موضوعهِ

٢ نعم لا ريب في ذلك

١ أَما كان ينبغي لهُ ان يأخذ الاشياء من اوّلها ويدخل في سائر ما بقي من ذلك المزمور. أَو ما كان من الواجب ان ينظر في تفسيرهِ هل هو مخالف للمعنى الحقيقيّ قبل ان يلقيهُ على الشعب نظير كلام من الله

٢ صحيحٌ. لكن أَيُّ شيءٍ في ذلك من المخالفة

١ ان داود أَو مؤلف ذلك المزمور ١٠١ مَنْ كان يذكر في هذا الموضع بلاياهُ يقول ان اعداءهُ كانوا يشتمونهُ شتمًا موجعًا حتى رأى نفسه في التراب ملقىً على اقدامهم مضطرًّا الى ان يقتات بخبز الرماد ويشرب ماءً ممتزجًا بالدمع فايّ جامعةٍ بين تشكيات داود المخلوع عن عرشهِ المضطهد من ابنهِ ابشالوم وبين خشوع رجل مسيحيّ يضع الرماد على جبهتهِ تذكرًا للموت وهجرانًا للذّات الدنيا

أما في الكتاب الكريم آيةٌ أُخرى يتخذها لهُ موضوعاً أوَ لم يتكلَّم المسيح والرسل والانبياء في الموت وتراب القبر الذي اليه يُرجع الله زهونا. أوما ان في الكتاب الكريم لهذه الحقيقة كثيرًا من التصوُّرات المؤثّرة أوما كان كلام سفر التكوين المناسب لهذا الاحتفال بل الذي هو مختار الكنيسة نفسها جديرًا بأَن يختارهُ الخطيب. هل يحذر بمراعاة ما لا وجه لمراعاتهِ ان يكثر من تكرار آية اراد الروح القدس والكنيسة تكرارها ابدًا في كل سنةٍ فما الداعي الى ترك هذه الآية وكثير من الآيات الأخر المناسبة للمقام وتطلُّب آية غير مناسبةٍ. انما الداعي الذوق الفاسد ومجاراة الهوى الاعمى على قول شيء جديد

٢ سيّدي قد اخذت منك الحدَّة. نعم ان هذه الآية غير موافقة بالمعنى الحرفيّ

٣ اني اريد ان اعرف هل الاشياء حقيقيّة قبل ان استحسنها. ما تقول في باقي الموعظة

١ باقي الموعظة من نمط الآية. ألا ترى الامر كذلك ما الذي دعاهُ الى ذكر امر لذيذٍ في موضوع مخيف جدًّا وما الذي حملهُ على تسلية السامع برواية قصة دنيويَّة عن حزن ارتميس. والموضوع يقضي عليهِ ان يُنذر ويُوعد ولا يذكر الَّا تصورات الموت الهائلة

٢ فهمت مرادك أَنت لا تحبّ لطائف التعبير لكن ليت شعري ماذا تجدي البلاغة بدون هذا اللطف أَتريد ان تلجئ الخطباء طرًّا الى ان يحتذوا في مواعظهم على مثال ما في مواعظ المرسلين من السذاجة. نعم

ان سذاجة التعبير لازمةٌ للعامّة غير ان في المهذَّبين من تعوَّدوا استماع اللطائف فمن الواجب اذًا مراعاة ذوقهم

١ قد دخلتَ عليَّ من بابٍ آخر . كنت اودّ لو أُتمّ لك بيان ان هذه الموعظة سيّئة الانتظام ولم يبقَ عليَّ الّا ان اكلّمك في تقسيمها لكني اظنّك تعلم من ذات نفسك ما دعاني الى عدم استحسانها . هذا الواعظ جعل موضوع عظتهِ ثلاثة اجزاء ولكن على من يقسّم ان يجعل التقسيم ساذجًا طبيعيًّا اي ينبغي ان يكون هذا التقسيم موجودًا بتمامهِ في الموضوع وان يكون تقسيمًا موضحًا ومرتّبًا للموادّ سهل الحفظ ومعينًا على حفظ كل ما بقي . والخلاصة ان يكون تقسيمًا مبينًا عظمة الموضوع واقسامهِ والحال ان الامر على ضدّ ذلك اذ ترى الوعظ هنا قد أخذ بادئ بدء يبهرك وينطق لك بثلاثة الغازٍ او بثلاث احاجيّ يعيدها ويكرّرها بدقّة وانت تظنّ انك ترى اساليب شعبذةٍ فهل تلك هيئة رصينة جديرة بان تجعل عندك أملًا في شيء مفيد خطير لكن لنعُد الى ما تقول أتطلب اذا شئت انا ان تنفي بلاغة المنبر

٢ نعم يظهر لي انك تذهب هذا المذهب

١ لننظر اذًا ما هي البلاغة

٢ هي صناعة اجادة القول

١ أما لهذه الصناعة من غرضٍ سوى اجادة القول . أما يكون للناس عند التكلُّم مقصدٌ ما أم يتكلّمون ليتكلّموا فقط

٢ كلاَّ انما يتكلّمون لتلذيذ السامع واقناعهِ

١ ان شئت فلنُمعن النظر في التمييز بين هذين الامرين اما التكلّم

للاقنـاع فمسلَّم واما التكلم للتلذيذ والارضاء فهذا كثير الوقوع لكن حين يتعمد الواعظ التلذيذ والارضـاء يكون لهُ وراء ذلك غرض أبعد هو المقصود ورجل الصلاح لا يطلب التلذيذ الَّا لكي يزرع في صدور الناس العـدل وسائر الفضائل ويحبّبها اليهم. اما الذي يطلب فائدتهُ واشتهارهُ وغناهُ فـا يخطر لهُ ان يكون حلو الكلام الَّا لكي يستميل الناس ويظفر بالاجلال عند من يسعهم ان يكفوا شحَّهُ أو طمعهُ فهذا نفسهُ يُعدّ ايضاً ضرباً من الاقناع الذي يطلبهُ الخطيب فانهُ يريد ان يكون مستعذَب الكلام ليتملَّق اقناعاً بما يوافق مصلحتهُ

٢ مع ذلك ليس في امكانك ان تنكر ان الناس انما يتكلَّمون في الغالب تفتُّحاً بالفصاحة والى هذا الصوب ذهب الخطباء الوثنيُّون. ومن السهل ان ترى ذلك في خُطَب شيشرون التي كان يتعمَّل في انشائها طلباً لصيتهِ واسمه ومن ذا الذي لا يعتقد ذلك في ايزوقراط وديموستـان ان جميع المقرّظين القدماء كانت عنايتهم بشهر انفسهم فوق عنايتهم بشهر من كانوا يقرّظون من ابطالهم ولم يلتمسوا مجد ملك الَّا من اجل ما ينـالهم من المجد باجادة مدحهِ. ولقد كانت هذه الرغبة فيما يظهر عند اليونانيّين والرومانيّين من صدور الدهر. وبهذه المنافسة تنامَّت البلاغة وسمت العقول الى معـانٍ عاليةٍ وآراء جليلة. ومن ثمَّ تلألأ رونق النجاح في المشيخات القديمة. ان المشهد الذي كانت توجدهُ البلاغة وما كان لهُ من السطوة على الشعوب قد جعلاها مقبولةً وصقلا الخواطر صقلاً عجيباً. ولا ارى وجهاً لذمّ هذه المنافسة حتى عنـد الخطباء المسيحيّين اللهمَّ على شريطة ان لا يظهر في خُطَبهم تكلُّف مخلّ بالأدب

وألّا يوهنوا المغزى الانجيليّ شيئًا فلا مساغ لذمّ امرٍ يتنشّط بهِ الشبّان ويوجد مصاقع الخطباء

١ ها قد خلطت كثيرًا من الامور فاذا شئتَ فلنأخذ تلك الامور واحدًا واحدًا ولننظر على الترتيب ما ينبغي أن نتجنّبهُ ولنحاش الانتصار للرأي ولنبحث في هذه المادة بسكينةٍ بحث اناسٍ لا يخشونَ إلّا الضلال ولنعلّق الفخر كلّهُ على رفض ما نكون قد خُدعنا بهِ لدى اطّلاعنا على انهُ خطأ

٢ انا على هذا الاستعداد او لا اقلّ من اني احسب اني عليهِ فان رأيتني قد خرجت عن هذه السنّة فمن جميلك عليّ ان تنبهني الى ذلك

١ لا نتكلّم اوّل الامر في الوعّاظ بل نبقي ذلك الى حينهِ ونبدأ بالخطباء الدنيويّين الذين مثّلتَ بهم هنا قد قرنتَ ديموستان (١) الى

(١) ديموستان وُلد في اثينا سنة ٣٨٥ – ٣٢٢ ق م وهو امير الكلام ولم يكن بادئ امره اهلًا للخطابة فجدَّ وراءها وتشمَّر لها حتى صار امام الخطباء فحسَّن صوتهُ وقوّى صدرهُ واصلح حركاتهِ ولقد كان يملأ فاهُ بصغار الحصى ليعطي الكلام ما يوافقهُ من طبقات الصوت وكان يقصد شاطئ البحر ويخطب على اصوات اللّجج ليتعوّد ضجّة الشعب . واما لاصلاح حركاتهِ فكان يعلّق فوق رأسهِ سيفًا وكان اذا اراد لزوم البيت للاشتغال يحلق قسمًا من رأسهِ غير مألوف حلقهُ وكان يشتغل تلك المدّة بنسخ تأليف المؤرخ توسيديد الشهير ثماني مرات متوالية لان هذا الكتاب مثال الايجاز والوضوح والحقيقة وكان من دأبهِ اعداد خطب لكل ما يتصوّر حدوثهُ من الحوادث وكان يزعم حسّادهُ ان خُطَبهُ تنشر رائحة الزيت فكان يقول ان مصباحهُ يُضيء على شيء لا تُضيء عليهِ مصابيحهم . فهو اعظم خطيب في العالم القديم . عبارتهُ وجيزة بليغة خالية من المواربات تذهب الى المقصود توًّا

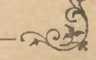


ايزوقراط (١) فاجحفت بقدر الاوّل فان الثاني خطيب بارد الكلام لا همَّ لهُ الَّا في تنميق العبارة وانسجامها وتصوّر البلاغة سافل عندهُ وكانما يعلق البلاغة كلّها على حسن السبك. وهذا الخطيب الذي قضى فيما قال بعضهم عشر سنين وفيما قال آخرون خمس عشرة سنةً في تنقيح خطابهِ التقريظيّ وهو خطاب في حاجات اليونانيين ما كان الّا محامياً ضعيف الاعانة للوطن على مقاومات ملك الفرس وبطيئها . واما ديموستان فكلامهُ في الانتقاد على فيلبوس مختلف عن هذا اختلافاً كبيرًا. واذا طالعت موازنة دانيس (٢) الهاليكرناسيّ بين هذين الخطيبين ووقفت على ما نبه عليهِ من اغلاط ايزوقراط الجوهريّة فلا ترى في الموازنة المذكورة الّا خُطباً حسنة الديباجة مخنَّثةً وجملًا متعلّقة متَسقة امعن في تنقيحها طويلًا اطرابًا للآذان . وامَّا ديموستان فكان يحرّك القلوب ويهيجها ويستميلها وكان شديد العناية بمصالح وطنهِ مترفعًا بذلك عمَّا في خُطَب ايزوقراط من النكات البديعية واللطائف الصناعية. ففي خطبتهِ تجد البرهان الدامغ وحسّ نفس كريمة

هادمة بقوّتها الموانع كافةً . وشرب السمّ تخلّصاً من انتيباطر احد قوّاد اسكندر الكبير

(١) ايزوقراط خطيب يونانيّ وُلد في اثينا سنة ٤٣٦—٣٣٨ ق م مات جوعاً بعد موقعة خيروته حتى لا يعيش واليونانيّون اذلّاء

(٢) دانيس عالم يوناني قدم رومية قبل التاريخ المسيحي بثلاثين سنةً وعكف على تعلّم اللاتينية حتى صار فيها من المبرّزين واوغل في الابحاث التي لا بدَّ منها لتاريخهِ المسمَّى احوال الرومانيين القدماء ونشرهُ قبل المسيح بسبع سنين وذكر في هذا الكتاب ما لم يكن يُعرَف بدونهِ ولهُ تآليف أُخر جليلة منها الكتاب المسمَّى احكام مختصرة على كَتَبة اليونانيين القدماء

لا تصوّر الَّا الشيء العظيم . وكلاماً ينمو ويتعززَ في كل كلمةٍ ببراهين جديدة . وسلسلة مجازات غريبة موءَثّرة اذا قرأتها رأيت ان خير الوطن مرسوم على لوح قلبهِ فانما كان يتكلَّم طبعهُ عند هياجهِ وقد وفَّى الصناعة حقها بحيث لم يكن يشعر بها ولم يكن من شيء يعادل سرعة خاطرهِ وبداهتهِ . ألم ترَ ما قال فيهِ لونجينوس (١) في مقالتهِ في البلاغة

٢ كلَّا اما ان هذه هي المقالة التي ترجمها بوالو : أَجيّدة هي

١ لا أَخشى القول بأنها تفضُل عندي كتاب الخطابة لارسطوطاليس فكتابهُ هذا وان كان جيّدًا الَّا ان كثيرًا من قواعدهِ جافّ وهو في الامور الفضوليّة أبحث منهُ في الامور المفيدة في الاستعمال وهو على بيان تعليم قواعد البلاغة البلغاء أَعون منهُ على ان يعلّم البلاغة ويوجد خطباء حقيقيين . اما مقالة لونجينوس في البلاغة فتضمّ الى القواعد امثلةً كثيرةً حتى تنزّلها عند المتعلّم منزلة المحسوس وضوحاً . ولقد انشأ هذا المؤلف مقالتهُ بنمطٍ عالٍ كما نبَّه المترجم الى ذلك فهي تهيّج مخيّلة القارئ وترفع عقلهُ وتصلح ذوقهُ وتعلّمهُ ان يحسن معرفة الجيّد من الرديء في خُطب المشاهير من الخطباء القدماء

٢ يا للعجب لونجينوس هو نادرة الزمان أَو لم يكن معاصرًا للعاهل اورليان (٢) وزنوبيا

---

(١) لونجينوس بياني يوناني وُلد بحمص من اعمال سورية سنة ٢١٠ وتوفي سنة ٢٧٣ للميلاد وهو صاحب مقالة في البلاغة ترجمها بوالو الشاعر الفرنسوي باللغة الفرنسوية

(٢) اورليان ملك روماني انتصر على زينوبيا ملكة تدمر سنة ٢٧٣ وامرها وولي الملك سنة ٢٧٠ – ٢٧٥ للميلاد وكانت تدمر في ايام زينوبيا قاعدة الشرق

١ نعم أنت تعرف تاريخهم

٢ ألم يكن ذلك العصر قصياً عن ادب المتقدّمين فواعجبا أتقول ان مصنفاً من أهل ذلك العصر اسلم ذوقاً من ايزوقراط . هذا مما لا يسعني التسليم بهِ

١ انا نفسي قد عجبت من ذلك لكن ما عليك الَّا ان تقرأ كلامهُ فهو وان كان من عصر فاسد الذوق لكنهُ قد تخرَّج على القدماء حتى كأنهُ لم يتلطَّخ بشيء من شوائب زمانهِ قلت «كأنه» اذ لا بدَّ ان اعترف بانهُ للتنميق اطلب منهُ للفائدة ولم يكن يردّ البلاغة الى المغزى . فظهر من ذلك ان لم يكن لهُ ما كان لقدماء اليونانيين ولا سيّما الفلاسفة من المقاصد الثابتة حتى انهُ ينبغي تُغتفر لهُ الشائبة التي وقع فيها ايزوقراط وهذا مع انهُ من عصر افصح منحطّ عنهُ كثيرًا . خصوصاً وانها شائبة قابلة المعذرة في مقالة خاصَّةٍ لم يتكلَّم فيها فيما يهذّب الناس بل فيما يؤثّر فيهم . انما ذكرت لك هذا المؤلف لانهُ يُعينك على فهم ما أُريد ان اقول فترى هناك الوصف العجيب الذي وصف بهِ ديموستان وروى فيهِ عن ديموستان هذا اقوالاً بليغةً وترى فيها ايضاً ما ذكرت لك من شوائب ايزوقراط . واعلم ان مطالعة هذه المقالة افضل ما تستطيعهُ في تعرُّف طبقة كل من هذين المؤلفين ان لم تنشط الى معرفتهما بمطالعة مؤلفاتهما . هذا ولندع ايزوقراط ولنَعُد الى ديموستان وشيشرون (١)

(١) شيشرون خطيب روماني وُلد سنة ١٠٦ ق م وقُتل غِيلةً سنة ٤٦ ق م وهو افصح خطباء الرومانيين واـدّهم رأياً واغزرهم مادَّةً لكنهُ لم يبلغ مبلغ ديموستان في الخطب السياسية




٢ تدع ايزوقراط لانهُ لا يوافق ذوقك

١ اذًا لنتكلّم في ايزوقراط ايضًا من حيث انك غير مقتنع ولنحكم في امر بلاغتهِ بمقتضى قواعد البلاغة نفسها وبرأي ابلغ كاتب من اهل الزمن القديم وهو افلاطون . أتسلم انهُ كذلك

٢ اسلّم ان كان ذلك صحيحًا اذ لا اقبل كلام معلّمٍ بدون برهان

١ تذكر هذه القاعدة وهذا الذي اطلبهُ منك ان لم تدع زَعَمات زماننا حاكمةً عليك فلا تلبث ان يقنعك البرهان . لا تسلّم في ذلك لايزوقراط ولا لأفلاطون بل اعرض اقوال كليهما على القواعد الجليّة . لا يسعك ان تنكر ان الغرض من البلاغة انما هو الاقناع بالحقيقة والفضيلة

٢ لا اسلّم لك فقد انكرت ذلك

١ اذًا هذا ما آخذ في اثباتهِ لك . ان البلاغة ان لم اكن واهمًا يصحّ ان تُؤخذ على ثلاثة انواع النوع الاوَّل صناعة الاقناع بالحقائق وتهذيب الناس والنوع الثاني صناعة مطلقة يجيد استعمالها الاشرار كما يجيدهُ الأخيار فيقنعون بها الناس بالضلال والظلم كما يقنعهم الاخيار بالحقّ والعدل والنوع الثالث صناعة يتوسَّل بها الأنانيُّون الى خلب القلوب واكتساب الصيت والمال فاختَرْ نوعًا من هذه الانواع الثلاثة

٢ أَختارها كلها فماذا تستنتج من ذلك

١ مهلًا . من بقية كلامي سيتبيّن لك ذلك واكتفِ الآن على شرط ان لا اقول لك شيئًا الّا واضحًا واقتادك الى غرضي ولا ريب انك ستستصوب النوع الاوَّل من هذه الانواع الثلاثة



٢ نعم هو الاحسن

١ ما قولك في الثاني

٢ انك تريد المغالطة . النوع الثاني مذموم من حيث يستعين بهِ الخطيب ليقنع الناس بالجور والضلال — نعم بلاغة الشرّير جيّدة في نفسها اي من حيث هي بلاغة لكن الغرض الذي يتوصل اليهِ بها مضرّ مفسد وبحيث إنَّا في صدد الكلام في قواعد البلاغة لا في كيفيَّة استعمالها فلا نخرجنَّ عن البحث الذي نحن في صددهِ

١ سترى ان بقيت منعماً بالاصغاء اني لم انحرف عن الصدد . انت تذمّ النوع الثاني وبعبارةٍ أنفى للإبهام تذمّ استعمال البلاغة الثاني

٢ أصبت وها انَّا على أتمّ الاتّفاق

١ ما قولك في النوع الثالث للبلاغة الذي يُقصَد بهِ تفكيه السامع بطلاوة العبارة طلباً للاشتهار والكسب

٢ قد عرفت رأيي فيما مضى وما انا بعادلٍ عنهُ . ان طريقة البلاغة هذه تظهر لي جيّدة بما تبعث على المباراة والمنافسة وتصقل العقول

١ اي طريقة ينبغي استعمالها لتهذيب العقول واذا كُلّفت تهذيب مملكةٍ فبماذا تهذّب عقول سكّانها

٢ بكل ما أراهُ يحسن احوالهم . أُريد ان اجعل ابناء الوطن صلاحاً متّقدين غيرةً للخير العام . أُريدهم في الحرب مدافعين عن الوطن وفي السلم مقيمين الشرائع مدبّرين بيوتهم حارثين ارضهم بانفسهم او بالواسطة مربّين اولادهم على الفضيلةِ زارعين في صدورهم الديانة مشتغلين بالتجارة بحسب

حاجات البلاد ومقبلين بجدّ على العلوم النافعة في هذه الحياة . هذا ما يظهر لي انهُ مقصد الشارع

١ مقاصدك عادلة راهنة اذ تريد ابناء الوطن خصماء الفراغ مشتغلين بالامور الراهنة ميَّالين ابدًا الى الخير العامّ

٢ نعم لا ريب في ذلك

١ أ تُبطل كلَّ ما بقي

٢ نعم أُبطلهُ

١ ألا تقبل الرياضات الجسدية الَّا من اجل الصحّة والقوَّة . لا اتكلَّم في جمال الجسم بحيث هو نتيجة طبيعية للصحّة والقوَّة في الاجسام الحسنة البنية

٢ نعم لا اقبل الَّا تلك الرياضات

١ اذًا تُبطل كل رياضةٍ لا تُستعمل الَّا للتسلية ولا تقوي قدرة الانسان على احتمال اعمال السلم المرتَّبة واطاقة عناء الحرب

٢ نعم سأجري على هذه القاعدة

١ لا ريب انك بهذه القاعدة نفسها ستُبطل ايضًا (لانك قلت لي) من رياضات العقل كل ما لا يجعل النفس صحيحةً قويةً جميلةً ذات فضيلة

٢ اني معك في ذلك . ماذا يتحصَّل من هناك . لم يتبيَّن لي حتى الساعة المقصد الذي تريدهُ فان اساليبك طويلة جدًّا

١ مقصدي المبادئ الاولى وان لا أَدَع ورائي مجالًا للريب . فأجبني ان شئتَ

٢ أُقرّ انهُ ينبغي بأَقوى حجّةٍ ان تتبع هذه القاعدة في حقّ النفس بعد اذ تقرَّر اتّباعها في حقّ الجسد

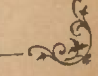
١ هل تحتمل من العلوم والفنون كل ما لا غرض لهُ الا التسلية والفضول وماذا تفعل بتلك العلوم التي لا تتعلّق بواجبات الحياة المنزليَّة ولا بواجبات الحياة المدنيَّة

٢ انفيها من وطني

١ اذًا ان احتملت وجود علماء الرياضيَّات فذلك لاجل الاعمال اليدويَّة والملاحة وعلم الزراعة والحسابات الواجب عملها وتحصين الاماكن وهلمَّ جرًّا . فانما عملهم هو المستلزم لوجودهم . واذا قبلت الاطبَّاء والفقهاء فانما ذلك محافظةً على الصحَّة والعدل . وهكذا الامر في سائر الصنائع التي نشعر بالاحتياج اليها . والموسيقيُّون ما تفعل بهم . أَلا يكون لك فيهم رأي قدماء اليونان الذين ما فصلوا قطّ الفائدة عن اللذَّة وأَصعدوا الموسيقى والشعر منضمَّين معًا الى ذروة الكمال حيث ارادوا التوسُّل بهما الى ازدراع الشجاعة والوجدان الشريف . فهم بالموسيقى والشعر كانوا يتأهبون للقتال . وبالموسيقيّين والآلات يسيرون الى الحرب وكانت اصوات الابواق تهيج فيهم الحماسة وتثير فيهم غضبًا كانوا يسمُّونهُ غضبًا الهيًا . وبالموسيقى وايقاع الاشعار كانوا يروّضون اخلاق الشعوب القاسية الهمجيَّة . وبهذا الايقاع اللذيذ كانوا يُشرِبون قلوب الاحداث الحكمة على التذاذٍ فكانوا يحملونهم ان يتغنّوا باشعار أُومر ليزرعوا في صدورهم احتقار الموت والغِنَى واللذائذ المضعفة للنفس وحبّ المجد والحرّيَّة والوطن حتى انهم كانوا يقصدون بالرقص نفسهِ غايةً جدّيَّةً في اصطلاحهم . ومن

المؤكد ان الرقص عندهم لم يكن لمجرد اللذة . ولنا في داود مثال على ان الأمم الشرقيَّة كانت تعدُّ الرقص فنًّا جديًّا كالموسيقى والشعر فقد امتزج بحكاياتهم وقصائدهم تعاليم كثيرة . ولذلك لم تظهر الفلسفة وهي ارصن العلوم واكثرها انقباضاً الَّا ضاحكةَ الوجه . هذا يظهر ايضاً من رقص الكهنة السريّ الذي كان يمزجهُ الوثنيون باحتفالاتهم في اعياد آلهتهم — ان جميع هذه الفنون القائمة إما بالألحان والانغام واما بحركات الجسد واماً بالكلام اي ان الموسيقى والرقص والخطابة والشعر لم تخترع الَّا لايضاح الاهواء قصدًا الى القائها في القلوب . ومن ثمَّ كان الغرض منها ان ترسم وجدانًا شريفًا في النفس البشريَّة وان ترسم للجمال والفضيلة صُوَرًا حيَّة حسنة الوقع وكذلك لقبح الرذيلة . وعلى هذا المنوال الغرض المقصود عند الاقدمين من كل هذه الفنون انما هو تعليم الادب والديانة تحت ظاهر اللذَّة حتى ان الصيد نفسهُ كان عندهم تعلُّماً للحرب . والذّ ملاذّهم كان يتضمن تعليماً في الفضيلة . ومن هذا الينبوع جرى الى بلاد اليونانيين كثير من الفضائل الشجاعيَّة المستحسنة عند الناس في كل عصر . ولا ريب ان هذا التعليم الاوَّل قد فسد وكانت فيهِ شوائب كبيرة . والشائبة الجوهرية فيهِ بنيانهُ على ديانة باطلة مضرَّة وقد ضلَّ اليونانيون في هذا كسائر حكماء العالم اجمعين الغارقين حينئذٍ في عبادة الاوثان . على انهم ان ضلّوا في أساس الديانة واختيار التعاليم فلم يضلّوا في طريقة ازدراع الديانة والفضيلة فكل شيء لذلك كان عندهم بصورة محسوسةٍ مقبولةٍ جديرة بان تؤثر تأثيرًا شديدًا

٢ قلتَ ان هذا الرسم الاول قد فسد فبيّن لنا فسادهُ ان شئت

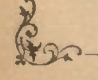


١ نعم قد فسد. ان الفضيلة تعطي الادب الصحيح لكن الانسان ان لم يحترس في الادب فلا يلبث الادب ان يفسدهُ شيئاً فشيئاً فاليونانيون الآسيُّون هم اوَّل من فسدت آدابهم والإينيّون اضحوا متأنثين في اخلاقهم. وكل هذه الناحية من آسيا غدت مجالًا للذائذ البدنيّة وهذه كريت (١) ايضاً قد عبث باهلها الفساد معما فيها من شرائع مينوس (٢) الحكيمة وانت تتذكر الاشعار التي رواها فيهم الرسول بولس (تيطس ١ : ١٢) وهذه كورنتس اشتهرت بالتبرّج والتخنّث والخلاعة. والرومانيون الذين كانوا لذلك العهد على الخشونة بدأُوا يجدون ما يُرخي فضيلتهم البدويَّة اما اثينا (٣) فلم تسلم من هذه العدوى التي انتشرت في كل بلاد اليونانيين فان اللذة التي لم تكن الَّا وسيلةً لإشراب الحكمة قد حلَّت عندهم محلّ الحكمة نفسها. ولذا احتجَّ الفلاسفة على وقوع ذلك فنهض سقراط يبيّن لاهل وطنهِ الضالّين ان اللذَّة التي تعلّقوا بها لم تكن الَّا طريقًا الى الفضيلة وافلاطون تلميذهُ الذي لم يخجل ان يؤلّف كتاباتهِ من خُطَب أُستاذهِ قد ابطل في بلادهِ الانغام الموسيقيَّة وحركات المآسي اي الروايات الفاجعة وانشاد القصائد حتى المقتطفات من

(١) كريت جزيرة بالبحر المتوسّط عدد اهلها مائتا الف وقاعدتها مدينة قنديا وعدد سكان هذه المدينة عشرون الفاً

(٢) مينوس ملك من ملوك كريت كان حكيماً فقيهاً وفي اساطير الاوّلين انهُ واخويه إياك وردامنت قضاة الجحيم

(٣) اثينا قاعدة بلاد اليونان عدد اهلها ١١٤٣٥٢ اشتهرت في الدهور القديمة بذكاء حكاَّمها وحكمائها وكتَّابها وصنَّاعها




كلام أومر التي لا تدعو الى محبة الشرائع الصالحة. فهذا هو الحكم الذي ابرمهُ سقراط وافلاطون على الشعراء والموسيقيين. ألستَ على رأيهما

٢ اني موافقهما كل الموافقة على رأيهما. ولا ريب انهُ لا يجوز استعمال شيء غير مفيد وحيث يتسنَّى وضع اللذَّة في الامور الرصينة فلا يجوز ان تطلبها في امر آخر. لا جرم ان لا شيء يسهّل الفضيلة سوى مزجها باللذَّة فان فصلتَ بينهما عرَّضتَ الناس لترك الفضيلة. ومع ذلك كل ما يلذّ ولا يهذّب يفكّهُ الانسان ويوهن نفسهُ. اما ترى اني اضحيتُ فيلسوفًا باصغاءي اليك فلنستمرّ في الكلام الى الآخر حيث لسنا بعدُ على اتفاق

١ لا نلبث ان نتَّفق. فبما انك فيلسوف فائذن لي ان اطارحك مسئلة اخرى. قد وافقتك على ان الموسيقيين والشعراء ملتزمون بالَّا يزرعوا الَّا الفضيلة وسلَّمت لك ايضاً بمنع مواطنيك حضور المشاهد المتمحضة للذَّة الخالية من التهذيب. لكن ماذا تفعل بالعرَّافين

٢ انفيهم من البلاد اذ انما هم مكَّارون

١ لكنهم لا يصنعون شرًّا ولقد ثبت عندك انهم ليسوا رقاةً فاذًا لا تخشى منهم صناعةً شيطانيَّة

٢ كلَّا. لا اخاف شيئًا اذ لا اعتقد شيئًا من كل حكاياتهم على انهم يأتون شرًّا كبيرًا بإلهاء الجمهور. لا احتمل في بلادي الفرَّاغ الذين يلهون غيرهم ولا صنعةَ لهم الَّا صنعة الكلام

١ لكنهم بذلك يرتزقون ويجمعون المال لهم ولعيالهم

٢ وان يكن الامر كذا فليتَّخذوا مرتزَقاً آخر. فليس للمرء ان يرتزق

من ايّ وجهٍ كان بل عليهِ أن يرتزق بالاعمال المفيـدة للجمهور واقول هذا القول نفسهُ في جميع الذين يفكّهون المارَّة بأحاديثهم واغانيّهم فينبغي طردهم وان لم يكذبوا ولم يقولوا ما يخلّ بالأَدب فعدم الفائدة وحدهُ يكفي لتأثيمهم. وعلى الشُرَط ان يلزموهم باتخاذ حرفةٍ ما مشروعة

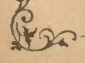
١ هل تحتمل وجود ممثّلي المآسي (الروايات الفاجعة) اظنّ ان ليس في هذه الروايات حبّ دنيويّ ولا اخـلال بالأَدب . وزِدْ على ذلك اني لا اتكلَّم هنا كمسيحيّ فاجبني كمشترعٍ وفيلسوف فقط

٢ ان لم يكن الغرض من تلك المآسي (الروايات الفاجعـة) تهذيب الاخلاق في ظلّ اللذَّة فأقضي عليك بتركها

١ جيّد . انت في هذا على رأي افلاطون . فانهُ حظر ان يدخل في بلادهِ من القصائد والمآسي ما لم يُجزهُ حرَّاس الشرائع وذلك لكي لا يرى الشعب ولا يسمع شيئاً لا يؤول الى تأييد الشرائع وتحبيب الفضيلـة . وفي هذا انت تتبع سنَّة قدماء المؤلفين القائلين ان المأساة ينبغي ان تدور على امرين احدهما الخوف من عواقب الرذيلة المشؤومة والآخر إثارة الرأفة بالفضيلة المضطهدة الحليمة . وهذا هو الرأي الذي جرى عليهِ أُوريبيد (١) وسوفكل (٢)

(١) أُوريبيد شاعر يونانيّ غلب عليهِ نظم الروايات الفاجعة وُلد سنة ٤٨٠ – ٤٠٦ ق م بجزيرة سلامين وهي مشهورة بانتصار تيمستُكل القائد الاثيني على اسطول كسرى ملك الفرس سنة ٤٨٦ وكان أُوريبيد طيّ العبارة سهلها ولا تذكر سيئاته في جنب حسناتهِ

(٢) سوفكل منشئ يونانيّ غلب عليهِ عمل الروايات الفاجعة وُلد سنة



٢ قد اذكرتني اني قرأت هذه القاعدة في الصناعة الشعريَّة للعالم بوالو

١ أصبت ان هذا الرجل قد سبر لاغور الشعر فقط بل ايضاً الغرض الراهن الذي يجب ان الفلسفة رئيسة كل الفنون تقود الشاعر اليهِ

٢ الى ماذا تقتادني آخر الامر

١ لاأقتادك فانت تسير وحدك وها قد وصلت بسلام الى النهاية. ألم تَقُل لي انك لا تُطيق في وطنك الفرَّاغ الذين يلهون الآخرين ولا صناعة لهم الّا صناعة الكلام. أما انك تبعاً لهذه السُنَّة تطرد ممثّلي المآسي ان كانت متمحضة لِلذَّة خاليةً من التهذيب. فهل يُباح ان يقال في النثر ما منع ان يُقال في النظم فكيف بعد هذه الشدَّة تُنعم على الخطباء المزخرفين المتفاصحين الذين يخطبون اظهارًا لبراعتهم وحذقهم

٢ لكنَّ للخطباء المزخرفين المتفاصحين الذين نحن في صددهم غرضين ممدوحين

١ ما ذانك الغرضان

٢ الاوَّل الاشتغال لأنفسهم وبهِ يرتقون الى المقامات. ان البلاغة تكسبهم الاشتهار والاشتهار يجلب المال الذي هم في حاجة اليهِ

١ قد نقضت قولك ألم تقل ان الواجب على المرء ان يكسب رزقهُ لكن بالاشغال المفيدة للجمهور. فمشخّص المآسي المجرّدة عن التهذيب

---

٤٩٥ — ٤٠٥ ق م ولم يبقَ من تآليفهِ الّا سبع روايات. مولدهُ مدينة كولون ببلاد اليونانيّين




يحصل رزقه ولم يكفك ذلك عن طردهِ من وطنك بل تقول انه يتخذ صنعةً مشروعةً ولا يليه ابناء الوطن فاذا شئت ان تستخرج منهم ربحًا شرعيًّا فاشتغل بشيء صالح حقيقيّ يجعل ابناء الوطن فضلاء فعلى مَ لا تحكم هذا الحكم نفسهُ على الخطيب

٢ ها قد اتّفقنا. والسبب الثاني الذي كنت اروم ان أذكرهُ لك يبيّن كل ذلك

١ كيف. اذكرهُ لي ان شئت

٢ ان الخطيب يشتغل ايضاً للجمهور

١ بايّ شيء يشتغل للجمهور

٢ بانهُ يهذّب عقولهم ويعلّمهم البلاغة

١ مهلًا ان اخترعتُ صناعةً خياليَّةً او لغةً وهميَّةً لا يتأَتّى لأحد منها فائدة ما فهل انفع الجمهور ان علّمتهم هذه الصناعة او تلك اللغة

٢ كلَّا اذ ان المرء لا يخدم الناس الّا بقدر ما يعلمهم شيئًا مفيدًا

١ اذًا لا تقدر ان تثبت بالبرهان المتين ان الخطيب ينفع الجمهور متى علّمهم البلاغة ان لم يثبت ان البلاغة نفسها تنفع في امرٍ ما. ماذا تفيد الخطب المدبَّجة العبارة ان كانت تلك الخُطَب مع رونقها لا تأتي الجمهور بفائدةٍ. قال القديس اغستينوس «الكلام للناس لا الناس للكلام» اني لأعلم ان الخُطَب تنفع اصحابها بما تخلب الباب السامعين حتى يطنبوا في منشئيها ومن فساد الذوق مكافأة الخطيب على كلام غير مفيد لكن أيجوز ان تحتمل في البلاد التي تسوسها هذه البلاغة الشبيهة بالسِلَع

المعروضة للمبيع الخالية من الفـائدة للجمهور . ان الاسكاف يصنع الاحذية ولا ينفق على عيـالهِ الا مالاً كسبهُ بنفعٍ الجمهور في حاجات حقيقيَّة وهذا يبيّن ان لأحقر صنعةٍ غايةً راهنةً . وليس سوى صناعة الخطباء التي لا غرض لها الّا الهاء الناس بالكلام اذ كل ما فيها يؤدي من جهـةٍ الى ارضاء الفضولية وتمكين البطالة في السـامع . ومن جهةٍ اخرى الى ارضاء زَهْو المتكلّم وطمعهِ . فحبًّا بشرف وطنك لا تُجِز هذه العادة السيئة

٢ نعم اعلم انهُ ينبغي للخطيب ان يكون غرضهُ التهذيب واصلاح السيرة

١ اذكر ما قد وافقتني عليه وسترى نتائجهُ

٢ على ان هذا لا يمنع الانسان حالة اجتهـادهِ في تهذيب الناس ان يستفيد الاشتهار والمنفعة

١ وهنا ايضاً لم نتكلّم كمسيحيين ما انا محتـاجاً الى الاستنصار عليك الّا بالفلسفة . اكرّر لك ان الخطباء عندك هم المطالبون بتهذيب النـاس ونقلهم الى حال احسن ممَّا كانوا عليهِ ومُقتضى ذلك طرد الخطباء المتأنقين . فلا يسوغ احتمال المقرّظين الّا قدر ما يأتون بقواعد حريّةٍ بالاتباع ويحبّبون الى الناس الفضيلة بمدائحهم

٢ ليس المدح شيئاً ان لم يملأ ادباً

١ أما استنتجتَ ذلك بنفسك وهو أنهُ لا يجوز التكلُّم الّا للتهذيب ولا يسوغ مدح بطلٍ الّا ليتعلّم الشعب فضائله ويُحثّ على الاقتداء بهـا والّا لاظهار ان المجد والفضيلة لا ينفصلان ومن ثم ينبغي ان يطّرح من الخطبـة

التقريظيّة كل المِدَح المبهمة ذات الاطراء والتملق. ولا يسوغ ان يبقى شيء من هذه العبارات العقيمة يؤدي الى تحبيب الفضيلة اليهِ. واما اكثر الخطباء المقرّظين فعلى ضدّ ذلك حيث يظهر انهم لا يمدحون الفضيلة الّا ليمدحوا ذويها الذين يتصدّى هؤلاء المقرظون لمدحهم. واذا ارادوا الثناء على رجلٍ رفعوا الفضائل التي جرى عليها هذا الرجل على سائر الفضائل ثم اذا ارادوا مدح آخر خفضوا شأن تلك الفضائل التي رفعوا قدرها رعايةً لمن قصدوا ان يتملقوهُ بمدحهم واني على هذا المبدأ انتقد على بلين (١) فان كان قد اثنى على تراجان (٢) ليُوجد أبطالًا من مثلهِ فذلك مقصد جدير بالخطيب. واما تراجان فمهما بلغت عظمتهُ فما ينبغي ان يكون هو الغرض المقصود من الخطبة وانما ينبغي ان يُذكَر على طريق التمثيل دعاءً للناس الى الفضيلة. ومتى لم يكن للمادح سوى هذا المقصد السافل وهو الاقتصار على مدح انسانٍ واحدٍ فلا يكون الّا متملقًا للباطل

٢ ماذا تقول في القصائد الحماسية المنظومة في مدح الابطال فهذا أُومر (٣) قد اتخذ اشيل (٤) بطل قصيدتهِ وهذا فيرجيل (٥) قد اتخذ إينه (٦)

---

(١) بلين هو حفيد بلين القديم الرياضيّ الرومانيّ وُلد بمدينة كوم من اعمال ايطاليا سنة ٦٢ للميلاد وتوفي سنة ١١٥ وهو صاحب تأبين تراجان العاهل الرومانيّ ولهُ رسائل مشهورة مطبوعة في عشرة اجزاء

(٢) تراجان عاهل رومانيّ تولّى الملك سنة ٩٨ الى سنة ١١٧ للميلاد وانتصر على قبائل الداس وقبائل الفرس



بطل قصيدته فهل لهذا تخطىٔ هذين الشاعرين

١ كلَّا لكن ليس عليك الَّا ان تمعن النظر في الغرض من قصائدهما فلا جرم ان أشيل في الالياد (١) هو البطل الاوّل غير ان مدحهُ ليس الغرض الاصليّ في القصيدة بل هو مُمثَّل كما هو بجميع شوائبهِ ومثالبهِ وهذه الشوائب والمثالب نفسها هي احدى المواضيع التي عليها اراد الشاعر ان يهذّب الاجيال الآتية ومدار كلامهِ في هذا التأليف على ان يُلقي في اذهان اليونانيّين حبّ المجد الذي يُستفاد من مواقع القتال وخوف الشِقاق لأنهُ

(٣) أُومِر ويقال أُومير وأُوميروس وهوميروس اكبر شعراء اليونانيين ويُمثَّل بصورة شيخ ضرير متنقّل من مدينة الى مدينة منشدًا قصائدهُ ولكن لم يثبت وجودهُ عند اهل التاريخ . وقيل ان كتابهُ في وصف حرب تراودة وحكاية عولص بعد ايابهِ من هذه الحرب منحولٌ اليهِ وهذا الكتاب ينطوي على اقاصيص اليونانيين المطبوعة

(٤) أَشيل ملك قبيلة يونانية تُسمَّى ميرميدون وقد خلّد أُومِر ذكرهُ في كتابٍ وصف فيهِ حرب تروادة وهو اشهر الابطال اليونانيين في تلك الحرب

(٥) فيرجيل اشهر شعراء اللاتينيّين وُلد قرب مدينة مَنْتُو من اعمال ايطاليا سنة ٧٠ ق م ومات قبل المسيح بسنةٍ

(٦) إينه امير ترواديّ الوطن اشتهر عند ما حارب اليونانيّون وطنهُ و بعد الفتح اليونانيّ هاجر الى ايطاليا بجماعةٍ من قومهِ وهو الذي وصفهُ فيرجيل في كتابهِ المسمَّى إينئد نسبةً الى اينه

(١) الئيد كتاب يُنسَب لأومِر الشاعر اليونانيّ في وصف محاربة اليونانيين مدينة اليون المعروفة ايضًا بتروادة و برغامة وهي من مدن اسيا الصغرى فتحها اليونانيّون ودمَّروها بعد ان حاصروها عشر سنين

مانع لكل نجاح كبير . ان هذا المقصد الادبيّ بيّنٌ في كل هذه القصيدة حقًّا ان قصيدة أومر المسمَّاة « أُودِيسه (١) » تمثّل في عولص بطلًا حقيقيًّا كاملًا في الشجاعة لكن هذا بالاتّفاق فان رجلًا مطبوعًا على الحكمة مثل عولص تكون سيرتهُ اقوم واثبت من سيرة شابّ مثل اشيل لم تزل فيهِ حدَّة الشباب . لذلك لم يفكر أُومر في كليهما الا ان يصف الطبيعة وصفًا صحيحًا . هذا خلا ما تتضمنهُ القصيدة المسمَّاة « أُوديسه » من كل الوجوه من التعاليم الادبية لكل احوال الحياة على التفصيل . وليس عليك الّا ان تقرأ هذه القصيدة لترى ان الواصف لم يصف رجلًا حكيمًا يأتي على طرف كل شيء بحكمتهِ الا ليعلّم الأَجيال الآتية الثمار التي تُنتظر من التقوى والحكمة والاخلاق الجيدة . اما فيرجيل فقد حذا في قصيدتهِ المسمَّاة « الانشيد » حذوَ أُومر في قصيدتهِ المسمَّاة « أُوديسه » من جهة طبع بطلهِ . فجعلهُ فطنًا تقيًّا مساويًا لهُ نفسهِ . ومن السَهل ان ترى ان « إينيه » لم يكن هو المقصود الاصليّ من كلامهِ فقد تصوَّر في هذا البطل الشعب الرومانيّ الذي سيتزل منهُ وقد اراد ان يبيّن لهذا الشعب انهُ الهيُّ الاصل . وان الآلهة قد اعدُّوا لهُ منذ القديم ملك العالم . ومن ثمَّ أَراد ان يهيّج هذا الشعب ليؤيّد بفضائلهِ مجد ما أُعِدَّ لهُ . ولقد كان من المستحيل وجود ادبٍ عند الوثنيين اهمّ من هذا . على انهُ يمكن ان يُنتقد على فيرجيل بأَمرٍ واحدٍ وهو انهُ كان يذهب بأَشعارهِ

(١) أُوديسه كتاب لِأُومِر يتضمَّن تيه عولص بعد حرب ترْوادة ورجوعهُ وهي قصيدة في وصف عولص احد ملوك اليونانيّين وابطالهم وهي نسبة الى اودوسيوس باليونانية اي عولص وهذا من باب قولنا القصيدة الزينبية لانَّها مصدرة بزينب وقصيدة خمرية اذا وصفت الخمر

قليلًا نحو الكسب . وقد اودع قصيدتهُ في مدح اغوسطوس وعِترتهِ بعض التملّق . ولكن لا اتمادى في ذلك بل اقف منهُ عند هذا الحدّ

٢ ياللعجب انك لا تريد ان شاعرًا او خطيبًا يطلب حظَّهُ بصلاح وحشمةٍ

١ ها انا نرجع الى مشكلتنا بعد ان استطردنا الى الخُطب المدحيّة استطرادًا لا يخلو من فائدة . فلنتكلّم في معرفة هل يتعيَّن على الخطباء التجرُّد عن مصالحهم الخاصَّة

٢ لا اعتقد ذلك انك تقلب كل القواعد العامَّة

١ أَما تريد ان الخطباء في بلادك يمتنعون الا عن ذكر الحقّ او لم تقصد ان يتكلموا ابدًا لاجل التهذيب . لاجل اصلاح الناس . لأجل تثبيت الشرائع

٢ نعم لا ريب

١ انهُ ينبغي للخطيب ان لا يخاف شرّ سامعيهِ ولا يطمع في خيرهم جرًّا لنفعهِ . اذا قبلت من الخطباء الطامعين المستأجرين فهل يقاومون كل اهواء البشر . فان كانوا هم مرضى بالبخل والطمع وضعف النفس فهل يقدرون ان يشفوا الغير منها . وان كانوا يبتغون حطام الدنيا فهل يصلحون لان يردّوا الناس عن طلبهِ . انا اعلم انهُ لا يجوز للناس ان يدعوا الخطيب الفاضل النزيه مفتقرًا الى الاشياء الحاجيّة . وهذا لا يحصل ابدًا ان كان الخطيب فيلسوفًا حقيقيًّا اي مثل ما ينبغي ان يكون ليهذّب اخلاق الناس فانهُ يعيش عيشةً ساذجةً محتشمةً زهديةً مقرونةً بالعمل وبذلك لا يحتاج الا الى قليل . وهذا القليل لا يحرمهُ ولو اقتضت الحال ان يحصلهُ بشغل

يدهِ واما ما زاد على احتياجهِ فلا ينبغي ان يكون مكافأةً لهُ ولا هو الجدير بان يكونها. فالجمهور يستطيع ان يكرّمهُ. على انهُ ان كان طليقاً من الاهواء وحبّ المصلحة الشخصية فلا يستعمل هذه السيادة الّا في الخير العامّ مستعداً ان يخلّيهـا متى تعذَّر عليهِ حفظها الا بالمداهنة والتملّق. ثم يتعيَّن ان يكون الخطيب رجلاً عفيفاً تريهاً ليتسنَّى لهُ ان يقنع الشعوب والا انقلب ذكاؤهُ وصناعتهُ سمًّا قتَّالًا لاهل بلادهِ. فيتبع ذلك ان الفضيلة على رأي شيشرون هي اولى صفات الخطيب واخصُّهـا فيجب ان يكون الخطيب قويًّا لا يزعزع استقامتهُ شيء وان يُتخذ قدوةً لجميع ابنـاء الوطن وبدون ذلك لا يعتقد الشعب انهُ مقتنع بما يقولهُ وبالنتيجة انهُ لا يقدر ان يقنع غيرهُ

٢ اني لأعلم خطارة ما قدَّمتهُ لكن ألا يتهيأ للرجل استعمال ذكائهِ اكتساباً للكرامة

١ ارجع ابدًا الى الاصول. قد اتفقنا على ان البلاغة والخطابة انما هما مخصَّصتـان لتهذيب الشعب واصلاح اخلاقهم فلا بدَّ لصنع ذلك بحرّيةٍ وفائدة من رجلٍ تريهٍ يعلّم الناس احتقـار الموت والثروة واللذَّات ويزرع في صدورهم الحشمة والزهد والنزاهة والغيرة للخير العـامّ والتزام حدود الشرائع ولا بدَّ أن يظهر كل ذلك في اخلاقهِ وسيرتهِ كما يظهر في خُطَبهِ فهل يتأتى لمن تبعثـهُ فائدتهُ على استرضاء الناس بل لمن هو في حاجةٍ الى أن يُراعي خواطرهم. فهـل يتأتى لهُ تحصيل هذه السطوة على العقول حتى ولو قال ما ينبغي ان يقال فهل يُصدَّق قول من لا يظهر عليهِ انهُ يصدّق ما يقول

٢ لكنهُ لا يُسيء بطلبهِ كسباً هو فيما افترض محتاج اليهِ




١ مهما يكن من ذلك فعليهِ ان يطلب ما هو محتاج اليهِ لاجل الحياة بطُرُق أُخر فتوجد صناعات أُخر تخرجهُ من الفقر فان كان مفتقرًا الى شيء ما ومضطرًّا الى ان ينتظره من الناس فلا يصلح بعد ان يكون خطيبًا. أَتختار في بلادك قضاةً من البائسين الجياع. أَما تخشى ان الحاجة تلجئهم الى الملاطفة الدنيئة. أَما تفضّل عليهم الناس الاجلَّاء الذين ما بهم حاجة تغويهم وتدفعهم الى العدول عن الحقّ

٢ أُسلّم ذلك

١ أَما تختار لهذا السبب نفسه خطباء مهذّبين للشعب ممَّن لافاقة بهم ومن اهل النزاهة وان كان هنالك خطباء اهلًا لمثل هذه الخطط والمقامات لكن مصالحهم تدعوهم الى ان يراعوا الخواطر او ما تنتظر لتقليدهم هذه الخطط ان يكونوا قد ظفروا بضروريَّاتهم ولم يعودوا مظنّةً للريب متى خطبوا في الناس

٢ يبين لي ان اختبار عصرنا يبيّن تبييناً كافياً ان الخطيب يستطيع ان يتكلّم في الادب بقوةٍ بدون ان يتنزَّه عن طلب الفائدة لنفسهِ. هل يمكن ان يُرى صور ادبية اقسى من الصور المتداولة فالانسان لايتكدَّر من تلك الصُوَر بل يلتذُّ بها وذلك الذي عملها يكتسب بها الرفعة في عيون الناس

١ ليس للصُوَر الادبية قوة الارشاد الى الآداب الَّا اذا كانت مبنيَّة على الاصول والقِدَى الصالحة. مَن تراهُ يرتشد بتلك الصُوَر الغير المستندة الى الاصول والقِدَى الصالحة كما ذكرت لك. فقد تعوَّد الناس ان يسمعوا هذا الوصف وما هو الا صورة جميلة امام العيون فيسمعون هذه الخطب كمَن يقرأ

أُهجُوَّة اي قصيدة هجو ويُعدّون صاحب هذه الخُطَب كمن يُحسن تمثيل دورٍ من ادوار الرواية ويصدّقون ما يعملهُ اكثر مما يقولهُ . فهو محبّ المنفعة طامع حقير فاتر العزيمة لا يترك شيئًا مما يدعو النــاس الى تركهِ ويدعونهُ يتكلّم تبعًا للعادة فهو عندهم كمن يتكلّم للقيــام بفرضٍ عليهِ وهم على شاكلتهِ في الاعتقاد والعمل اي انهم لا يصدّقون قولهُ ولكنهم يسمعونهُ تبعًا للعادة . وشرٌّ من ذلك ان النــاس يتعوّدون من ثمَّ ان يعتقدوا ان هذا الصنف من النــاس لا ينطق عن صدقٍ وخلوص قصدٍ . وما ذكرناهُ يصف اولئك الخطباء ومتى تبوَّأ منــابر الخطابة بعدهم مَنْ يتكلّمون عن غيرة صافية لا يقوم في اعتقاد الناس ان قولهم صحيح صادر عن صدقٍ وخلوص نيّة

٢ أُسلّم ان مبادئك تُتبع وأنها تُقنع حين يُدقّق النظر فيها . لكن ألم يدفعك الى قول كل هذه الامور غيرة خالصة تُقَوِّيَة مسيحية

١ ليس من الضروريّ ان يكون الانســان مسيحيًّا ليفكّر بكل هذا . نعم يلزم ان يكون مسيحيًّا ليحسن استعمالهُ . لان النعمة وحدها هي التي تستطيع ان تقمع حبّ الذات لكن لادراك تلك الحقــائق لا يلزم الا ان يكون عاقلًا . قد استشهدت لك فيما سبق بكلام سقراط وافلاطون وابيتَ الوقوف عند قولهما وحيث الآن قد ابتدأ العقل يقنعك ولم تبقَ لك حاجة الى اقوال العلماء فماذا تقول ان أريتك ان هذا الدليل هو دليلهما

٢ يا للعجب هذا دليلهما أَممكن ذلك . ان صحَّ فما اشدَّ فرحي بهِ

١ ان افلاطون قد انشأ مباحثةً بين ايزوقراط وخطيب اسمهُ غورجياس(١)

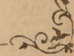
(١) غورجياس سفسطي يوناني شهير وُلد سنة ٤٨٧ وتوفي سنة ٣٨١ ق م

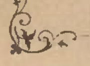
وكلّيكلس (١) تلميذ غورجياس . قد كان غورجياس هذا رجلًا ذائع الشهرة وهو استاذ ايزوقراط الذي تكلمنا فيهِ. قال شيشرون غورجياس اوَّل من تفاخر بفصاحة الكلام في كل شيء. وقد حذا حذوهُ في هذا التفاخر علماء البيان من اليونانيين ولنرجع الى تلك المباحثة التي بين غورجياس وكلّيكلس فهذان الرجلان كانا يتكلمان بفصاحةٍ في جميع الامور على منهج غورجياس وكلاهما من الأدباء اللامعين في المحادثات. ولا عمل لهما الَّا اجادة الكلام. لكن يعوزهما فيما يظهر ما كان يطلبهُ سقراط في الناس اي قواعد الادب الصحيحة وقواعد الاثبات المدقَّق المتين. ان المؤلف بعد اذ اظهر الاستهزاء بجالة عقلهم وصف لك سقراط الذي افحم بمعرض الهزل الخطيبين أَن يبيّنا حقيقة البلاغة. ثم ان سقراط بيّن ان منهجهما في علم الخطابة ليس صناعةً حقيقيَّةً (وهو يُسمّي الصناعة تعليماً قانونيًا يُعلّم الناس ان يعملوا ما يُعين على جعلهم احسن ممَّا هم عليهِ) ومن هنا يتبيّن انهُ لا يُسمّي فنونًا الَّا الفنون الجميلة وان هذه الفنون تفسد كلما قصدت بها غير تعليم الفضيلة للناس. واثبت ان ذلك ليس هو غرض هذين البيانيّين كما اثبت ان ذلك الغرض لم يكن غرض تيموستكل (٢) وبريكلس (٣). وبناءً عليهِ لم يكونا خطيبين

---

(١) كلّيكلس نقَّاش يونانيّ شهير وُلد في القرن الخامس ق م واعظم مصنوعاتهِ تمثال لبطل اسمهُ دياغوراس

(٢) تيموستكل قائد يوناني من مدينة اثينا وُلد سنة ٥١٤ وتوفي بفارس سنة ٤٤٩ ق م ومما يؤثر عنهُ قولهُ لقائد الجيوش المتَّحدة الاسبرطي وقد رفع عليهِ





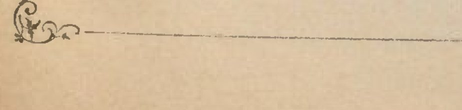
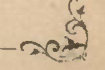
حقيقيين قال لم يخطر لهذين الشهيرين الّا ان يقنعا الاثينيين باتخاذ المرافئ والاسوار واكتساب الانتصار الى ان قال ولم يجعلا ابناء وطنهما الّا اغنياء أعزّاء محبي الحرب فاساؤوا معاملتهما بعد ذلك. ولهذا لم يصبهما الّا ما استحقاهُ فلو انهما جعلاهم بفصاحتهما صلحاء لكافأوهما خير مكافأة فان من يورد الناس مورد الصلاح والفضيلة فهو على ثقةٍ انهُ لا يجد من يجحد فضلهُ اذ الفضيلة وكفر النعمة لا يجتمعان. ليس من اللازم ان اروي لك كل ما قالهُ في عدم فائدة هذه الصنعة. اذ كل ما قلت لك في هذا الشأن كأنهُ لي هو مأخوذٌ من كلامهِ فالأجدر ان احكي لك ما ذكرهُ هو في الاضرار التي يجرّها على البلاد هؤلاء البيانيون المبطلون

٢ اني لعالمٌ انهُ قد كان يُخشى من هؤلاء البيانيّين على بلاد اليونان حيث كان في امكانهم ان يخدعوا الشعب ويستبدُّوا عليهم

١ انما في هذا المحذور يتكلّم سقراط غير ان ما جاء بهِ من المبادئ في هذا الشأن يتناول ما هو أبعد منهُ. مع ذلك حين نتكلّم هنا انا وانت في ترتيب بلاد لا ينحصر كلامنا في الممالك التي يكون فيها الشعب حاكماً بل يتناول ايضاً كل مملكة سواء كانت شعبيّة او محكومةً بعدّة رؤساء

الاسبرطي عصاهُ «مهلًا اضربْ لكن اصغَ اليَّ» وقد دارت هذه العبارة على السنة كثير من الفصحاء

(٣) بريكلس من مشاهير ملوك الاثينيّين وخطبائهم ومن رجال دولتهم كانت لهُ اليد الطولى في انتشار الفنون والعلوم الادبية وزيّن اثينا بالابنية الحسنة وعصرهُ ابهج عصرٍ لبلاد اليونانيين. توفي سنة ٤٩٩ ق م

وسواء كانت ملكية . ومن ثمَّ لا أتعرَّض لهيئة الحكومة فان قواعد سقراط جارية في كل بلاد

٢ ان حسن عندك ففسّرها

١ قال ان الانسان بحيث هو مركَّب من جسم وروح ينبغي لهُ ان يعتني بكليهما . ان لتهذيب الروح صناعتين وكذلك للجسم فصناعتا الروح هما معرفة الشرائع ومعرفة علم الفقه . أمَّا معرفة الشرائع فهي تتناول كل مبادئ الفلسفة لتسديد الآراء وتهذيب الاخلاق عند كل فردٍ من اهل البلاد . وامَّا الفقه فهو الدواء الذي يُعالج بهِ ما يعتري ابناء الوطن من الخيانة والظلم وعلى مقتضاهُ تُفصَل الدعاوي ويُحكم على اهل الجنايات . ومن ثمَّ فمعرفة الشرائع تُستعمَل ليُتلافى الشرّ وعلم الفقه لاصلاحهِ . وللاجسام صناعتان مثل هاتين الرياضة التي تمرّنها وتجعلها صحيحةً ومعتدلةً نشيطة متينةً ممتلئةً قوةً ونضارةً (تعلم سيدي ان القدماء كانوا يتقنون استعمال هذه الصناعة التي فقدناها) ثمَّ الطبّ وهو الذي يشفي الاجسام بعد ان تفارقها العافية . ان الرياضة للجسم بمثابة معرفة الشرائع للنفس من حيث تقوّيهِ وتزيدهُ نموًّا . وكذلك الطبّ هو للجسم بمنزلة الفقه للنفس من حيث يصلحهُ ويشفيهِ . على ان هذا الرسم الخالص قد تغيَّر وتحرَّف . قال سقراط قد خلف معرفة الشرائع تمويه المغالطين الباطل وهم الفلاسفة الكَذَبة الذين يُسيئون استعمال البرهان المائلون لخلوّهم من المبادئ الحقيقية للخير العامّ الى اغراضهم الشخصية . وجاء مكان الفقه بهرجة البيانيين وهم الذين يحاولون ان يخلبوا الناس بحلاوة الكلام ويبهروهم . ففي مكان الفقه الذي هو طبّ النفس والممنوع الاستعمال الّا لشفاء

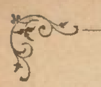
اهواء البشر جاء الخطباء المبطلون المقتصرون على ما يكسبهم الاشتهار . ثم قال وفي مكان الرياضة جاءت صناعة تزيين الاجسام واعطائها جمالًا باطلًا خادعًا مع انهُ ليس من الجائز أَن يُطلب الاجمالٌ ساذجٌ طبيعيٌ ينشأ عن العافية واعتدال في جميع الاعضاء . وهذا لا يُستفاد ويُحفظ الا بالقانون الصحي والرياضة . وأُقيم مكان الطبّ اختراع الاطعمة اللذيذة وجميع الاطعمة المتبّلة التي تهيج في الناس شهوة الطعام . ومكان استرداد الصحة وارجاع الشهوة الطبيعية للطعام بالمسهلات المخرجة للأَخلاط تكرَه الطبيعة وتُعمَل لها شهوة صناعية بكل ما هو مخالف لاعتدال المزاج . ومن ثمَّ نبّه سقراط على اختلال العادات في اهل عصرهِ وختم ذلك قائلًا ان الخطباء الذين عليهم ان يذكروا الناس ولو بصورة الامر بالحقائق الغير اللذيذة عندهم ويعطوهم الادوية المرَّة شفاء لما ابتلوا بهِ من امراض الاخلاق فهم بالعكس يعملون في النفس كما يعمل الطُهاة في الجسم . فخطابتهم والحالة هذه لم تكن الا كصنعة عمل المتوبلات لتملُق الناس المرضى ولم تكن لهم عناية الّا بان يخلبوا السامعين بحلاوة النطق ويهيّجوا فيهم التعجُّب من كلامهم . والحاصل ان هؤلاء الخطباء لم يخطبوا الا من أَجل انفسهم . وختم الكلام سائلًا اين أَبناء الوطن الذين شفاهم هؤلاء الخطباء من عاداتهم الردية . اين الناس الذين جعلهم هؤلاء الخطباء اعفّاء فضلاء . . اما تخال انك تسمع رجلًا من اهل عصرنا يرى ما حدث فيهِ ويتكلّم فيما فيهِ من سوء العادات الحاضرة فماذا تقول بعد ان سمعت ما قالهُ هذا الوثنيّ (يريد سقراط) في هذه الفصاحة التي لا تناسب الّا لتخلب وتعمل الصور البديعة مع ان الواجب كما قال هو نفسهُ ان تكوي وتقطع

في الحم وتطلب برصانةِ الشفاء برّ الادوية وبقساوة الحِمْيَة لكن احكم انت بنفسك في هذه الاشياء. أتستحسن أن يتفكّه الطبيب الذي يعالجك بسرد الجمل الظريفة والمعاني اللطيفة والداء مشتدّ عليك. وماذا تقول في المحامي الذي يأتي وهو يدافع عن مال أسرتك او عن حياتك باللطائف ويكسو مدافعتهُ رداء المحاسن اللفظية والدعوى تتقاضى البراهين القواطع وتهييج عواطف الحنان في القضاة. لا جرم ان محبة المال والحياة تبيّن لك ان ذلك شيءٌ من الهزء لكن ما نحن فيهِ من التجرُّد عن الآداب الحسنة وعن الديانة يصرفنا عن ملاحظة هذا في الخطباء الذين من الواجب عليهم ان يكونوا منتقدي احوال الشعب واطبّاءه. فما اطّلعت عليهِ في هذا الشأن من كلام سقراط هو مخجل لنا

٢ قد اتّضح لي الآن بمقتضى مبادئك ان الخطباء ينبغي ان يكونوا حُماةَ الشرائع ومعلّمي الشعب ليعلموهم الفضيلة غير ان فصاحة المحاماة عند الرومانيين لم تبلغ هذا الحدّ

١ كان ذلك ولا ريب غرضها. ومن ثمّ كان الواجب على الخطباء ان يحاموا عن براءة الناس وحقوقهم حين لا يكون لهم سبيل الى ان يظهروا في خُطَبهم حاجات البلاد العامّة. ومن هنا يؤخذ ان هذه الصناعة اي صناعة الخطابة كانت مكرَّمة وقد ذكر لنا شيشرون علوّ مقام الخطيب الحقيقيّ

٢ لكن لنبحث عن الطريقة التي يتعيّن على الخطباء ان يسلكوها في كلامهم. اسألك ان تفسّر لي آراءك في ذلك



١ لا اذكر لك آراءي واستمرّ على مخاطبتك بحسب القواعد التي اعطانا اياها القدماء حتى اني لا اذكر لك الا الاشياء الاصلية حيث لا تنتظر ان اسرد لك تفصيلاً طويلاً في قواعد علم الخطابة. فهنـاك كثير ممَّا لا يُفيد فلقد طالعتها في مطوَّلات كتبها لحسبنا ان نتكلَّم فيما هو اهمّ. ان افلاطون في المحاورة التي انشأها على لسان سقراط وفدر قال ان الغلطـة الكبيرة للبيانيين هي انهم يطلبون فنّ الاقناع قبـل ان يتعلموا باصول الفلسفة الصحيحة ما هي الاشياء التي ينبغي ان يجتهدوا فيها لاقناع الناس قال على الخطيب ان يبدأ بالنظر في الانسان عموماً ثمَّ يقبل خاصّةً على معرفة افراد الناس الذين يخطبهم وهكذا يلتزم ان يعرف ما هو الانسان. وما هي غايتهُ. وما هي مصالحهُ الحقَّة. ومن اي شيء هو مركَّب اي انهُ من جسم ونفس. وما هي الطريقة الصادقة لإسعادهِ. وما هي اهواؤهُ. وما هو الافراط فيها وما هي طريقة تعديلها وترتيبها. وكيف يتسنَّى لهُ ان يسوق اهواء الانسان ليحبّب الخير اليهِ. ويلتزم ان يعرف ايضاً ما هي القواعد التي تُعيشهُ باطمئنان وتحفظ الالفة. فبعد هذا النظر العامّ يأتي النظر الخاصّ فينبغي ان يعرف شرائع بلادهِ وعاداتها وما لها من العلاقات مع مزاج الشعوب واخلاق كل من الناس واختلاف التربيـة وما يسود في عصرهِ من الاوهام والمصالح ووسيلة تهذيب العقول وتثقيفها. فهذه المعارف تشتمل كل الفلسفة الراهنة وهكذا اثبت افلاطون ان الفيلسوف انما هو الخطيب الحقيقيّ. وبهذا المعنى يلتزم ان يفسر كل ما قال في محاورة غيورجياس في الانتقاد على البيانيّين اي على الناس الذين كانوا قد اتخذوا زخرفة الكلام والاقناع صناعةً بدون ان

يعرفوا بمقتضى القواعد ما يجب عليهم ان يقنعوا الناس بهِ . والحاصل ان الصناعة الحقيقية كلها على رأي افلاطون منحصرة بسعة العلم بما يلزم ان يُقنع بهِ وباهواء البشر وطريقة اثارتها ليصل الى الاقناع . واما شيشرون فقال نحواً من هذه الامور فتخلَّص من قولهِ اوَّلًا ان الواجب على الخطيب الَّا يجهل شيئاً اذ قد يحتاج ان يتكلَّم في كل شيء . ولا يسعهُ ان يُجيد الكلام الّا فيما احاط بهِ علماً كما قال سقراط ثمَّ ان يقتصر بسبب الحاجات الماسَّة وقِصَر الحياة على ما هو اشدّ احتياجاً اليهِ من المعارف . فأقلّ ما ينبغي للخطيب ان يحكم معرفتهُ هو قسم الفلسفة المختصّ بالاخلاق ولا يُرخَّص لهُ ان يجهل الَّا دقائق علم النجوم والعلوم الرياضية واخصّ ما تنبغي لهُ معرفتهُ تركيب الانسان وطبيعة اهوائهِ فان الغرض من الخطابة ان تحرّك اهواءهُ عند وجود الداعي . واما معرفة الشرائع فتُطلب للخطيب بمنزلة اسٍ لجميع خُطبهِ لكن يُحظَر عليهِ ان يقضي عمرهُ في التضلُّع من كل مسائل الفقه لاجل بيان الاسباب اذ يتهيَّأ لهُ متى مسَّت الحاجة ان يلتجئ الى الفقهاء تكميلًا لما ينقصهُ من تلك الجهة وهو كأفلاطون يوجب على الخطيب ان يكون منطقياً ماهراً يعرف التعريف والقياس . ولا يذهب عليهِ شيء من ادقّ المغالطات . وقال ان الخطابة تُهدَم اذا انفصلت عن الفلسفة . ويكون الخطباء في حالةٍ يُهزأ بها خالين من قوَّة الحكم . وهو يوجب على الخطيب دقَّة العلم بكل مبادئ الأدب ودرساً خاصاً لآثار القدماء من اليونانيين وان يقرأ كتب المؤرخين لا لمجرَّد عبارتها بل للاطّلاع على حوادث التاريخ واخصّ ما يُكلَّف الخطيب مطالعتهُ دواوين الشعراء وذلك لشدَّة العلاقة بين

الصُوَر الشعريّة والصُوَر الخطابية. وبالجملة فانهُ كثيرًا ما يؤكد على الخطيب ان يملأ ذهنهُ من الاشياء قبل ان يتكلم. واني اتذكر الفاظهُ بعينها اذ كثيرًا ما قرأتها وكثيرًا ما اثّرت فيَّ. ستنذهل من كل ما يكلّف بهِ الخطيب. قال يجب ان يكون للخطيب تدقيق المنطقيين وعلم الفلاسفة وعبارة الشعراء وصوت اعظم المشخّصين وحركاتهُ فانظر ايّ استعدادٍ يستدعي كل هذا

٣ حقًّا قد لاحظتُ في كثيرٍ من الفُرَص ان اكثر ما يفوت بعض الخطباء المتوقّدي الافئدة انما هو اساس العلم لان عقلهم يظهر خاليًا منهُ فتراهم يقاسون عناءً كبيرًا في ايجاد ما يملأون بهِ خُطَبهم ويظهر انهم لا لا يتكلمون لامتلائهم من الحقائق لكنهم يطلبون الحقائق بقدر ما يريدون أن يتكلموا

١ ان شيشرون يسمّي هؤلاء الناس بُلغِيّين اي ليس في كسبهم فضلة عن قوتهم اليوميّ فهم على رغم ما يبذلون من الاجتهاد تأتي خطبهم دائمًا عجافًا جائعة فليس لهم وقت ان يستعدّوا ثلاثة اشهر قبل ان يعملوا خطبة تُلقى على الجمهور فلا جرم ان هذه الاستعدادات الخاصّة مع انها متعبة تجيءُ بحكم الضرورة ناقصةً جدًّا. ولا يلبث الرجل الحاذق ان يلاحظ ما فيها من الضعف فيجب على الخطيب ان يقضي عدَّة سنين ليكسب مادّة غزيرةً فتصير الاستعدادات الخاصّة قليلة الكلفة بعد ذلك الاستعداد العامّ فالخطيب القليل المادَّة اذ لا يتفرَّغ الا لمعرفة نُتَف من العلوم متقطعة تُلجئهُ الحال الى الاتيان بمقابلات لا طائل تحتها والى ان لا يتكلم الا في المواضيع المبتذلة والى ان يذكر الاشياء بصورةٍ مبهمةٍ غير مفهومةٍ لقصورهِ عن ايضاحها

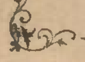
ويلفِّق عباراتٍ متنافرة لا ائتلاف بينها فلا يبيّن مبادئ الاشياء الحقيقية ويقتصر على البراهين السطحية الكاذبة غالبًا ويكون غير كفوء ليبيّن سعة الحقائق من حيث ان كل الحقائق العامّة لها بالضرورة سياق ينتظمها فينبغي للخطيب ان يعرفها كلّها كي يستطيع ان يبحث على ثقةٍ في واحدةٍ منها بحثًا خاصًّا

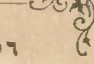
٣ مع ذلك فمعظم الذين يخطبون ينالون الاشتهار ولا وسيلة لهم اليهِ الا الخطابة

١ نعم ان النساء وكثيرًا من العالم الذين يستسلمون للانبهار يستحسنون كلامهم لكن ذلك الانبهار انما هو تابع لما نالهُ الخطيب من الشهرة الكاذبة وهذه الشهرة لا تدوم الا اذا ايّدها حزبٌ من الناس امّا العارفون بالاصول وبغرض الخطابة فليس فيهم الا سأمة ونفور من مثل هذه الخطب الفارغة وازدراء لها

٣ تريد ان الانسان يقضي طويلًا من عمرهِ قبل ان يصعد منبر الخطابة فينقضي شبابهُ والحالة هذه قبل ان يدرك ما توجبهُ عليهِ ولا يبقى لهُ وقت لممارسته

١ أريد ان يتمرَّن على الخطابة في صباهُ اذ لا يخفى عليَّ ما يتبع ذلك التمرُّن من الفائدة لكن لا أُريد انهُ بحجّة التمرُّن يدخل اولًا في الوظائف الخارجية المزيلة حرّية الدرس. فالشابّ يستطيع ان يتمرَّن على الخطابة وقتًا فوقتًا لكن لا بدَّ ان يكون قد امعن النظر طويلًا في مطالعة الكتب الجيدة





٣ انا معك على ما تقول . هذا يذكرني واعظاً من أصحابي مادَّتهُ من العلم كرزق من لا يفضل كسبهُ عن قوت يومهِ ولا تخطر لهُ مادَّة الّا متى التزم ان يتكلم فيها فيعتزل حينئذٍ في منزلهِ ويقلّب اوراق كتاب توفيق النصوص وغيره من الكتب وبعض مجاميع مواعظ اشتراها وبعض ما جمعهُ من مقطَّعاتٍ متفرقة او وجد عندهُ اتفاقاً

١ انك لعالمٌ ان كل ذلك لا يصيّر الانسان حاذقاً فلا يستطيع ان يثبت شيئاً اذ ليس هو على ثقةٍ من شيء وكل ما يأتي بهِ يظهر انهُ مستعارٌ لا يجري من ينبوعهِ ويخطأ في حقّ نفسهِ خطأً بيّناً من يُسرع في اظهار ذاتهِ للناس

٢ اذاً قُل لنا قبل ان تفارقنا ما النتيجة العظيمة للبلاغة في رأيك

١ قال افلاطون ان الخطبة ليست بليغة الّا بقدر ما تؤثّر في نفس السامع ومن هنا يتأتى لك ان تحكم حكماً صحيحاً في كل ما تسمع من الخُطَب . فكل خطبة لا تحرّكك بل تفكّه ذهنك ولا تهيج اهواءك وقلبك مهما كانت مليحةً لا تُعدّ بليغةً . وهذا شيشرون يوافق افلاطون في هذا الشأن حيث يقول ان كل قوَّة الكلام ينبغي ان تؤول الى تحريك ما اكنّتهُ الطبيعة في قلب الانسان من الاهواء لذلك شاور نفسك لتعرف هل اجاد الخطباء الذين سمعتهم . وهل نجع كلامهم في قلبك وصادف وقعاً حسناً . وهل صيّروا نفسك منتبهةً حسَّاسةً بما قالوا . وهل أَلهبوك ورفعوك فوق ما كنت فاعتقد انهم ادركوا غرض البلاغة لكن اذا هم مكانَ ان يلينوك او يلقوا فيك اميالاً قويّة لم يتعدَّوا ان يأتوا بعبارةٍ مونقةٍ ويخلبوك بإحكام




معـانيهم ورونق تعبيرهم فقُل هؤلاء هم خطباء مُبطِلون

٢ انتظر قليلًا ان شئت وائذن لي ان أُلقي عليك ايضًا بعض اسئلةٍ

١ اودّ لو استطيع الانتظار لاني مسرور هنا لكنَّ عليَّ شغلًا ليس في اليد تأجيلهُ سأعود غدًا واراك ونتمّ هذا البحث في زمنٍ اوسع

٢ اودّعك اذًا سيدي الى غدٍ

المحاورة الثانية

في انهُ يتعـيّن على الخطيب لادراك غرضهِ ان يثبت موضوعهُ ويصفهُ ويّس القلوب – وفي قواعد الخطابة . وفي اسلوب استظهار المواعظ وايرادها وفي اسلوب التقسيم والتفريع . وفي ان على الخطيب ان يتحامى الصناعات اللفظية فانها حلىً باطلة

٢ نِعمَ الرجل انت فقد انجزت الوعد ورجعت في الوقت المعـيَّن فانّ محاورة امسِ تركتنا ذاهبي الصبر لكي نصل الى تتمّتها

٣ ها قد اسرعت خوف التأخر اذ يعزّ عليَّ ان يفوتني شيء منها

١ ان مثل هذه الفنون من المباحثات لا يخلو من الفائدة اذ تحتكّ فيها الآراء فينطق كلٌّ باحسن ما قرأهُ . اما انا سادتي فقـد استفدت كثيرًا في مباحثتكم وانتم تحمّلتم حرّيتي

٢ دع المدح وانا ايضًا اعترف اني لولاكم لكنت حتى السـاعة غريقًا في



كثير من الاغلاط فبالله الّا ما تتمّ اخراجي من لجّتها

١ ان سمحتَ لي قلت ان اغلاطك انما هي اغلاط اكثر الناس الصالحين الذين لم يعنوا النظر في هذه المواد

٢ اذًا اتمّ شفاءي منها . لدينا اشياء جمّة للكلام فلا نُضع الزمن ولندخل في القضية اقتضابًا بلا تمهيد

١ فيمَ كنّا نتباحث امس حين افترقنا . بذمّتي لم اعد اتذكّر

٣ قد تكلمت في البلاغة التي بها يقوم كل ما يهيج الحسّ

٢ نعم لم أكد افهم هذا . كيف تفهمهُ انت

١ ها هو الامر . ماذا تقول في رجلٍ يقنع بدون اثبات اقول ليس هو خطيبًا حقيقيًا لانهُ مقتدر على ان يُغوي الغير اذ كانت لهُ حذاقة في اقناعهم بدون ان يبيّن لهم ان ما يقنعهم بهِ هو الحقّ فمثل هذا الرجل قد يجرُّ الخطر على البلاد . هذا ما رأيناهُ في براهين سقراط

٢ انا معك على ذلك

١ لكن ماذا تقول فيمن يثبت الحقيقة بطريقة دقيقة عارية ويورد حُججهُ بصورة جيّدة او فيمن ينحو في خُطَبهِ منحى المهندسين ولا يمزجها بشيء من التنشيط والتخيُّل . أيكون هذا خطيبًا

٢ كلّا انما يكون فيلسوفًا

١ فيترتّب على ذلك لإيجاد خطيب ان يُختار فيلسوف اي رجل يسعهُ ان يثبت الحقيقة ويضمّ الى سداد براهينهِ طلاوة وحدَّة خُطبةٍ مختلفة المواضيع ويُقام خطيبًا




٢ نعم لا ريب

١ هل هذا هو الفرق بين الاثبات بالفلسفة والاقناع بالخطابة

٢ كيف تقول. لم افهم قولك

١ اقول ان الفيلسوف انما يثبت واما الخطيب فيجمع بين الاثبات والاقناع

٢ كذلك لم ينجلِ الامر بعدُ. ماذا يبقى بعد ان يبرهن للسامع ممَّا ينبغي ان يُفعَل

١ يبقى عليهِ ان يعمل ما يعملهُ الخطيب زيادةً على ما يعملهُ عالم بالالهيَّات يثبت لك وجود الله. ان العالم بالالهيَّات يورد لك دليلًا ساذجًا لا يتجاوز التأمل اما الخطيب فيضمُّ الى ذلك الدليل كل ما يهيج حسَّك ويحبّب اليك الحقيقة المثبتة وهذا ما يُسمَّى الاقناع

٢ الساعةَ فهمت مقصودك

١ قد اصاب شيشرون حيث قال لايسوغ ان تنفصل الفلسفة عن الخطابة لان قوة الاقناع بلا علم ولا حكمةٍ مضرَّة مفسدة. واَمَّا الحكمة بلا صناعة الاقناع فلا تبلغ ان تستميل البشر ولا ان تدخل الفضيلة في القلوب. فمن الجيّد ان نلاحظ هذا في سياق الكلام لنتبيّن فرط ما كان عليهِ من الاغترار اهل القرن الاخير. قد كان فيهِ من جهةٍ ادباء وفُصحاء لا يتطلبون الَّا فصاحة اللغة والكتب المهذَّبة العبارة فهؤلاء لم تكن لهم معرفة باصول التعليم الراهنة . ولقد كانوا مع ما هم عليهِ من الادب والعام خالعي العذار. ومن جهةٍ اخرى كان اهل الفلسفة في ذلك العصر جافين خشنين

يكشفون الحقيقة باسلوب مستكرهٍ قليل التأثير الى حدّ ان يبعدوا عنهم معظم الخلق. هذا خروج عن الموضوع اسألك اغتفارهُ وها اني ارجع الى غرضي. فاقول ان الاقناع يزيد على مطلق الاثبات من حيث لا يقف عند اثبات الحقيقة فقط بل يصفها وصفًا يصوّرها بهيئة مستحبَّة ويُقبِل بالقلوب اليها. ومن ثمَّ فانَّ الخطابة انما تقوم بأنها تضمّ الى البرهان المتين الوسائل التي تستميل السامع وتحرّك اهواءهُ للمقصود الذي يرومهُ الخطيب فهي تزرع فيهِ الاحتقار لكفر النعمة. والغيظ من الخشونة. والرحمة عند الشدَّة. والمحبة للفضيلة وهلمَّ جرًّا. وهذا ما يدعوهُ افلاطون التصرُّف في نفس السامع وتحريك عواطفهِ. هل فهمتهُ الآن

٢ نعم فهمتهُ وعرفت ان الخطابة ليست اختراعًا باطلًا يُراد بهِ خلب الناس بحلاوة الكلام بل هي صناعة رصينة جمَّة الفائدة للأدب

١ من هنا يأتي ما قال شيشرون من انهُ رأى كثيرًا من المتفاصحين المتأنقين في القول لكنهُ لم يرَ فيهم قطُّ خطيبًا حقيقيًّا اعني انسانًا يتوصّل الى قلوب الناس ويقتادها الى مقصدهِ

٢ لم أُعد أندهل من ذلك فقد رأيت انهُ لا يكاد احد يميل الى هذا الغرض واثبت الك ان شيشرون نفسهُ واضع هذه القاعدة قد خالفها كثيرًا فيما يظهر. ماذا تقول في المحسّنات التي حلّى بها خُطَبهُ يظهر لي انها تفكه العقل لكنها لا تحرّك القلب

١ سيدي ينبغي ان نميّز ان مقالات شيشرون في صباهُ ايام كان لا يلوي الَّا على تحصيل الشهرة وبُعد الصيت كانت ملطوخةً في الغالب بهذه

الشائبة . ويتبيّن انهُ كان بتنميق العبارة اشغل منهُ بصحة دعواهُ . ويقع هذا حين يوكل الخصم بدعواهُ وكيلًا لا يهمّهُ عملهُ الَّا من اجل ان يتمّ وظيفتهُ بتنميق وبهرجةٍ ومن ثمَّ نرى المحاماة تتحول غالبًا عند الرومانيّين الى تنميق وزخرفةٍ لكن لا بدَّ بعد كل شيء من الاعتراف بأن في هذه الخُطَب بل في اكثرها ابداعًا وتنميقًا كثيرًا من الصناعة لقصد الاقناع واثارة الحسّ . مع ذلك اذا اردت ان تعرف شيشرون فلا تنظر الى هذه بل انظر فيما انشأ من الخطب في حاجات البلاد بعد اذ طعن في السنّ عند ما اختبار الحوادث الكبيرة ومحبة الحرّية ومخافة ما كان يتهدّدهُ من الشقاء جعلتهُ يأتي من الجدّ ما يجدر بالخطيب فلما اقتضت الحال ان يؤيّد الحرّية الميتة ويهيج البلاد بأسرها على انطونيوس (١) عدوّهِ لم يعُد يتطلّب النكات والطباق البديعيّ في تلك الخطب هو بليغ على الحقيقة فقد اغفل فيها كل ما يجب اغفالهُ من التنميق الصناعيّ في الخطب المستلزمة الحدَّة والحماسة كما قال هو نفسهُ في الخُطَب . وانما كان يتطلّب في الامور الطبيعية ليس غير كلما هو خليقٌ بان يقبض قلوب الناس وينعشها ويستميلها

٣ كثر ما تكلّمت في النِكات حتى احببتُ أن اعرف ما هي على التحقيق فاني اعترف لك بانهُ قد شقَّ عليَّ ان أُفرّق عند الاقتضاء بين النكات وبين ما يرافقها من محاسن الحديث . يظهر لي أنَّ العقل يتفكه بكل خطبةٍ مدبّجة بالمحاسن البديعية

(١) انطونيوس من حكام رومية وُلد سنة ٨٣ ومات سنة ٣٠ ق م




١ عفواً ان محاسن بعض العبارات على رأي شيشرون ناشئة عن قوّتها وعن طبيعة الموضوع

٣ لا أفهم كل مصطلحات الفنّ هذه ففسّر لي ان شئت بكلام واضح بماذا يتهيّأ لي ان أعرف النكتة البديعية التي لا فائدة لها من التحسين المفيد

١ بالمطالعة وامعان النظر يتسنّى لك معرفة ذلك لأن النكات البديعية كثيرة مختلفة الانواع

٣ لكن ايضاً تكرّم وقل لي ما هي علامتها العامّة. أهي التكلّف

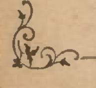
١ ليس هذا كل نوعٍ من التكلّف انما هو تكلّف الواعظ ان يخلب بحلاوة العبارة ويعرض عقلهُ

٣ هذا بعض ما اطلبهُ لكني أريد ايضاً علاماتٍ ادقّ لتساعد بصيرتي على التفريق بين الامرين

١ هاك واحدةً منها ولعلّها تكفيك. قُلنا ان الخطابة لا تقوم بالبرهان وحدهُ بل بصناعة تهييج الاهواء واما لاجل تهييجها فلا بدَّ من وصفها. ومن ثمَّ أرى ان كل الخطابة تنحصر بالبرهان والوصف وحسن الوقع. فكل الافكار اللامعة التي لا تتّجه الى احد هذه الاشياء الثلاثة فما هي الّا نِكاتٌ بديعيةٌ

٣ ما الذي تدعوهُ وصفاً. لا أفهم كل لُغتك

١ اعلم اني لا أُريد بالوصف وصف الاشياء فقط بل أُريد بهِ ايضاً استحضار الاحوال بصور محسوسةٍ شديدة التأثير تخيّل للسامع انهُ يراها مثلاً المؤرّخ



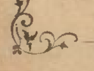

البارد الذي يخبر بموت ديدون (١) يكتفي بالقول انها كانت مضنوكة بألمٍ بعد سفر إينه حتى لم تقدر ان تطيق الحياة فصعدت الى ذروة قصرها واضرمت النار والقت نفسها فيها فماتت حريقاً. فباستماعك هذا الكلام تعلم الحادثة لكنك لا تراها. اسمع فيرجيل فهو يمثل الحادثة امام عينيك. أليس حقاً انهُ حين يجمع احوال هذا اليأس. ويصور لك ديدون غضبى بوجهٍ عليهِ صورة الموت يمثلها حينئذٍ متكاملةً امام هذه الصورة وهذا السيف ينقلك تصورك عند ذلك الى قرطجنة وتظنُّ انك ترى اسطول التروادييّن الذي يبتعد من الشاطئ والملكة التي لا شيء يعزّيها فتحسُّ بما احسَّ بهِ المشاهدون المعاينون. فلم يَعُد يظهر لك ان ما تسمعهُ هو كلام فيرجيل بل يشتغل فكرك عن فيرجيل بآخر ما سمعتهُ من كلام ديدون التعيسة. في هذا الوصف يغيب فيرجيل الشاعر ولا تعود ترى الَّا ما يمثّلها للنظر ولا تعود تسمع الَّا الكلام الذي يقولهُ على لسان ديدون فهذا ما تصنعهُ قوَّة الاقتداء والوصف. ومن هنا يُعلم ان ما بين المصوّر والشاعر علاقةً قويّةً. اما المصوّر فللعيون واما الشاعر فللآذان. وعلى كليهما ان يمثّلا الاشياء للاذهان. وقد ذكرت لك مثلًا مأخوذاً من شاعرٍ لتفهم الامر باجلى وجهٍ. حيث ان التصوير في الشاعر هو اشدّ واقوى منهُ في الخطيب. ان الشعر لا يختلف عن الخطابة الساذجة الَّا بهذا وهو انهُ يصف الاشياء بحماسةٍ وبأوصافٍ

(١) ديدون بنت بلوس ملك صور قتل اخوها. بيكماليون زوجها فهربت الى شواطئ افريقية واختطّت مدينة قرطجنة

اغرب وابدع . وأما النثر ففيهِ تلك الصفات والالوان إلّا انها أخفّ وبدون هذه الصفات لا يمكن تهييج مخيلة السامع ولا إثارة اهوائهِ . واما القصة الساذجة فما تبلغ ان تهيج القلوب فلا ينبغي الاقتصار على اخبار السامعين بالحوادث بل لا بدَّ من جعلهم يحسّون بها وايرادها بصورةٍ تثير حسّهم ممثلةً تمثيلًا تامًا بالكيفية التي وقعت بها

٣ ما كنت افهم كل ذلك واما الآن فقد فهمت ان ما تسمُّونهُ وصفًا هو جوهريّ في الخطابة لكن جعلتني اعتقد ان لا خطابة بلا شعرٍ

١ اعتقدْ ذلك باطمئنانٍ واطرح ميزان الشعر . ان العاميّ الجاهل يتصور ان الميزان هو الشعر وعندهُ ان الشاعر مَنْ يأتي بالكلام موزونًا على ميزان بحرٍ ما . والحال ان الامر على الضدّ من ذلك . فكثير من الناس يشعرون بدون نظمٍ وكثير ينظمون ولا يعملون الشعر . لِندع الميزان . اما في سائر ما بقي فالشعر الجيّد ليس هو الّا تخيُّلًا حيًّا يصف الطبيعة فان لم تكن لهُ قوَّة الوصف مطلقًا فلا يبلغ الى ان يطبع الاشياء في نفس السامع بل يكون كلُّهُ جافيًا ذابلًا مسئمًا . ان الانسان من لدن معصية آدم قد انغمس في الاشياء الحسيَّة وهذا هو شقاؤهُ العظيم فلا يسعهُ أن يصغي طويلًا الى ما هو مجرَّد معنويّ صرفٌ . فينبغي من ثمَّ ان تجسّم لهُ كل ما تُريد ان تدخل في ذهنهِ من التعاليم فانهُ لا تنجع فيهِ الّا الصور المحسوسة لذلك قد احدث الشعر وعبادة الاوثان منضمَّين معًا ديانة القدماء على اثر الجريرة الآدميَّة . لكن لا نخرج عما نحن في صددهِ فانك ترى ما قلتهُ وتعلم ان الشعر اي وصف الاشياء الحيّ هو بمنزلة الروح من الخطابة



٣ لكن ان كان الخطباء الحقيقيُّون شعراء فالشعراء على ما يظهر لي خطباء من حيث ان الشعر مناسب للاقناع

١ لا ريب ان الغرض منهما واحد وانما الفرق بينهما فيما قلت الك ان الشعراء فوق الخطباء. فالحماسة تجعلهم ارفع وانشط واجرأ في كلامهم. هل تذكر ما قد ذكرت لك عن شيشرون

٣ يا عجبا أما . . .

١ ان الخطيب ينبغي ان يكون تعبيرهُ مثل تعبير الشعراء فكفى بلفظة «مثل» في هذا الشأن بيانًا

٣ قد فهمت الساعة جيدًا. وكل هذا انكشف لعقلي . فلنعُد الى ما وعدتنا به

١ ستفهمهُ عن قليلٍ. ماذا يفيد في الخطاب كل ما لا يفيد واحدًا من هذه الثلاثة الاشياء: الاثبات والوصف وتحريك القلوب

٣ يُفيد خلب الالباب بحلاوة التعبير

١ لنميّز ان شئت. ان التحسين المفيد للاقناع جيد. والبراهين الثابتة الواضحة تخلب ولا ريب قلوب السامعين. وحركات الخطيب النشيطة الطبيعية تعطي الكلام طلاوةً والاوصاف الصحيحة المشخِّصة الموصوف تسرّ السامع. ومن ثمَّ فالاشياء الثلاثة التي نستحسنها في الخطابة تُرضي لكنها لا تقتصر على الارضاء . فنحن الآن في صدد ان نعرف هل نستصوب الافكار والعبارات التي لا يراد بها الّا الارضاء ولا يترتب عليها فائدة. هذه هي التي اسميها نكتةً بديعيّة. فتذكّر ان شئت أني امدح كل محاسن الخطاب التي

يستعان بها على الاقناع ولا ارفض الّا التي يحاول بها الخطيب المحبّ نفسهُ أَن يصف نفسهُ ويفكّه السامع بجودة عقلهِ مكان ان يقتصر على ان يبيّن لهُ الموضوع الذي يتكلّم فيهِ. لذلك ارى ان لا بدّ من ان يُذمّ كل تلاعبٍ لفظيّ اذ ليس هو الّا باردًا وصبيانيًّا بل وكل تلاعبٍ فكريّ اعني كل التعابير التي لا فائدة لها الا التنميق حيث لا تتضمن شيئًا راهنًا ولا هي معينة على الاقناع

٣ ارتضي بذلك بطيب خاطرٍ لكن اما تزيل بهذا التضييق التحسينات الاصلية للخطاب

١ أما تجد ان فيرجيل وأُومِر هما من المؤلفين المقبولين. أتظنّ ان في المصنفين الذّ منهما. مع ذلك لا ترى في كتبهما ما يُسمَّى النكات البديعيّة فان كتبهما ساذجة. كل ما فيها طبيعيّ والصناعة خفيّة في كل موضعٍ منها فما تجد فيها كلمة واحدة يظهر انها وُضِعت اظهارًا لعقل المؤلف فهو يعلّق كل رفعتهِ ومجدهِ على ان لا تظهر الصنعة في كلامهِ. وذلك ليشغلك بما وصف من الاشياء. فمَثَلهُ مَثَل مصوّر يخطر لهُ ان يضع امام ناظريك الغابات والجبال والأَنهار والاشياء البعيدة والبنيَّات والناس وحوادثهم واعمالهم واهواءهم المختلفة. ذلك بلا ان تستطيع ان تلاحظ ضربات القلم ان الصناعة تكون غليظةً حقيرة حين تظهر. قد قرَّر افلاطون الذي فاق الخطباء في امتحان ذلك كلهِ ان الواجب على من يكتب ان يتوارى وينسى نفسهُ ولا يُظهر الا ما يريد ان ينصبهُ امام عيني القارئ من شيء أَو شخص. فترى كم كانت افكار القدماء اعلى من افكارنا وأَرصن




٢ قد ذكرت لنا في شأن الوصف ما يكفينا. فقل لنا شيئاً في الحركات وما الفائدة منها

١ فائدتها ان ترسم في عقل السامع ما يصوّر مقصد المتكلّم

٢ لكن بايّ شيء تقوم هذه الحركات

١ تقوم بالكلام وأعمال الجسم

٢ ايُّ حركةٍ يمكن ان تحصل بالكلام

١ سترى. ذكر شيشرون ان اعداء كراكوس (١) انفسهم لم يتمالكوا ألّا يبكوا عند ما نطق بهذا الكلام «يا لشقاءي الى اين اذهب. أي ملجإ بقي لي. أالكبيتول (٢) قد صبغ بدم اخي. ام بيتي أرى فيهِ اماً والهاً تذوب بكاء

(١) كراكوس لقبٌ لاخوين كانا من الحامين عن حقوق الشعب والخطباء المشهورين في مدينة رومية احدهما طيباريوس والآخر كايوس قُتل الاول منهما سنة ١٣٣ ق م والآخر سنة ١٢١ ق م . وامهما كورنيليا بنت سيبون الافريقيّ المشهور بانتصاره على انيبال القرطجنيّ توفي زوجها ولها اثنا عشر ولداً لكن لم يبقَ منهم الّا بنت وذكران اشتهرا بالبسالة والذكاء . ومن الخليق بالذكر ان كورنيليا كانت حازمة نشيطة مثقَّفة العقل فربَّت ولديها على حبّ الخير للجمهور وحبّ المجد والاعمال الكبيرة وسألتهما يوماً هل يبقى الناس يدعونني بنت سيبون ام يجيء يوم اكنَّى فيهِ بأمّ الكراكوسيّين. ويُروى ان امرأة طليانية ارتها ذات يوم حلاها ونفائس امتعتها وسألتها ان تريها ما عندها من ذلك فاحضرت كورنيليا ولديها وقالت لها هذان حلاي ونفائسي

(٢) الكبيتول هيكل وحصن على رابية برومية كانوا يكلّلون فيهِ المنتصرين على الاعداء وعلى مقربةٍ منهُ صخرة عالية كانوا يرمون من فوقها المتَّهمين بالخيانة

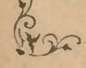
وتموت توجُّعاً » هذا من حركات الكلام فلو قيل هذا بدعةٍ لفقد قوتهُ ولم يُسِل من اعداء كراكوس دموعهم

٢ أتعتقد ذلك

١ اذا جرَّبت الامر تعتقده نُظيري . ها نحن هؤلاء نورد العبارة بصورة أُخرى فترى « لا ادري الى اين اذهب في بليَّتي اذ لم يبقَ لي معاذٌ ولا ملجاء . اما الكبتيول فهو المكان الذي سفك فيهِ دم اخي واما بيتي فهو المكان الذي ارى فيهِ امّي باكيةً تفجُّعاً » انظر كيف فُقِدت حدّة الكلام الاوَّل الذي تدلّ عباراتهُ المتقطعة أوضح دلالةٍ على الطبيعة في فورة التفجُّع . فطريقة ذكر الاشياء تريك الوجه الذي بهِ تستشعرها . وهذا ما يؤثّر في السامع كثيرًا في مثل هذه المقامات ليس فقط لا تلازم الافكار لكن يجب الغاء الترتيب والارتباط بين الجُمَل وبدون هذا لا يكون التأْثر شبيهاً بالحقّ ولا شيء يشقّ على السمع مثل التعبير عن حركات القلب بالعبارات المنمَّقة المتّسقة . واحيلك في هذا الشأن على لونجنيوس فتطالع ثمة مقالاتٍ بديعةً لديوستان في هذا الباب

٢ قد فهمت كل هذا لكنك حملتنا على ان نسأَلك تفسير عمل الجسم فلا اعفيك من ذلك

١ لا اطمع في ان انشئ هنا كتاباً يستوعب علم الخطابة وما أنا اهلاً لمثل هذا التأليف . انما اذكر لك بعض ما لاحظتهُ ان عمل الجسم عند اليونانيّين والرومانيّين اشدّ ممَّا هو عندنا كما نرى ذلك في شيشرون وكنتليان . فكانوا يضربون الارض بالقدم ويلطمون جباههم وشيشرون يمثّل لنا بنفسهِ خطيباً




يرتمي على الحزب الذي يدافع عنهُ ويمزّق ثيابهُ ليُظهر للقضـاة ما اصابهُ من الجراح في خدمة البلاد فهذا عملٌ حماسيّ مختصّ بالاشياء الخارقة العادة. ولم يكن يلتزم الاشارات كل وقت الخطابة. ومن الثابت ان ليس من الطبيعيّ الاستمرار على الاشارات وتحريك الذراعين وانما تُحرَّك الذراعان متى اخذت الخطيبَ الحدَّةُ. ولا يسوغ لهُ كل وقت الخطابة ان يحرّكهما ليشير الى انهُ محتدّ اذ من الاشياء ما ينبغي ان يُذكَر بدَعَةٍ وبدون إشارات جسميَّةٍ

٢ فيا للعجب هل تريد ان الخطيب مثـلًا لا يعمل حركة في بعض الاحوال. هذا غريب فيما يظهر لي

١ اسلِم انهُ قد جعل كقاعدةٍ او كعادةٍ ان على الخطيب ان يتحرَّك على كل ما ينطق بهِ ممَّا لا يستدعي الحركة لكن سهلٌ علينـا ان نثبت ان خطباءنا يكثرون من الحركات ولا مقتضي لكثرتها ويُقلُّون منها عند وجود المقتضي

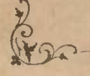
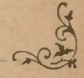
٢ وَيْ ألتمس منك ان تفسر لي هذا اذ كنت اعتقـد دائمًا تبعًا لما رأيتهُ من حالة الواعظ فلان عند الاداء اي النطق بالموعظة ان حركات اليد التي تُعمَل في كل موعظةٍ ليست الّا نوعين او ثلاثة انواع

١ لنعُد الى الاصل. ما الفائدة من عمل الجسم. أليس الفائدة منهُ ايضاح ما في النفس من الاحساسات والاهواء

٢ لا ريب في ذلك

١ اذًا حركة الجسم هي تصوير خواطر النفس

٢ نعم

١ فيجب ان تكون هذه الصورة (اي حركة الجسم) مشابهةً لما تصوّره من خواطر النفس وعليهِ فينبغي ان كل شيء من الحركات يمثل ويصوّر احساس القائل وطبيعة الامور التي يتكلّم فيها . واعلم يقيناً انهُ لا يجوز الغلوّ في ذلك حتى يتوصل الى تمثيل سافلٍ مضحك

٢ يظهر لي انك مصيب وقد اتّضح لي مقصودك فائذن لي ان اقطع عليك الحديث لابيّن لك مزيد فهمي لكل نتائج قواعدك . تريد ان الخطيب يُوضح بعملٍ حيّ طبيعي ما لا يوضحهُ كلامهُ الا بوجهٍ ذابل . ومن ثمَّ فعلى رأيك ذلك العمل نفسهُ هو صورة

١ لا ريب وهاك ما يلزم استنتاجهُ . ان اجادة التصوير تستلزم تقليد الطبيعة ورؤية ما تعملهُ حين يُطلَق لها ان تعمل والصناعة لا تخالفها

٢ أُوافقك على ذلك

١ اذًا لننظر . هل يُعمل طبيعياً كثير من الاشارات عند ذكر اشياء مألوفة لا يخالطها هوًى ما

٢ كلَّا

١ اذًا ينبغي أَلَّا تُعمَل الاشارات في مثل هذه الاحوال في الخُطَب العامّة او يُعمَل قليل منها اذ ينبغي لكل شيء ان يتبع الطبيعة . زِد على ذلك ان هنالك اشياء كانوا يوضحون بها افكارهم باجلى وجهٍ بالامتناع عن كل حركة . ان المرء في شدَّة تأثرهِ تعروهُ بهتةٌ قصيرةٌ وهذه الوقفة تحيّر انفس السامعين كلهم

٢ اعلم ان مثل هذه الوقفة اذا استعملت في محلّها تكون حسنةً




جدًّا وجديرةً ان تمسّ قلب السامع لكن اخالك تلجئ من يخاطب الجمهور أَلَّا يستعمل من الاشارات الا ما يستعمل الانسان حين يتكلم في خلوتهِ

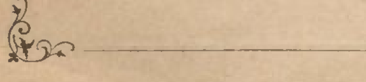
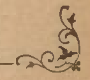
١ عفوًا ان منظر جمعية كبيرة وخطارة موضوع الكلام لا جرم انهما اشدّ تهييجًا واعظم تنشيطًا للانسان من المخاطبة الساذجة . على انهُ لا بدَّ في المخاطبة العامَّة والمخاطبة الخاصَّة ان تكون الحركات دائمًا موافقةً للطبيعة فينبغي أَن يكون لجسم الخطيب حركة متى كان لكلامهِ حركة . وأَن يستمرَّ هادئًا متى لم يكن كلامهُ الا عذبًا ساذجًا . لا شيء يرفضهُ العقل ويشقّ على السامع مثل ان يتكلف المرء ليقول لي اشياء باردةً . بينَ هو يعرق يجمد دمي . قد اتّفق لي مرةً ان نمت في الوعظ وانت تعلم ان النعاس يفاجئُ من يحضرون المواعظ بعد الظهر . لذلك لم يكن القدماء يَعِظون الّا صباحًا في القدَّاس بعد تلاوة الانجيل . فلما انتبهتُ سمعتُ الواعظ يتحرَّك حركةً غير معتادةٍ فظننت انهُ في شأن عظيم

٢ اذًا في ايّ شأن كان

١ كان ينبِه السامعين انهُ سيعظ الأَحد الآتي في التوبة فهذا التنبيه الملفوظ بشدَّة عظيمة اذهلني ولقد كان اضحكني لو لم يردّني احترام المكان واجلال الموعظة . ان حال معظم هؤلاء المتنطّعين من جهة الاشارات كما هو من جهة الصوت . وصوتهم على حالٍ واحدٍ واشاراتهم على هيئةٍ واحدةٍ فهي مضجرة وبعيدة عن الطبع ومخالفة ما يُنتظر من فائدة الحركة

٢ قد قلتَ انهم يقلُّون من الحركات عند المقتضي

١ أَيسوغ التعجُّب من ذلك . لم يميّزوا الامور التي تطلب الحدّة . ويبذلون

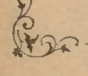


الوسع في الامور المبتذلة فيضطرّون الى ان يذكروا على دَعَةٍ الامور المقتضية عملًا حماسيًّا. وهنا لا بدَّ لي من الاعتراف بأن أُمّتنا غير اهلٍ لهذه الحماسة فهي خفيفة الطباع جدًّا. ولا تحسن تصوُّر هذه الامور. اما غيرنا من مثل الرومانيين واليونانيين خصوصًا فقد كانوا مُعجَبين بتلك الحماسة والشرقيُّون بارعون فيها ولا سيما العبرانيين. اذ لا شيء يساوي النشاط والقوة فيما كانوا يستعملون في خُطَبهم من المجازات بل وفي الاعمال التي كانوا يعملونها لاظهار احساساتهم من مثل وضع الرماد على رؤسهم. وتمزيق ثيابهم ولبسهم المسوح في الشدَّة والبأساء. لا اتكلم هنا في الاشياء التي كان الانبياء قد عملوها ليصوّروا بأقوى ما يكون الاشياء التي ارادوا ان ينبئوا بها. وذلك لان الله قد اوحاها اليهم. لكن اذا صرفنا النظر عن الوحي رأينا ان هؤلاء الناس كانوا اعرق منا بما يوضحون به توجّعهم وخوفهم وسائر آلامهم فلا جرم انهُ عن ذلك قد نشأت هذه الآثار العظيمة للبلاغة التي لم نعُد نراها

٢ أتروم كثيرًا من التفاوت في الصوت والاشارات

١ ذلك التفاوت هو الذي يصيّر الاداء شديد الوقع ومن ثمَّ فقد فضَّلهُ ديموستنان على كل شيء. وكلما كان الصوت والحركة مألوفين في مقامات التعليم والاخبار والاغراء ظهر لهما شدَّة وقع في المواضع التي يرتفعان فيها بحماسةٍ فجائيةٍ. وهذا التفاوت فنٌّ من الموسيقى والحال كلُّهُ قائم باختلاف طبقات الصوت التي ينبغي ان ترتفع وتنخفض تبعًا لما يُراد اظهارهُ بها

٢ لكن اذا سُلّم لك ذلك كان اخصُّ خطبائنا من الصناعة الحقيقيَّة بمكانٍ. والخطيب الذي سمعناهُ معًا منذ خمسة عشر يومًا لم يتبع هذه القاعدة



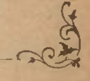


ولم يظهر ايضاً انهُ حافلٌ بها فقد لفظ الخطبة كلها بنغمةٍ واحدةٍ الا الثلاثين كلمةً الاولى وكل ما كان من الفرق في خطبتهِ بين مقامات الحدَّة ومقامات الدعة هو انهُ في مقامات الحدَّة كان يُسرع في الكلام اكثر من المألوف

١ عفواً سيدي لصوتهِ نغمتان لكنَّهما غير مناسبتين لكلامهِ. لقد اصبت بقولك انهُ لم يتقيَّد بهذه القواعد حتى اظنّ انهُ لم يشعر بالاحتياج الى ذلك فان صوتهُ مطرب خلقةً ومع انهُ لم يراعِ فيهِ اختلاف الطبقات تبعاً لمقتضى الحال فلم يزل مرضياً لذيذاً غير انهُ كما رأَيت لم يحدث في النفس تأثيراً شديداً كما كان قد احدث لو توفَّرت له التصرُّفات الصوتيَّة المظهرة الوجدانات بنغمات مثل اجراسٍ جميلة ذات صوتٍ صافٍ لذيذٍ مستحسن غير انها لا تدلُّ على شيء ولا اختلاف في اصواتها وبالنتيجة فهي خالية من حسن الانتظام والفصاحة

٢ لكن هذه السرعة في الخطاب مع ذلك مستحسنة لطيفة جداً

١ لا ريب انها لطيفة. أُوافقك على وجوب الاسراع في الكلام في مقامات النشاط لكن التكلّم بسرعةٍ زائدة والعجز عن التوقف عيب كبير. فمن الامور ما يجب عليهِ ان يؤيدها ويقرّرها. وذلك بتأثير الصوت كما في الاشعار فقد يلزم ان تكون طبقة الصوت بطيئةً وثقيلةً تمثّل الاشياء التي بهذه الصفة كما قد يلزم ان تكون الطبقة قصيرةً حادّةً لتدلّ على الاشياء النشيطة الحادَّة . واعلم ان ملازمة حركةٍ واحدة وطبقة واحدة للصوت هو بمنزلة اعطاء دواءٍ واحدٍ لكل داء. على انهُ ينبغي ان يُغتفر لهذا الخطيب التزام حالةٍ واحدةٍ في الأَداء اي طبقة واحدة في الصوت والحركة. اذ ما عدا

ما لهُ من الصفات الممدوحة فان التزامهُ الشائبة المشار اليها ضروريٌّ لهُ . واليك بيان ذلك . قد قلنا ان لا بدَّ من ان طبقة الصوت توافق الكلام دائماً وعبارة واعظنا على نمطٍ واحدٍ ليس فيها تنوُّع انماطٍ . فهي من جهة ليس فيها شيء مبتذل ولا مرغب ولا عاميّ ومن اخرى فلا شيء فيها من النشاط ولا من التخيّل ولا من العلو . بل هي سياق لكلام متَّسق وخلاصات صحيحة واقيسة منتظمة قاطعة وذات صور موافقةٍ لما تصوّرهُ . وبالجملة فهو يعبّر عن المعنى باللفظ المواجه له ويذكر الاشياء الصوابية . ويلزم ان يعترف ايضاً ان لهذا الخطيب على المنبر ايادي عظيمةً فقد حرَّرهُ من عبودية المتفاحصين وعزّزهُ بقوَّة عظيمةٍ فانهُ مقتدر على الايضاح لكن لا اعرف خطيباً اقلّ منهُ اقناعاً وفعلاً في القلب اذا لاحظتَ ذلك ترى انهُ غير لبقٍ في الاداء اذ عدا ان ليس لهُ طريقة حاثّة مألوفة كما اننا قد لاحظنا ايضاً ان لا شيء فيهِ من الاسلوب الودّي الحنون وكل اقوالهِ براهين تقتضي جهد الفكر وامعان النظر . لا يبقى في اذهان سامعيهِ ما يقول وهذا كالسيل الذي يمرّ بمرَّةٍ واحدة ويترك مجراهُ يبساً . واما التأثير المستمرّ فيستلزم ان تُساعَد العقول بتحريك الاهواء . ان التعاليم الجافّة لا تنجع ابداً . لكن ما اجدهُ في هذا الخطيب من مخالفة الامور الطبيعية هو انهُ لا يبرح محركاً يديهِ حركةً دائمةً مع انهُ لا تحريك ولا تخيّل في كلامهِ . فمثل هذا النمط يستلزم من التعبير أداء مألوفاً موافقاً لهُ اما الأداء الحادّ النشيط فيستلزم عبارةً ممتلئةً احتداداً وحماسةً ويلزم كما قلنا ان يحسن مراعاة هذه الحماسة ويجعلها متفاوتة . وجملة القول ان هذا الواعظ رجل عظيم لكنهُ ليس خطيباً فان مرسل قريةٍ أهلاً لأن يُخيف

ويُسيل الدمع هو اكثر اصابةً لغرض الفصاحة من هذا الواعظ

٢ لكن بايّ وسيلة تُعرَف بالتفصيل الاشارات والتصرُّفات الصوتيّة المناسبة لمقتضى المقام

١ قد قلت لك . كل صناعة الخطباء الجيدين لا تقوم الا بالمحافظة على ما تعملهُ الطبيعة وهي مطلقة عن كل قيدٍ . فلا تسلك ارشدك الله مسالك الخطباء السَفَلَة الذين يحاولون التفاصح دائمًا ولا يتكلمون لسامعيهم ابدًا والحال ان الامر بالعكس فيلزم ان كلًّا من سامعيك يتصوّر انك تخصُّهُ بالكلام . وهذه الفائدة المترتبة على الاصوات الطبيعية المبتذلة المغرية فينبغي ان تكون تلك الاصوات ابدًا رصينةً محتشمةً وان تكون ذات خشوع في مقامات الشدَّة والحمية . فلا تأمل ان تكشف الاهواء بمجرَّد رفع الصوت . فان كثيرًا من الناس اذ يصرخون ويتحركون لا يتولَّد عن صراخهم وتحركهم الا اقلاق السامعين . واذا أُريد النجاح في وصف الاهواء فلا بدَّ من ملاحظة الحركات التي تستدعيها تلك الاهواء . مثلًا لاحظ ما تعملهُ العينان . وما تعملهُ الايدي . وما يعملهُ سائر الجسم . وكيف جلستهُ . وما يعملهُ صوت الانسان وقد اخذهُ التوجُّع والتحيُّر عند رؤية شيء مذهل فهذه الحركات هي الطبيعة ظاهرة لك فالتزم اتباعها . واذا استعملت الصناعة فأَخفِها كثيرًا بالمتابعة حتى تظهر كأَنها الطبيعة بنفسها . لكن في الحقيقة ان الخطباء كالشعراء الذين يعملون المراثي او ينظمون اشعارًا أُخر تترجم عن اهواء القلب فيلزم ان نحسّ بالهوى لنحسن وصفهُ . فان الصناعة مهما كانت بارعةً لا تتكلم كالهوى الحقيقيّ ومن ثمَّ فستبقى ابدًا خطيبًا قاصرًا عاجزًا اذا لم تستشعر وتحسّ

بالوجدانات التي تريد ان تصفها وتجعل الناس يستشعرونها. لا اقول هذا من الجهة الروحانية بل انما اتكلم هنا بمنزلة خطيب

٢ فهمت ذلك لكن ذكرت لنا العيون فهل لها شيء من الفصاحة

١ لا شكَّ في ذلك ان شيشرون وسائر القدماء قد أثبتوا ذلك. لا شيء أدلّ من الوجه على ما بالقلب. فانهُ يكشف كل شيء وللعينين من دلالة الوجه تلك الحظّ الاوفى. ان نظرةً واحدة في وقت مناسب تنفذ الى عمق القلب

٢ أذكرتني ان الخطيب الذي نتكلم فيهِ كان يغمض عينيهِ اكثر الاوقات فهذا ينفّر الناس منهُ اذا رأوهُ عن قرب

١ ان اغماض عينيهِ يُشير الى انهُ ينقصهُ شيء مما شأنهُ ان ينعش خطبتهُ

٢ لكن لمَ يفعل ذلك

١ يسرع في النطق فيُغمض عينيهِ لان ذاكرتهُ تشتغل كثيرًا

٢ قد رأيت ان ذاكرتهُ ممتلئة من المواضيع كل الامتلاء حتى انهُ يكرّر جملة الفاظ ليتذكر المعنى الذي كان فيهِ وهذه التكريرات ممجوجة ومثلهُ فيها مَثَل تلميذ لم يُحسن حفظ درسهِ وهي اي تلك التكريرات تحطُّ من مقام الخطيب الذي هو أوطأ من ذلك

١ لا ينتقد في ذلك على الخطيب بل على الطريقة التي اتبعها اقتداء بكثير من الخطباء فكلما استظهر واعظٌ عظتهُ وقع في هذا الارتباك

٢ اذاً كيف أتريد ان لا يُوعَظ من الحفظ. ان كان ذلك فلا يُنشأ ابدًا خُطَب متينةٌ سديدة

١ لا اقصد ان احظر على الخطباء استظهار بعض الخُطَب الممتازة




بحيث يكون لهم زمن يسع الاستعـداد لها ويصحّ لهم ايضاً ان يستغنوا عن الاستظهار

٢ كيف ذلك . هذا فيما يظهر لي غريب

١ ان كنتُ مخطئاً فمستعدٌّ للرجوع عن خطاءي . لنبحث بلا غرض ولا هوًى . ما هو الغرض الاصليّ الذي يتحرَّاهُ الخطيب . ألم نرَ ان لا غرض لهُ الا الاقناع او لم نقل انهُ من اجل الاقناع ينبغي ان يحرّك القلوب بتهييج الاهواء

٢ صحيح ما قلت

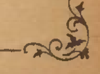
١ اذًا ان النمط الانشط والاهيج هو الافضل

٢ هذا هو الصواب . ماذا تستنتج من ذلك

١ ايُّ الخطيبين يظفر بالنمط الانشط والأهيج . المستظهر الخطبة ام المتكلم بلا استظهار ما تلقنهُ كلمةً فكلمةً

٢ يظفر بهِ المستظهر الخطبة

١ انتظر . فلنمعن النظر في المسئلة اضع في جهةٍ رجلًا ينشئُ كل خطبتهِ وينقحها ثمّ يستظهرها كلّها لا يترك منها حرفًا . وفي جهةٍ أُخرى أَضع رجلًا عالمًا يتدفق علماً بموضوعهِ ينقاد لهُ الكلام ذليلًا (اذ لا تدخل هنا من لا ذكاء لهم) ويوغل في تأمل كل اصول موضوعهِ الذي سيتكلم فيهِ وفي حالة تلك الاصول كلها ويرتبها في ذهنهِ ويُعدّ اقوى العبارات التي يتنزل بها موضوعهُ منزلة المحسوس وضوحًا ويرتّب كل براهينهِ ويهيّئ عدّة تعابير بديعة مؤثرة . فذلك الرجل والحالة هذه يعرف بعد هذا كلّ ما ينبغي لهُ ان يقولهُ

والموضع الذي ينبغي ان يضع فيهِ كل شيء ولم يتبقَّ عليهِ لاجل الاتمام الا ان يجد العبارات العامّة التي يتكوَّن منها هيكل الخطبة. اتظنّ انهُ يصعب على مثل هذا الرجل ان يجد تلك العبارات

٢ لا يجد العبارات المناسبـة اللائقة بالمقصود مثل ما يجدها على رِسْلهِ في غرفتهِ

١ هذا حقيق عندي لكن على رأيك لا يخسر الا قليلًا من التحسين وانت ادرى بما ينبغي ان نحكم في هذه الخسارة جريًا على ما وضعنا من الاصول. من جهة اخرى كم يربح من حرّية العمل وقوتهِ وهمـا الركن في الخطابة. اذا افترض انهُ زاول الكتابة طويلًا كما يطلب شيشرون واطّلع على كل المؤلفات الجيدة الجديرة بان ينسج على منوالها واستولى على زمام الكلام باستسهالٍ طبيعيّ ومكتسب. وكان بعيد الغور في الاصول واسع العلم. واحسن النظر في كامل موضوعهِ. واحسن ترتيبهُ في ذهنهِ يُستدلّ بالضرورة انهُ يتكلم بجزالة وترتيب وغزارة مادَّة. نعم عبارتهُ تفكّه السامع وهو الاولى اذ بذلك يُجيد في الخطابة. واماَّ كون تخلصاتهِ غير رشيقة فلا يشوّه خطبتهُ على انهُ يتيسَّر لهُ ان يستعدّ لتلك التخلُّصات بدون ان يستظهرها. وزد على ذلك ان مثل هذه الشوائب لا تُعدّ الا من باب الاهمال. وقد وقع فيهـا الخطباء الفصحاء من القدماء الذين من رأيهم ان الواجب في ذلك تقليد الطبيعة وان لا يظهر افراط في الاستعداد. اذًا ماذا يخسر. يرتكب شيئًا من التكرير لكن ذلك لا يكون خاليًا من الفـائدة لان السامع الحسن الذوق يلتذُّ بان يشعر بان هذا التكرير طبيعي. اذ ان الطبيعة تكرّر غالبًا من الموضوع ما هو اشدّ

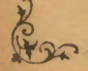
تأثيرًا فيها وايضاً لان هذا التكرير يمكّن الفضـائل والحقائق في الذهن كأنَّهُ يطبعها فيهِ طبعاً . وذلك هو الاسلوب الحقيقيّ للتعليم . وقصارى القول انهُ قد يُنتقد على خطبتهِ بان فيها تسامحًا في بعض التراكيب وبعض الفاظ غير موافقةٍ او منتقدةٍ عند مجمع العلماء (الاكادميا) وشيئًا من الشذوذ واذا شئت فقل من الضعف واساءة الوضع تسوقهُ اليهِ حرارة العمل . فلا بدَّ ان يكون المنتقد صغير العقل حتى يظنّ هذه الشوائب كبيرةً وفي نفس النُسَخ الاصلية للخُطَب امثال هذه الشوائب واحذق القدماء لم يبالوا بمثلها . واما نحن فان كانت لنا مقاصد جليلة كحذَّاق المتقدمين فلا نشتغلنَّ بهذه السفاسف . فان الناس الذين لم يبلغوا ان يميّزوا الاشياء العظيمة هم الذين يتفكَّهون بهذه الاشياء . سامحني على ما فرط مني فاني ما توسعت معك في هذا الحديث الا لأني لا اعدُّك من طبقة اولئك الناس

٢ لستَ في حاجة معي الى الاحـتراس في الحديث . اتمّ الكلام الى الآخر بدون توقُّفٍ

١ انظر ايضاً سيدي ما هي الفوائد التي يصيبها من لا يستظهر الخطبة فهو يتسلَّط على نفسهِ ويصوّر الطبيعة في كلامهِ ولا يتكلَّم كخطيب متفاصح بل يخرج الكلام من فيـهِ كما يجري الماء من الينبوع فان كان مطبوعاً على الفصاحة كانت عباراتهُ نشيطةً وممتلئةً حركةً والحرارة الثائرة فيهِ توجد لهُ من العبارات والتصوُّرات ما لا توجدهُ لهُ التروئة

٢ لِمَ ذلك . فان الانسان تأخذهُ الحميَّة وهو في منزلهِ فينشئ خُطَباً ذات نشاطٍ

١ هذا حق لكن الأَداء يضمّ اليهـا ايضاً اكبر حميَّة ونشاط وزد على ذلك ان ما توجده حرارة الأَداء من العبارات هو كلهُ أَعرقُ في الطبيعة واشدّ وقعاً في القلب ويظهر عليهِ عدم التكلف ولا يُشتمّ منهُ رائحـة الصناعة كما يشتمّ في اكثر ما يؤلف مع التروئة والاستعداد. وأَضِف الى ذلك ان الخطيب الحاذق المتحنك يقيس الامور على التأثير الذي يرى انها تدخلهُ على السامع لانهُ يُحسن ملاحظة ما يقبلهُ العقل. وما لا يقبلهُ. وما يستدعي الانتباه وما يمسّ القلوب وما لا تصدر عنهُ هذه الآثار. وهو يكرّر هذه الاشياء بأُسلوب آخر ويُلبسها صوراً وتشابيه اشدّ وقعاً او يرتقي الى الاصول المتعلّق بها ما يُريد ان يقرّر في الاذهـان من الحقائق او يجتهد ان يشفي الاهواء التي تحول دون تأْثير هذه الحقائق. فهذه هي صناعة التهذيب والاقناع الحقيقية فان أُعرض عنها فلا يحصل الا تنميق مُبهَم لا ثمرةَ لهُ. فانظر ما ابعد الخطيب المستظهر عن هذا الغرض. مثّل أَمامك. انساناً لا يتجرأ ان يقول الا إمامهُ (اي درسهُ) اذ بالضرورة كل كلامهِ هناك حسن السبك جيّد الوصف ويحدث لهُ مـا لاحظ دانيس الهاليكرناسيّ انهُ حدث لايزوقراط فلأَن تكون موعظتهُ مقروَّةً أَجدر بها من ان تكون ملفوظةً على المنابر. وزِد على ذلك انهُ مهما جدَّ فطبقات صوتهِ على حالةٍ واحدةٍ مقتسرةٌ ابداً فليس هذا هو الخطيب بل هو قارئ خطبة مكتوبة وأَداوهُ على الضدّ من أَداء المرتجل. ووقوف عينيه عن الجولان يدلّ ان ذاكرتهُ تشتغل ولا يقدر ان يترك نفسهُ لحركةٍ غير معتادةٍ ما لم يتعرَّض لان ينسى سياق الخطبة. والسامع حين يرى ان الصناعة قد انكشفت كل هذا الانكشاف فعوض ان



ينجع الكلام في قلبهِ ويأخذ بمجامع فؤادهِ كما هو المقصود في الخطابة يلاحظ ببرودةٍ كل ما في الخطاب من الأُمور الصناعية

٢ ألم يفعل الخطباء القدماء ما انت تخطئهُ

١ اظنُّهم لم يفعلوا

٢ واعجبا تظنُّ ان ديموستان وشيشرون لم يستظهرا ما وصل الينا منهما من هذه الخطب الحماسية المستوفية الاتقان

١ نعلم أَنهم كانوا يكتبونها لكن لنا جملة أَدلَّة لتصديق أَنهم لم يكونوا يستظهرونها كلمةً فكلمةً حتى ان خُطَب ديموستان نفسها مكتوبة بالاسلوب الذي كُتبت بهِ وهي أَدلّ على بلاغة رجل ثاقب العقل متعوّد ان يتكلم بقوَّة في الامور العامّة منها على تدقيق مؤلفٍ واديبٍ . وأَما شيشرون فيرى في مواضع متفرقة من خُطَبهِ أَشياء طارئة ضرورةً لكن لنردّ الامر اليهِ في هذه المادَّة فهو يطلب ان يكون الخطيب قويّ الذاكرة . وقد تكلَّم ايضاً في الذاكرة الصناعية ونزَّلها منزلة اختراع مفيد . لكن كل ما قالهُ في هذا الشأن لا يدلُّ على ان من الواجب على الخطيب ان يحفظ خطبتهُ كلمةً فكلمةً بل يظهر بالعكس انهُ اقتصر على طلب ان الخطيب يرتّب في ذهنهِ بالتدقيق كل اقسام خطبتهِ ويتأَمل صُوَرها والعبارات الاصلية التي ينبغي ان تُستعمَل فيها مدَّخرًا الى ان يضيف عند الأَداء ما يقذفهُ في قلبهِ احتياج الموضوع وغرضهُ . ومن اجل هذا نفسهِ يطلب ان يكون الخطيب كثير الاجتهاد حاضر الذهن

٢ اسمح لي ان اقول لك ان ذلك كلَّهُ لا يقنعني ولا يصحّ عندي ان

احدًا يحسن الكلام ما لم يكن قد رتَّب كل كلامهِ

٣ قد عرفت ان ما أحال ذلك في اعتقادك هو انك تحكم في هذا الامر بمقتضى اختبارٍ عامّ . فاذا وعظ من استظهروا مواعظهم بدون هذا الاستعداد كان وعظهم فيما يظهر رديئًا. لا ادهش من ذلك اذ لم يتعوَّدوا ان يتَّبعوا الطبيعة ولم تدُر فِكَرهم الَّا حولَ تعلّم الكتابة بل حول التكلُّف والتعسّف فيها . ولم يمرّ بخواطرهم ان يتعلّموا التكلّم بأُسلوب عالٍ قويّ طبيعيّ مع ذلك فمعظمهم ليسوا من المتعمّقين في العلم ليُطمأنَّ اليهم . فاسلوب الاستظهار لا أدري كم يسهّل لذوي العقول القاصرة المتعلقة بظواهر الأُمور ان يلقوا الخُطَب العمومية وتصادف بعض الاستحسان . فان كان الخطيب غير متوقّد الفؤاد وقليل المادَّة يتوصل بجَلَدهِ الى ان يُعطي هذه الموادّ صورةً جميلةً . لكن لا بدَّ فيما بقي من امعان النظر في القواعد الأُولى ومعرفةٍ واسعةٍ بالأَخلاق ومطالعة كتب القدماء وقوَّة برهان وأداء . أليس هذا ما تطلبهُ من الخطيب الذي لا يستظهر ما يجب عليهِ ان يقولهُ

١ قد احسنت تفسير ذلك وانما أَرى ان لا بدَّ من ان تزيد عليهِ انهُ متى لم تكن هذه الصفات كاملةً في انسانٍ فهذا لا يمنعهُ ان ينشئَ الخُطَب الجيّدة بشرط ان يكون ثاقب العقل طلق اللسان آخذًا من العلم بنصيب . وبمقتضى كلتا الطريقتين تتعدَّد وتتفاوت طبقات الخطباء . واعلم ان اكثر الذين لا يستظهرون خُطَبهم لا يوفُونها حقَّها من الاستعداد فينبغي للخطيب أن يُمعن في تأمّل موضوعهِ وان يُعِدّ كل ما يؤثر من الحركات ويُرتب كل القضايا أَحسن ترتيب بالنظر الى ما يُقصَد منها

٢ قد كلَّمتنا عدَّة مرارٍ في شأن هذا الترتيب فهل هو غير التقسيم وهل عندك في هذا رأيٌ غريب

١ تروم الاستهزاء لستُ اقلَّ غرابةً في هذا الشأن من سائر الشؤون

٢ اظنك جادًّا في ذلك

١ لا تشكّ في الامر وبما اننا في هذا الحديث سأبيّن لك ان معظم الخطباء في عوَزٍ الى الترتيب

٢ بما انك شديد الحبّ للترتيب فلا يكون التقسيم مستكرهًا عندك

١ اني ابعد من ان أُوافقك على التقسيم

٢ لِمَ لا توافقني أما ان التقسيم يجعل الخطبة مرتّبةً

١ ان التقسيم يجعل الخطبة غالبًا مرتّبةً ترتيبًا ظاهريًا فقط لكن هذا التقسيم يذهب بهاء الخطبة ورونقها ويحصرها ويجزّئها الى جزءين او ثلاثة اجزاء. وهذه التجزئة تَقِف الخطيب عن الأداء وتذهب بالثمرة التي تتولّد منهُ اي لا تبقى الخطبة واحدةً بل تصير خطبتين او ثلاث خطب مختلفة لا يجمعها الا جامع اغتصابيٌّ. فموعظة اول امس وموعظة امسِ وموعظة اليوم اذا كان الغرض منها واحدًا كالمواعظ في الآحاد الاربعة السابقة عيد الميلاد يتألف منها اذا جُمعت خطبةٌ واحدة فهذه المواعظ التي هي بمنزلة ثلاثة اجزاء ليست الا موعظةً واحدةً اذا ضُمَّت الى بعضها

٢ ما هو الترتيب عندك وايُّ تشويش يحصل في الخطبة اذا لم تُقسَّم

١ اتظنّ ان في خُطَب ديموستان وشيشرون تشويشًا اكثر مما في مواعظ واعظ كنيستك

٢ لا اعلم ربّما لا

١ لا تخف ان توافقني على ذلك فان خُطَب هذين الرجلين العظيمين هي غير مقسّمةٍ بخلاف خطب هذه الأيّام · وليسا هما فقط لم يتّبعا هذه القاعدة بل ايزوقراط ايضاً الذي ذكرناهُ مراراً وسائر الخُطَباء القدماء فكلُّهم لم يتّبعوا هذه القاعدة وآباء البيعة لم يعرفوها وآخرهم القديس برنردوس (١) ينبّه غالبًا على التقسيم لكنهُ لم يجرِ عليهِ ولم يقسّم مواعظهُ · وقد مرَّ زمن طويل من بعدهِ والخُطَباء لا يقسّمون المواعظ وليس التقسيم الّا اختراعاً قريب العهد جاءنا من التعاليم المدرسية

٢ اسلّم ان المدرسة هي قدوة سيئة للخطابة لكن في ايّ قالبٍ كانت تُفرغ الخُطَب قديمًا

١ هنذا اقول لك ذلك لم يكن احد يقسّم الخطبة لكن الخطيب كان يصرف عنايتهُ الى تمييز الاشياء التي تقتضي الحال تمييزها ويعيّن لكل منها موضعهُ وكان يدقق النظر ليضع كلًّا حيث يجب ان يُوضَع ليكون اوقع أثرًا وافعل وقعاً · ان من الأمور ما اذا ذُكِر اولًا لا يُصادف حسن موقع واذا أُخِر الى ان يكون قد تهيأ لهُ السامع بأمورٍ أُخر تبيّن كل قوَّتهِ حصل لهُ في نفس السامع اشدّ تأثير · فان اللفظة اذا حلّت محلّها جلَت غالبًا الحقيقة وكشفتها ومن ثمَّ ينبغي لنا احيانًا ان نترك حقيقةً ما مستّرةً الى الختام

---

(١) برنردوس من اعاظم رجال النصرانيــة المجاهدين في الدين وُلد بقرية فُونتِن بجوار مدينة ديجون بفرنسا سنة ١٠٩١ وتوفي سنة ١١٥٣



وشيشرون يثبت لنا ذلك. فلا بدَّ من الاتيان في كل موضع بسلسلة براهين بحيث يكون الاوَّل ممهّدًا للثاني والثاني دعامةً للاوَّل. فعلى الخطيب اوَّلًا ان يبيّن الموضوع جملةً وينبّه السامع بكلام افتتاحيّ محتشم مرغّب وهيئة تَصِف الخلوص والنُصح ثم يُقرّر القواعد ثم يورد القضايا بوجهٍ ساذجٍ واضح موَثّر متوكئًا على الاحوال التي سيتكلَّم فيها. من القواعد والقضايا تُستخرَج النتائج وينبغي للخطيب أن ينهج في الاثبات منهجًا تتضافر فيهِ جميع البراهين على ان تكون سهلة الحفظ. وان يسلك المسلك الذي بهِ تتزايد الخطبة وضوحًا وتنجلي عَظَمة الحقيقــة للسامع اكثر فاكثر وان يأتي بالاساليب النشيطة والحركات الجديرة بتهييج الاهواء. وهذا يستلزم معرفة ما بين الاهواء من الصِلَات ومعرفة اسهل الاهواء تهيُّجًا وتهييجًا لغيرها كما يستلزم اخيرًا معرفة الاهواء التي تأتي باعظم النتائج والتي بها ينبغي ان تُختَم الخطبة. ومن المناسب غالبًا ان يُعمَل في الختام ملخَّص يجمع في قليل من اللفظ كل قوَّة الخطيب ويعيد امام اعين السامعين كل ما قال الخطيب ممَّا هو اشدّ اقناعًا. مع ذلك لا يلزم ان نلتزم هذا الترتيب على منهج واحدٍ اذ لكل موضوع استثناآت. وزِد على ذلك انهُ في هذا الترتيب نفسهِ قد يوجد تنوع لا ينحصر. وهذا الترتيب الذي قد اشار اليهِ شيشرون لا يصحُّ ان يُتَّبع كما تراهُ في خطبةٍ ذات ثلاثة اقسام ولا أن يُحافَظ عليهِ في كل قسم على حدتهِ. فلا بدَّ اذًا سيّدي من ترتيبٍ لا يكون موعودًا ولا مكشوفًا من اوَّل الخطبة. قال شيشرون الأفضل في اغلب الأحيان اخفاء ذلك وايصال السامع اليهِ بدون ان يفطن لهُ ويلزم الخطيب ان يُخفي حتى عدد البراهين بحيث لا يُستطاع لأَحدٍ ان

يعُدّها وان كانت متميّزةً في نفسها ولا يجوز ان يظهر تقسيم الخطبة. لكن غلاظة الازمان المتأخرة وصلت الى حدّ ان لا يُعرَف ترتيب الخطبة الّا اذا نبَّه عليهِ الخطيب في الابتداء او توقَّف عند كل قسم

٣ اما ان التقسيم يخفّف عن عقل السامع وذاكرتهِ وانما الغرض من التقسيم الافادة

١ نعم ان التقسيم يخفّف عن ذاكرة الخطيب وكذلك الترتيب الطبيعيّ الذي لم يُنبّه عليهِ هو اشدّ تخفيفاً عن ذاكرة الخطيب لان الارتباط الحقيقيّ بين المواد يرشد العقل . اما التقسيم الظاهر فلا يساعد الّا الدارسين الذين عوَّدتهم المدرسة هذه الطريقة وان كان الشعب احفظ للتقسيم من غيرهِ فذلك لكثرة تكرارهِ وفي الجملة فان الامور المؤثرة المكرّرة بالاستعمال هي ابقى الامور في الذهن

٢ ان الترتيب الذي عرضتهُ يكون مناسباً لبعض الموادّ لكنهُ لا يناسب جميعها وليس للخطيب دائماً قضايا ليرتّبها

١ متى لم يكن للخطيب قضايا يدع الترتيب لكن لا مادّة تخلو من القضايا. ان احدى حسنات افلاطون اكثارهُ من تصدير مقالاتهِ الادبية بقُصص وتقاليد هي بمنزلة اسّ لكلّ ما بقي من المقالة . وهذا النهج اشدّ موافقةً للذين يعظون عن الديانة اذ كل شيء فيها هو تقليد وقصة ومتعلق بالزمن القديم. واكثر الوعَّاظ لا يوفون التعليم حقَّهُ ولا يأتون بالبراهين القويَّة وذلك لعدم رجوعهم الى هذه الموارد

٢ قد كلّمتني طويلًا حتى صرت احتشم ان اوقفك اكثر الّا انّ



رغبتي في الاطّلاع تقتادني الى ذلك الا تسمح لي ان اطارحك بعض مسائل في قواعد الخطابة

١ سمعًا وطاعةً لم أعيَ وبقي لي وقت للمحادثة

٢ انت تجرّد الخطبة من كل التحسينات التي لا طائل تحتها لكن عرّفني اياها بأمثلةٍ جليَّة لاميزها من المحسنات الطبيعية والثابتة التي تقتضيها الخطبة

١ أتحبّ الدندنة في الموسيقى . اما تُفضّل عليها الانغام المنعشة التي تصف الاشياء وتظهر الاهواء

٢ لا ريب في ذلك ان الدندنة ليست الّا تلذيذًا للاذن ولا تدلّ على شيء ولا تهيج حاسَّةً ما . ولقد كانت موسيقانا فيما سلف مملوَّة منهُ لذلك لم تكن الّا مشوَّشة ضعيفة . اما اليوم فقد ابتدأ الموسيقيون يقربونها من موسيقى القدماء هذه الموسيقى ضربٌ من الانشاد كاشف للاهواء شديد الفعل بالنفس

١ اني لأَعلم ان الموسيقى الشديدة الفعل بقلبك تُعينني على ان أُفهمك ما يتعلق بالخطابة ففي الموسيقى نفسها نوع من الخطابة فينبغي ان تُطَّرح الدندنة في الخطابة كما تطَّرح في الموسيقى . أَلم يتَّضح لك ان ما اسميهِ اقوالًا مدندنةً هو الجناس اللفظيّ الذي يتكرّر كاللوازم في القدود والاشغال وبعض دندنات جملٍ مملَّة ذابلة فهذه الخطابة الكاذبة تشبه الموسيقى الرديئة

٢ زِدْني ايضاحًا في هذا

١ ان مطالعة كتب الخطباء من الصالحين المجيدين والمقصرين الاشرار تكسبك ذوقًا اصحّ ممَّا تكسبك اياهُ القواعد باسرها ويسيرٌ عليَّ ان

ارضيك بما اقدم لك من الامثلة التي لا شيء فيها لخطباء العصر وان كانوا مولعين بالمحسنات التافهة خشيةَ ان اجرح احدًا. فلنعُد الى ايزوقراط او ليست الخُطب الزاهرة ذات الجمل المنمقة هي الرائجة السوق عند اهل زماننا هل قرأت مديح هيلانة (١) المشهور

٢ نعم قرأتهُ فيما مضى

١ كيف رأيتهُ

٢ اعجوبة الاتقان لم ارَ مثلهُ قط في الذكاء والظرافة والحلاوة والاختراع واللطف. واعترف ان أُومر الذي قرأتهُ فيما بعد لم يظهر لي انهُ وصل الى مثل هذه اللطائف العقلية. امَّا الآن فقد أريتني الغرض الحقيقيّ للشعراء والخطباء فتبيَّن لي ان أُومر يفوق ايزوقراط اذ ان الصناعة في كلامهِ خفيَّة وهي في كلام ايزوقراط ظاهرة. كنت قد فُتِنت بايزوقراط ولو لم تخلّصني من ضلالي لبقيتُ مفتونًا بهِ ان فلانًا هو ايزوقراط زماننا وأرى الآن انك باظهار ضعف هذا الخطيب تنتقد على كل من يتطلبون هذه الخطابة المنمَّقة المتأنثة

١ لا اتكلَّم الَّا في ايزوقراط. انهُ في ابتداء هذا المديح ينهض محبة تازي (٢) لهيلانة. ويخال انهُ قد اعلى تصوُّر الناس في هذه المرأة ناعتًا ما كان من الصفات الشجاعية لهذا الرجل الذي كان مستهامًا بها مشيرًا بتلك النعوت الى ان الذي كان يصفهُ القدماء بالضعف وقلَّة الثبات في

(١) هيلانة اميرة يونانية مشهورة بجمالها كانت زوجة مينلاس خطفها باري الذي سبَّب غزوة اليونانيين لمدينة تراودة

(٢) تازي بطلٌ يونانيّ وهو ابن ايجي وملك اثينا

العشق لو كانت متوسطةً في الجمال لما استهام بها . ثم انتقل الى القضاء على باري قال ان جينون (١) وعدته التسلُّط على مملكة آسيا ومينرف (٢) وعدته الانتصار في الحروب وفنيس (٣) وعدتهُ بهيلانة الجميلة . وبما ان باري لم يستطع في هذه المحاكمة ان ينظر الى وجوه هؤلاء الآلهات بسبب ضيائها لم يقدر ان يميّز الّا قيمة الثلاثة الاشياء التي عُرضت عليهِ ففضّل هيلانة على المملكة والانتصار . ثم مدح المؤلف حكم من خضعت لنباهتهِ وذكائهِ الآلهات انفسهنَّ . وقال المؤلف ايضًا مدافعًا عن باري قد عجبت كل العجب رأيت كل احدٍ يخطئ باري من حيث اراد ان يعيش مع تلك التي كثيرًا ما اراد المتألهون ان يموتوا من اجلها

٣ اخال اني اسمع وعاظنا المكثرين من الطباق والنكات البديعية فأمثال ايزوقراط فينا كثير

١ هذا معلمهم . اما سائر هذا المديح فمشحون بنفس هذه اللطائف وهو مبنيّ على حرب ترِوادة الطويلة وعلى ما كابد اليونانيون من الشرور في استرجاع هيلانة وعلى مدح الجمال الشديد الغلبة على البشر . لا شيء في ذلك

(١) اسم آلهة وثنيَّة كانت من ازواج جوبتر وملكة الآلهة

(٢) آلهة العقل البشريّ عند الوثنيين

(٣) فيس آلهة الجمال عند الوثنيين يقولون انها وُلدت من زَبَد البحر ويمثّلونها غالبًا خارجةً من اللّجج ضافرةً شعرها واشهر تماثيلها القديمة اثنان الاول التمثال الذي صنعهُ ماديشيس وهو اليوم في مدينة فلورنس والثاني التمثال الذي وُجد في جزيرة ميلو سنة ١٨٢٠ للمسيح وهو في متحف اللوفر في باريس




المديح مثبت بدليلٍ قويّ وليس فيهِ حقيقة ادبية ولم يراعِ في الحكم في الاشياء الَّا اهواء الناس وليس الضعف في براهينهِ فقط ان عبارتهُ مزوَّقة ذات ليانة . وانما اوردت الك هذا المديح مع انهُ دنيويّ بَحْت لاشتهارهِ ولتهالك النـاس اليوم على هذا المنهج الرديْ وارصن ما بقي من خُطَب ايزوقراط تلوح عليهِ امارة الارتخاء في العبارة وهي مشحونة بهذه المحسّنات الكاذبة

٢ ارى انك لا تريد هذه الاساليب الاريبـة التي ليست هي براهين متينة قاطعة ولا حركات طبيعية وديَّة حتى ان ما تمثلت بهِ من كلام ابزوقراط هو جيّد ولو انهُ في موضوع لا طائل تحتـهُ لان التنميق في مثلهِ احسن منهُ في المواضيع الرصينة المتينة

١ لنعُد الآن الى ايزوقراط . هل اخطأت في قولي في هذا الخطيب ما كان يقولهُ فيهِ ارسطوطاليس كما اكَّد لنا ذلك شيشرون

٢ ماذا قال فيه شيشرون

١ قال ان ارسطوطاليس لما رأى ايزوقراط قد حوَّل فصاحة الأداء والاستعمال المعتاد الى التفكيه والافتخار وقد اجتذب بذلك اجلّ التلاميذ تمثَّل لهُ ببيت شعر من قول فيلوكتت (١) دلالةً على فرط تخجلهِ من السكوت وسماع هذا الخطيب المتنطّع . هذا يكفي . ينبغي ان اذهب

(١) فيلوكتت هو من اشهر ابطال اليونانيين الذين حاصروا ترِوادة وكان هيركيل قد وهبهُ سهامهُ المسمومة وقد خرج فيلوكتت باحد تلك السهام وهو ذاهب الى تروادة وانتن جرحهُ حتَّى تركهُ رفاقهُ في جزيرة لمنوس حيث بقي

٢ لا تذهب الآن . فلا تريد اذاً التضادّ البديعيّ

١ عفواً متى كانت الاشياء التي يذكرها الخطيب متضادّة طبعاً ينبغي اظهار ما بينها من التضادّ وهذه المتضادّات هي طبيعية وهي تحسّن ولا ريب تحسيناً راهناً وحينئذٍ يكون التضادّ أوجز واسذج منهج لايضاح الامور . لكن تطلُّب اسلوب للاتيان بكثير من الالفاظ هذا صبيانيّ . ذلك يبهر اوَّل الأَمر اهل الذوق الفاسد لكنهُ فيما بعدُ يتعب السامع من هذا التكلُّف . أتعرف ان هندسة كنائسنا القديمة تُسمَّى هندسة القرون المتوسطة

٢ نعم اعرفها وهي تشاهد في كل موضع

١ أما شاهدتَ هذه الورود وهذه النواتئ وهذه الزينات الصغيرة المنقطعة التي لم تتبع فيها قاعدة وبالاجمال هل رأيت كل هذه الزخارف الباطلة الممتلئة منها هذه الهندسة . فهذه الاشياء في الهندسة مثل المقابلة والجناس في الخطابة . اما الهندسة اليونانية فهي ابسط حيث لا تقبل الّا المحسّنات الطبيعية ذات العظمة ولا يُرَى في هذه الهندسة الّا ما هو عظيم ومناسب وموضوع في محلهِ . امّا هذه الهندسة الغوطية فاوجدها بعض الشرقيين فهؤلاء بما ان عقولهم حادَّة جدًّا ولم يكن لهم قاعدة ولا تهذيب فكان لا بدَّ لهم ان يطمحوا الى هذه الزينات في هذه الرقَّة الكاذبة ومن هنالك جاءهم الذوق الفاسد في جميع الاشياء فهم مموّهون في البرهان محبُّون للزخارف الباطلة في الهندسة ومخترعون للنُكت في الشعر والخطابة وذلك كلهُ من وادٍ واحدٍ

عشر سنين الى ان جاء عولص وديومد في طلبهِ لان الوحي انبأ اليونانيين ان تروادة لا تفتتح الّا بسهام هيركيل



٢ هذا تشبيه عجيبٌ جدًّا فالموعظة المشحونة بالمتضادَّات البديعية ومحسناتٍ أُخر امثالها مَثَلها على رأيك مَثَل كنيسة مبنيَّة على طرز بناء القرون المتوسطة

١ نعم الامر كذلك

٢ لي ايضاً سؤال أسألك ان تُجيب عليهِ ثم أُودّعك

١ ما هو

٢ يظهر لي من الصعب ان تُذكَر التفاصيل بعبارةٍ عالية ومع ذلك لا بدَّ منهُ متى اراد الخطيب ان يكون كلامهُ رصيناً كما تروم انت تكرَّم واذكر لي شيئاً في هذا الشأن

١ اهل بلادنا كثيرًا ما يخشون ان يكون كلامهم منحطاً عن طبقة البلاغة ولذلك ترى عباراتهم مبهمةً لا ماء فيها ولا رونق. فاذا قصد احدهم مدح قِدّيس تطلَّب الجمل المليحة فيقول كان هذا القديس عجيباً وفضائلهُ كانت سماويةً وكان ملاكاً لا انساناً وعلى هذا الاسلوب كل شيء يمرُّ معهُ بالهتاف بغير برهانٍ ولا وصفٍ . واما اليونانيّون فعلى الضدّ من ذلك تماماً فقد كانوا يُقلّون من جميع هذه الالفاظ العامّة التي لا تثبت شيئاً لكن كانوا يذكرون اموراً كثيرةً. فهذا أكزانوفون (١) في كتابهِ المسمَّى «تربية كورش» لم يَقُل مرةً ان كورش كان نادرة الزمان لكنهُ جعلهُ في كل موضعٍ نادرة العصر . وعلى هذا النمط ينبغي للخطيب ان يمدح القديسين مفصّلاً عواطفهم واعمالهم. ولنا في هذا الباب أدب كاذب شبيه بأدب بعض

(١) اكزانفون مؤرّخ مشهور وفيلسوف وقائد أثينيّ لهُ عدّة مؤلفات منها كتاب تربية كورش المذكور هنا وُلد سنة ٤٤٥ ق م ومات سنة ٣٥٥ ق م

القرويين الذين يدّعون بالظرف والنكات البديعيّة فهؤلاء لا يجسرون ان يقولوا ما لا يظهر لهم مايحاً وفائقاً وهم ابداً متكلّفون ظانّون أنَّهم ينحطّون كثيراً اذا سمّوا الاشياء باسمائها. كل شيء يدخل في مواضيع الخطابة حتى ان الشعر الذي هو الجنس الاعلى لاينجح ولا يحسن الّامتي وصف الاشياء بكل احوالها . فانظر كيف وصف فيرجيل السفن الترواديه المفارقة شاطئ افريقية او الواصلة الى جهة ايطاليا تجد وصفهُ مستغرقاً لكل احوالها . لكن لا بدَّ لنا ان نعترف ان اليونانيّين كانوا يتوغلون في الوصف ويتَّبعون الطبيعة اظهر اتّباع ومن اجل هذا التوغُّل في الوصف لو تجرَّأ كثير من الناس أن يحكموا على كلام أُومر لحكموا بأنهُ ساذج جدًّا وبهذه السذاجة الشديدة الغرابة التي صارت مهجورةً في ذوقنا كان اسلوب هذا الشاعر قويَّ الشَّبَه باسلوب الكتاب المقدَّس لكنَّ الكتاب المقدَّس يسمو عليهِ كما يسمو على سائر القدماء بسذاجة الوصف. واذا فصَّل الخطيب في وصف شيء فليس لهُ ان يمثّل لذهن السامع الَّا ما يستدعي الانتباه والالتفات وما يُعين على بيان الوصف الذي يُراد ادخالهُ في ذهن السامع. ومن ثمَّ لا بدَّ ان يكون ذا بصيرةٍ في اختيار الاحوال لكن ينبغي ألا يخاف ذكر كل ما يُعين على حصول الغرض المقصود. ومن الأدب الفاسد اسقاط بعض الاقوال المفيدة من حيث لا يجدها الخطيب محتملةً للمحسّنات وحسبنا دليلًا على ذلك أن أُومر يعلّمنا بمثالهِ ان كل موضوع يمكن تحسينهُ بحسب حالتهِ. ولا بدَّ لنا ان نعرف من جهةٍ أُخرى ان كل خطبةٍ ينبغي ان تختلف فيها العبارة باختلاف المعنى فيلزم ان تكون فخمةً في الاشياء العظيمة وساذجةً غير



سافلةٍ في الاشيـاء الصغيرة ويلزم تارةً السذاجة والتدقيق وتارةً العلو والحماسة. ان المصوّر الذي لا يصوّر الّا قصورًا ذات هندسة زاهية لا يصوّر شيئًا حقيقيًّا والناظر يسأم منظرها فيلزم ان يتَّبع الطبيعة في تنوُّعاتها اي بعد ان يصور مدينةً يكون من المناسب ان يرسم بريّةً واكواخ رعاةٍ. وجُلُّ من ينوون انشاء الخُطَب المحبَّرة يتطلّبون في كل موضعٍ منها فخامة العبـارة فيحسبون انهم اتمُّوا كل شيء متى اتوا بمجموع من الالفاظ الفخمة والمعاني المبهمة ولا يخطر لهم الَّا ان يثقّلوا خُطَبهم بحلى المحسنات ومَثَلهم في ذلك مَثَل الطهاة الاغبياء الذين لا يعرفون ان يضعوا التوابل بمقدار معتدل ويظنُّون انهم يطيّبون اللحم متى اكثروا لهُ من الملح والبهـار. ان الخطابة الصحيحة لا تفخم اللفظ ولا تتكلّف بل تعتـدل وتوافق المواضيع التي تتكلَّم فيها وتراعي الذين تعلّمهم وهي لا تتعظَّم ولا تعلو الَّا عند اقتضاء ذلك

٢ هذه الكلمة التي ذكرتها لنا عن الكتاب المقدَّس شوَّقتني الى ان تكشف لي جمالها. أما يتهيَّأ لنا ان نلقاك غدًا

١ في الغد يصعب عليَّ لقاؤك لكني ابذل الجهـد ان اجيء مساء واجابةً لطلبك نتكلّم في كلام الله اذ الى الآن لم نتكلّم الَّا في كلام البشر

٢ خاطرك يا سيدي. استحـلفك ان تنجز وعدك وان لم تأتِ نذهب اليك




المحاورة الثالثة

فيما هو قوام البلاغة الصحيحة . وفي كم هي عجيبة بلاغة الكتب المقدّسة . وفي جلالة تفسير الكتاب المقدس وطريقتهِ وفي وسائل التخرُّج في الوعظ . وفيما يجب ان يكون هو المادَّة العاديّة للوعظ . وفي بلاغة الآباء وعبارتهم وفي التقاريظ والتآبين

٣ كنت مرتابًا في انك تجيءُ ولذلك كدت انطلق الى بيت فلانٍ

١ كان عليَّ شغل يضايقني لكني تخلَّصت منهُ والحمد لله

٣ قد سرَّني ذلك جدًّا لانَّا على فرط الحاجة الى اتمام ما قد شرعنا فيهِ

٢ هذا الصباح حضرت موعظة في الكنيسة الفلانية فخطرتَ على بالي وقد سلك الواعظ في كلامهِ طريقةً تجتلب التقى غير اني لستُ على يقين بأنَّ الشعب قد فهم قولهُ حقَّ الفهم

١ كثيرًا ما يحدث مثل هذا . قد رأيت امرأةً ذكيةً ثاقبة العقل تقول ان الوعَّاظ يتكلَّمون لاتينيًّا بالفرنساوي (اى ان كلامهم غير مفهوم) فاخصُّ صفات الواعظ ان يُفيد لكن لا بدَّ لهُ ان يكون عالمًا لكي يتيسر لهُ ان يعلّم غيرهُ . من جهةٍ عليهِ ان يحيط علمًا بمعنى كلام الكتاب المقدَّس ومن جهةٍ اخرى عليهِ ان يعرف بتدقيق طبقات عقول من يخطب فيهم . وهذا الامر يطلب بسطةً في العلم وفطنةً متوقدة . فان الوعَّاظ يخطبون الشعب كل يوم عن الكتاب المقدَّس والكنيسة والعهدين والذبائح وموسى وهرون وملكيصادق والانبياء والرسل ولا يُعنَون بان يفهموهم ما تعني كل هذه الاشياء وما فعل اولئك الاشخاص فيتقضَّى على الناس عشرون سنة في ملازمة الوعَّاظ ولا يتعلمون الديانة كما ينبغي أن يُعلّموها



٢ اتظن ان الناس يجهلون هذه الاشياء التي ذكرتَ

١ لا شكَّ في أنهم يجهلونها فقليل هم الذين يفهمونها بحيث يتسنَّى لهم الانتفاع من المواعظ

٢ نعم العامَّة تجهلها

٣ أما ان العامَّة هي التي ينبغي ان تتعلَّم

١ زِد على ذلك ان معظم الناس الصالحين هم العامّة بذلك الاعتبار وان ثلاثة ارباع السامعين يجهلون هذه الآساس الاوليَّة للديانة التي يفترض الواعظ انهم يعرفونها

٢ هل ينبغي ان الخطيب يفسّر التعاليم المسيحيّ اذا كان السامعون من اهل الشرف

١ اعلم انهُ لا بدَّ حينئذٍ من مراعاة الحال لكن يتهيأ للخطيب بدون ان يحجف بشأن اولئك السامعين ان يذكرهم التواريخ التي هي اصل ورسم كل الاشياء المقدَّسة فان ما ينقصها من الاذكار بأصل تلك الاشياء ليس هو بالامر الواطي بل هو الامر الذي يكسب اكثر الخُطَب القوَّة والطلاوة. قد علمنا امسِ هذه الملاحظة ولاسيما فيما يتعلّق بالاسرار. فلا يتمكن الخطيب من ان يُفيد السامعين ويقنعهم ان لم يجرِّ الامور من اصلها ويأتِ بها من ينبوعها. فكيف تفهم الشعب مثلًا ما تكثر الكنيسة من قولهِ تبعًا للقديس بولس «ان المسيح هو فِصْحنا» ان لم تبيِّن ماذا كان فصح اليهود المرسوم ليكون اثرًا ابديًّا للنجاة من مصر ولكي يرمز بهِ الى نجاةٍ اعظم شأنًا كانت مدَّخرة للمخلّص. ولذلك قلت لك ان اكثر الامور في الديانة تاريخية فسبيل الوعَّاظ



ان يكونوا متبحرين في علم الكتاب المقدّس ليحسنوا فهم هذه الحقيقة

٢ عفواً ان قاطعتك الكلام بسبب فهم الكتاب المقدّس. قد قلتَ لنا امسِ انهُ بليغ وتعجَّبتُ اذ سمعتك تقول ذلك فاودُّ ان تكشف لي عن وجوه محاسنهِ. بماذا تقوم بلاغتهُ. ان لاتينيتهُ تظهر بربريَّة في كثير من المواضع ولا اجد لطفًا في المعاني فأين اذًا هذا الذي يعجبك

١ ان اللاتينية ترجمة حرفية قد التزم فيها المحافظة الشديدة مع الاحترام لكثير من الجمل العبرانية واليونانية فهل تزري على أُومر لأنَّا ترجمناهُ الى الفرنسويَّة بعبارة ركيكة

٢ اليونانيّ نفسهُ (لأنهُ اصل معظم العهد الجديد) يظهر لي غايةً في الركاكة

١ أُوافقك على ذلك. ان الرسل الذين كتبوا باليونانية كانوا ضعفاء المعرفة بها كسائر يهود زمانهم العارفين باليونانية ومن هنا يأتي ما قال رسول الله بولس: إني وإن اكن أُمّيا في الكلام لستُ كذلك في العِلم (٢ كو ١١ : ٦)

ومن هذا الكلام يظهر ان الرسول يعترف انهُ غير ضليع في اللغة اليونانية ولو كان مع ذلك يفسر لليونانيين تعليم الاسفار المقدّسة تفسيرًا دقيقًا

٢ ألم تكن للرسل موهبة اللغات

١ نعم كانت لهم تلك الموهبة بل قد نالها ايضاً جمّ غفير من عوامّ المؤمنين أما ما كانوا يعرفون من اللغات بالطرق الطبيعيّة فنعتقد ان الله تركهم يتكلمون بها كما كانوا يتكلّمون من قبل. فلا جرم ان الرسول بولس

الطرسوسي المولد كان يتكلّم طبعاً باليونانيّة المختلّة وهي لغة اليهود المتكلّمين باليونانيّة وقد رأينا أنهُ كتب على هذا الاسلوب أما القــديس لوقا فيظهر انهُ كان اعلم منهُ شيئاً بهذه اللغة

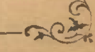
٣ كان في ذهني دائماً ان الرسول بولس يريد بقولهِ المذكور انهُ يرفض الفصاحة ويلتزم سذاجة التعليم الانجيلي . لا ريب ان الكتاب المقدس غير فصيح وقد سمعت ذلك من كثيرٍ من اهل الصلاح . فالقديس ايرونيموس عُوقب لنفورهِ من سذاجة الكتاب وتفضيلهِ شيشرون عليهِ ويظهر من اعترافات القديس اغوستينوس انهُ ارتكب هذه الغلطة نفسها . ألم يُرد الله ان يمتحن ايماننا بالخمول بل وبسفالة عبارة الكتاب ايضاً كما امتحنهُ بفقر يسوع المسيح

١ أخشى انك تتمادى . فمَن الأحقّ عندكِ بالتصديق القديس ايرونيموس (١) المعاقب على اتباعهِ في خلوتهِ ذوق دروسهِ الشبابية ام القديس ايرونيموس المتوغل في العلوم الدينيّة والدنيويّة الذي يدعو بولينوس (٢) في رسالة الى درس الكتاب ويعِدهُ انهُ يجد في اسفار الانبياء من المحاسن والبدائع ما لم يجدهُ في دواوين الشعراء . وهل كان القديس اغوستينوس احرى بأن يُصدَّق وهو في ربيع شبابهِ حين كانت السفالة الظاهرة في عبارة الكتــاب تنفرهُ منهُ ام حين ألّف كتبهُ في التعليم المسيحي فقال في عدّة مواضع من كُتُبه هذه

---

(١) هو احد آباء الكنيسة اللاتينيّة من ذوي الشهرة الذائعة والتصانيف الجليلة في كل العلوم البيعية . وُلد في دلماثيا نحو سنة ٣٣١ وتوفي سنة ٤٢٠

(٢) اسقف مدينة نولا وُلد في بوردو سنة ٣٥٥ وتوفي سنة ٤٣١ وهو من المؤلفين في علم البيان ومن الشعراء في اللاتينية



ان الرسول بولس كان ذا بلاغة مذهلة وان لهُ سيل فصاحةٍ يشعر بهِ الناس حتى النائمون . ثمَّ زاد ان حكمة هذا الرسول لم تكن تطلب جمال الكلام لكن جمال الكلام كان يمشي امام تلك الحكمة . وقد اورد القديس اغوستينوس مقتطفات جميلة من رسائل ذلك الرسول وبيَّن ان فيها ما يفوق كل صناعة الخطباء الدنيويّين . ولم يستثنِ في هذه المقابلة الّا شيئين احدهما ان الخطباء الدنيويّين طلبوا محسّنات الفصاحة اما القديس بولس وسائر الكتبة الروحانيين فكانت تنقاد اليهم الفصاحة طبعاً . والثاني ان القديس نفسهُ يصرّح انهُ قصير الباع في اللغة اليونانيّة فلا تبلغهُ معرفة بها الى ان يجد في الكتب المقدَّسة عدد ووزن الجمل المتَّسقة التي توجد في اسفار الكتبة الدنيويّين . وقد نسيت ان اذكر لك انهُ استشهد بكلام نبيّ الله عموس حيث قال ويلٌ للمترفين في صهيون والمطمئنّين في جبل السامرة (٦ : ١)

واثبت ان هذا النبيَّ يفوق بهذه الآية كل ما في كتب الوثنيين من المحاسن المذهلة

٣ كيف تفهم كلام القديس بولس هذا : ولم يكن كلامي ولا كرازتي بكلام بليغٍ من حكمة بشريَّة بل بابداء الروح والقوة (١ كو ٢ : ٤)

الم يَقُل للكورنثيّين انهُ لم يأتِ يبشّرهم بيسوع المسيح ببراعة الكلام والحكمة وانهُ لم يعرف فيهم الّا يسوع المسيح واياهُ مصلوباً . ان انذارهُ ليس مؤسَّساً على الخُطَب المنمّقة بالحكمة البشرية بل على مفاعيل الروح المحسوسة والقدرة الالهيّة ثُمَّ قال لا يكن ايمانك مبنيًّا على الحكمة الانسانيّة

بل على القدرة الالهيَّة . سيّدي ماذا تعني اذًا هذه الالفاظ ماذا كان يقدر ان يقول اكثر من هذا ليطرح صناعة الاقنــاع هذه التي انت تقرّرها هنا . أما أنا فاعترف اني قد بُنيتُ حين رذلت جميع ما يطلبه الفخر في الخُطَب من المحسّنات المتكلّفة لكن الخاتمة لا تنطبق على مقدَّمة صالحة فقد هممتَ ان تجعل الانذار صناعةً بشريَّة محضةً وتنفي عنهُ السذاجة الرسوليّة

١ ما عرفتَ انت كيف اعتبر البلاغة ولقد فهمتُ الغيرة التي دفعتك الى ملامتي في شأن الفصاحة فمع ذلك من المفيد ان نتفاهم في هذا الشان . قد رأيت من اهل الصلاح كثيرًا يظنُّون كما تظنُّ ان الخطبــاء الفصحاء يجرحون السذاجة الانجيليّة . اذا حصل فيما بيننا التفاهم فلا نلبث ان نتَّفق . ماذا تفهم بالسذاجة وماذا تفهم بالفصاحة

١ أمَّا السذاجة فأَفهم بها ان تكون الخطبة خاليةً عن التصنُّع والتنميق واما الفصاحة فافهم بها ان تكون الخطبة مملوءةً من التنميق والتحسين

٢ متى تطلب خطبةً ساذجةً أَتريد خطبةً بلا ترتيب ولا ارتبــاطٍ ولا براهين راهنة مقنعة وبدون اسلوب لتعليم الجهال . أتريد خطيبًا لا يأتي بالكلام الجالب الخشوع ولا يعتني بان يحرك القلوب

٣ على الضدّ من ذلك اطلب خطبةً تهذّب وتنجع في النفوس

١ تُريد اذًا ان تـكون الخطبة بليغةً اذ قد رأينا ان البلاغة ليست الَّا صناعة تهذيب الناس واقناعهم لانها تحرّك قلوبهم

٣ انا معــك على ان لا بُدَّ من التعليم والتأثير لكن أُريد ان يكون ذلك بلا تصنع و بالسذاجة الرسولية



١ لننظر اذًا آلصناعة والسذاجة الرسولية لا تجتمعان . ماذا تفهم بالصناعة

٣ افهم بالصناعة قواعد اخترعها العقل البشريّ واتبعها في الخطبة ليجعلها أجمل واكثر تهذيباً

١ ان لم تفهم بالصنــاعة الَّا هذا الاختراع الذي من شأنهِ ان يجعل الخطبة اكثر تهذيباً وارضاء للسامعين فلا أُماري في الالفاظ واعترف انهُ يلزم اسقاط الصناعة من المواعظ بحيث ان هذا العُجب كما قد رأينا غير لائق بالفصاحة وبالأولى غير لائق بالخادم الرسوليّ ولم اباحث احد كما فلانًا الَّا في هذا لكن ان عنيتَ بالصناعة والفصاحة ما يعني بهما حذّاق القدماء جميعًا فلا يلزم ان نتباحث مثل ما باحثتهُ

٣ ماذا كانوا يعنون بهما

١ ان صناعة الخطابة عندهم هي الوسائل التي اوجدها التأمّل والاختبار ليجعل الخطبة جديرةً بان تقنع بالحقيقة وان تهيج في قلوب البشر محبــة الحقيقة وهذا نفس ما تريد ان يُوجَد في الخطيب ألم تقــل الساعة انك تريد الترتيب والاسلوب للتعليم وقوّة البراهين والحركات المؤثّرة اعني التي تؤثّر وتحرّك القلوب فليست الفصاحة الَّا هنا فادعُها بما شئتُ

٣ قد علمتُ الآن ماذا تعني بالفصــاحة اني اجدها تحت هذه الهيئة الرصينة جديرةً بالمنـبر بل ضروريةً ليكون التعليم مثمرًا لكن كيف تفهم آية الرسول ضدّ الفصاحة قد ذكرت لك كلمات الرسول في ذلك أليست مطابقةً

١ اسمح لي ان ابتدئ بأن اسألك شيئًا

٣ سمعًا وطاعةً




أليس صحيحًا ان القديس بولس يبرهن في رسائلهِ بنوع عجيب . أم ليست احتجاجاتهُ على الفلاسفة الوثنيين واليهود في رسالتهِ الى اهل رومية حسنة . ام لم يكن قويًا ما قالهُ في ضعف الشريعة عن تطهير الناس

٣ نعم لا ريب في ذلك

١ اما ان الذي قالهُ في رسالتهِ الى العبرانيين في قصور الذبائح القديمة وفي الراحة التي وعد بها داود لابناء الله علاوةً على ما تمتَّعوا بهِ في فلسطين منذ ايَّام يشوع وفي ترتيب هرون وملكيصادق وفي العهد الروحيّ والادبيّ الذي كان لا بدَّ ان يحلَّ محلّ العهد الجسديّ الذي جاء بهِ موسى الى حين أما انَّ ذلك كلهُ برهان دقيق عميق

٣ انا معك على ذلك

١ لم يُرِد الرسول بولس ان يجرّد الخطبة من الحكمة وقوَّة البرهان

٣ هذا بيّنٌ في خُطَبهِ

١ لماذا تظنُّ انهُ كان يريد ان يجرّد الخطبة من الفصاحة ولا يجرّدها من الحكمة

٣ ذلك انهُ اطَّرح الفصاحة في الآية التي سأَلتك تفسيرها

١ أَلم يطَّرح في تلك الحكمة ايضاً . لا شكّ ان هذه الآية هي اقطع مخالفةً للحكمة والاحتجاج البشريّ منها للفصاحة ومع ذلك لم ينفكّ عن اقامة البرهان والتكلُّم بفصاحةٍ . انتَ اقررتَ بواحدةٍ والقديس اغوستينوس يثبت لك الأُخرى

٣ قد اوضحت لي الاشكال اتمَّ الايضاح لكنَّك لم تبيّن كيف تفسّر هذا




١ هاكَ ذلك . ان الرسول بولس قد برهن واقنع ولذلك كان في نفس الامر فيلسوفًا نبيه القدر وخطيبًا مِصقعًا . على أن وعظهُ كما قال هو في الآية التي فيها المسئلة لم يكن مبنيًّا على البرهان ولا على الاقناع البشريّ وانما كانت قوّة بشارتهِ كلها من العُلى . ان اهتداء العالم كلّهِ كان ولا شكّ بحسب النبوّات معجزة النصرانيَّة العظيمة فهذه كانت مملكة الله الآتية من السماء والتي لا بُدَّ ان تخضع أُمم الارض قاطبةً للالهِ الحقّ . يسوع المسيح المبشّر بهِ في الأُمم كان من شأنهِ أَن يجتذب الجميع اليهِ لكن اجتذابهُ اياهم انّما هو بقوَّة صليبهِ فقط . ان الفلاسفة برهنوا وأثبتوا ولم يَهدُوا ولم يهتدوا هم أَنفسهم واليهود كانوا مستودَعين شريعةً تظهر لهم شرورهم ولا تجلب لهم الدواء وكلٌّ كان على الارض مقتنعًا بالضلال والفساد . فجاء يسوع المسيح بصليبهِ اي جاء فقيرًا متواضعًا متألمًا لأجلنا لكي يُبطل حجّتنا الساقطة المموّهة وهو لم يبرهن كالفلاسفة لكن حكم بسلطةٍ بعجائبهِ وبنعمتهِ وأَظهر انهُ فوق الجميع ليُبطل حكمة البشر الكاذبة وعارضهم بحماقة صليبهِ وشكّهِ اي بمثال تذلُّلاتهِ البالغة . وما اعتقدهُ العالم حماقةً وما زادهم شكًّا هو الذي يقودهم الى الله . انَّ الانسان في حاجةٍ الى ان يُشفى من كبريائهِ ومن محبَّتهِ للأَشياء المحسوسة فأَخذهُ الله بذلك وأراهُ ابنهُ مصلوبًا ورسلهُ نادوا بهِ ماشين على آثارهِ ولم يلتجئوا الى وسيلةٍ ما بشريَّةٍ ولا فلسفةٍ ولا فصاحةٍ ولا سياسةٍ ولا ثروةٍ ولا قوَّةٍ . والله الغيور على عملهِ لم يشأ ان يجعل النجاح الَّا لهُ وحدهُ فقد اختار الضعيف وترك القويّ ولكي يظهر قدرتهُ بأَوضح وجهٍ أَخرج كل شيء من العدم لهداية الناس الى سواء

السبيل كما فعل في تكوينهم . ولذلك يجب ان يكون لهذا العمل صفةُ الهيّة وهي أن لا يكون مؤسَّساً على شيء معتدٍّ بهِ بحسب الجسد فلو كان الانذار بالانجيل مستندًا الى مساعدات الطبيعة لكان ذلك اضعافًا وابطالًا لقوَّة الصليب العجيبة كما قال رسول الله بولس فكان محفوظًا للانجيل مجرَّدًا عن الاستعدادات البشريَّة ان يفتح بنفسهِ القلوب ويبيّن للعالم بهذه المعجزة أنهُ آتٍ من الله وبذلك أُخزيت ورُفِضت هذه الحكمة البشريَّة . ماذا ينتج من ذلك . يُنتج ان اهتداء الأُمم وتقرير الكنيسة ليسا عن براهين البشر وخُطَبهم المقنعة . لا اقول انّ الفصاحة والحكمة لم تُوجدا في اكثر المبشّرين بالمسيح لكنهم لم يتَّكلوا على هذه الحكمة ولا على هذه الفصاحة بل انهم لم يطلبوها طلب ما يقوّي الكلام ويروّج المقال فكل شيء هو مؤسَّس كما قال الرسول بولس لا على خُطَب الفلسفة البشريَّة المقنعة لكن على آثار روح الله وقوّتهِ اي على العجائب التي تبهر الابصار وعلى عمل النعمة الباطن

٣ فعلى رأيك نُبطل قوَّة صليب المخلص اذا اعتمدنا في الانذار على الحكمة والفصاحة البشريَّة

١ نعم لا ريب ان فعل الكلام انما هو مبنيٌّ على الايمان فيجب على الواعظ ان يُصلّي ويطهر قلبهُ وينتظر كل شيء من السماء وان يحمل سيف كلام الله ولا يتّكل على كلامهِ فهذا هو الاستعداد الأَهم . لكن ولو ان ثمرة الانجيل الباطنة لا تحصل الّا عن النعمة الخالصة ونفوذ كلام الله يبقى مع ذلك اشياء من جهة الانسان يجب عليهِ ان يعملها

٣ الى هنا قد اجدتَ القول لكنك هممتَ كما تبيَّن



في ان تدخل في آرائك الأُولى

١ لم يخطر لي اني خرجت عنها . ألا تعتقد ان عمل خلاصنا متعلّق بالنعمة

٣ نعم هذا من الايمان

١ مع ذلك تعلم ان لا بدَّ من التبصُّر لاختيار بعض طرق للحياة وللفرار من المخاطر . ألا تريد ان الانسان يسهر ويصلّي فاذا سهر وصلّى أفيكون قد ازال بذلك سرَّ النعمة . كلّا . فاننا مديونون لله تعالى في كل شيء لكنَّ الله يخضعنا لترتيب الوسائِل البشريَّة الخارج . ان الرسل لم يتطلبوا الأُبَّهة الباطلة ولا لطائف الخطبــاء الوثنيّين الباطلة ولم يتعلّقوا بدقائِق براهين الفلاسفة المعلّقين كانوا كل شيء على هذه البراهين المفرغة فيها اشعَّة عقولهم كما قال الرسول بولس بل اقتصروا على ان يُنــادوا بيسوع المسيح بكل قوَّة وكل حسن لغة الكتاب المقدَّس . وحقّاً انهم لم يكونوا محتاجين الى استعدادٍ لاجل هذه الخدمة حيث ان الروح القــدس قد حلَّ عليهم عياناً وكان يلهمهم في الساعة نفسهــا الكلام والفرق بين الرسل وخلفائهم أنَّ خلفاءهم لا يُلهمون بوجهٍ اعجوبيٍّ فلــذلك هم في حاجةٍ الى ان يستعدُّوا ويملأُوا اذهانهم من تعليم الكتب المقــدَّسة لكي يصوغوا خُطَبهم غير أنَّ هذا الاستعــداد لا ينبغي أن يؤدي الى التكلُّم باقلّ من الرسل سذاجةً . أما تكون مسروراً اذا لم يكن الخطبــاء اكثر تحسيناً لخُطَبهم من القدّيسين بطرس وبولس ويعقوب ويهوذا ويوحنّا

٣ لا ريب انهُ يجب عليَّ ان اكون مسروراً بذلك واعترف ان البلاغة . بما انهــا لا تقوم كما قلت انت الا بالترتيب وقوَّة الكلام الذي يقنع السامع

وينجع في قلبهِ لم تَعُد الفصاحة تشككني كما كانت تشككني قبلًا فقد كنت ابدًا اتّخذ الفصاحة كصناعة دنيوية بَحتة

١ ان هذا التصوُّر قائم في صنفين من الناس . احدهما الخطباء المبطلون وقد رأينا هؤلاء يضلّون كثيرًا اذ يطلبون البلاغة في أُبَّهة الكلام الباطلة والصنف . الثاني اهل الخير الذين لم يستكفوا من التفقُّه وهؤلاء تراهم يرفضون الفصاحة رفض تواضعٍ كأنها للكلام باطلة ويطلبون مع ذلك الفصاحة الحقيقية بحيث ينفذون وسعهم ليقنعوا ويؤَثّروا في قلوب السامعين

٣ قد فهمتُ الآن كل ما قلتَ لي فلنعُد الى فصاحة الكتاب المقدَّس

١ لا أنفعَ في ادراك ذلك من ان يكون المرء على ذوق السذاجة القديمة واخصُّ ما يكسب ذلك الذوق قراءة كتب اليونانيين القدماء كما قلت امسِ وبعد هذا فلا يذهلك الكتاب المقدّس . فترى في كتب هؤلاء العادات والروايات والتصوُّرات والعظائم والحركات كأنَّ كلًّا منها موافق لما هو من جنسهِ في الكتاب المقدَّس لكن ذلك الاختلاف عائد لشرف الكتاب فهو يفوقها كلها فؤوقًا لا يتناهى في السذاجة والنشاط والفخامة . فانَّ أُومر نفسهُ لم يأتِ قط بما يقرب مما في تسابيح موسى من العلوّ ولا سيما تسبحتهُ الاخيرة التي اوجب استظهارها على كل بني اسرائيل . وما من انشودةٍ يونانية او لاتينية ترقَّت الى مقام المزامير مثلًا المزمور الذي فاتحتهُ « الاله القادر الربّ تكلَّم ودعا الأَرض » مزمور ٤٩ فهو يرتفع على كل تصوُّرٍ بشريّ . وان أُومر لم يُعادل قطّ هو ولا غيرهُ من الشعراء اشعيا في وصفهِ عظمة الله الذي ليست الممالك في عينيهِ الَّا ذرّة من الغبار وليس العالم الَّا خيمة تُضرَب اليوم

وتُقوَّض في الغد . وهذا النبيّ تارةً تجد في كلامهِ كل حلاوة وكل حنان قصيدة رعائية في اوصاف السلام المبهجة للنفس وتارةً يرتفع حتى يدع كل شيء تحتهُ . فاي شيء في كتب القدماء الدنيويّين يشبه حنان ارميا في رثائهِ مصائب شعبهِ اوتحوم في رؤيتهِ بالروح من بعيد سقوط نينوى الشامخة تحت قوَّة جيش كثيف لا يُحصى حتى يظنّ المرء انهُ يرى هذا الجيش ويسمع قعقعة السلاح وصوت العجــلات . فقد وصف كل ذلك وصفاً حيًّا يكاد يمثّل الموصوف للعين . فسبق في ذلك أُومر وتركهُ وراءهُ . اقرأ ايضاً نبوَّة دانيال على الملك بلشصَّر . وبالجملة فكل شيء في الكتاب المقدَّس متَّسق وكل شيء فيهِ يحفظ طبيعتهُ مثل التاريخ وتفصيل الشرائع والاوصـاف والقطع الحماسية والاسرار وخُطَب الآداب والخلاصة ان بين الشعراء الوثنيّين والانبياء اختلافاً كبيرًا بقدر ما بين الحماسة الحقيقية والكاذبة فالأنبياء هم مُلهمون حقيقةً فيعبرون عن الشيء الالهيّ بعبارة واضحة والشعراء الوثنيّون يبذلون ما في وسعهم ليرتفعوا فوق ما هم . وبذلك يبيّنون للناس ما فيهم من الضعف البشريّ . وليس في اسفار الكتاب ما يشتمّ فيهِ تفخيم العبارة الذي افشاهُ ونشره اليونانيون المنحطّون آدابًا واخلاقًا في ذلك العصر سوى الكتاب الثاني من المكّابيّين وكتاب الحكمة ولا سيا ختامهُ وكتاب الجامعة ولا سيا ابتداؤهُ ومهما قلت الك في هذه الاشياء فلا بدّ ان تطالعها لكي تفهمها

٢ قد تشوّقت الى مطالعة تلك الكتب فلا بدّ من الاكباب على هذا الدرس فوق ما هو معتاد

٣ اتصوَّر جيّدًا ان العهد العتيق مكتوب بهذه الظرافة وهذه الأوصاف



الحيّة التي كلّمتنا فيها لكنك لم تَقُل شيئًا في سذاجة كلام يسوع المسيح

١ ان سذاجة العبارة في الانجيل المقدس انما هي من الذوق القديم وتراها في كلام موسى والانبياء الذين كثيرًا ما أَخذ المسيح تعابيرهم وهذه العبارة مع انها ساذجة ومبتذلة فهي عالية ومجازيّة في كثير من المواضع . ومن السهل ان نبيّن بالتفصيل مع الاستناد الى الكتب ان ليس في عصرنا واعظ ذو استعارات في اشدّ مواعظهِ تنقيحًا كما كان يسوع المسيح في انذارهِ للشعب . لا أُريد هنا ما نقل من خُطَبِهِ القديس يوحنا التي كان كل ما فيها الهيّ وانما أُريد اكثر خُطبهِ ابتذالًا مما كتبهُ سائر الانجيليين . والرسل قد كتبوا ايضًا على هذا النمط نفسهِ الّا ان الفرق ان يسوع المسيح سيّد تعليمهِ ينشرهُ باطمئنان . قال ما شاء وقالهُ بدون تكلُّف اصلًا فتكلّم في المملكة السماويّة ومجدها كأنها بيت ابيهِ وكل هذه العظائم التي نندهل منها هي طبيعية فيهِ وُلِد فيها ولم يَقُل الّا ما رأَى كما أَكد لنا هو نفسهُ . اما الرسل فقد اجهدهم ثِقَلُ ما كوشفوا بهِ من الحقائق فلم يستطيعوا ان يقولوا كلّ ما ادركوهُ . ذلك اذ كانوا يعدمون الالفاظ ومن هنالك نشأَت هذه التبدّلات في الكلام وهذه التعابير المبهمة وهذه الارتباطات في الخطاب التي لا يمكن ان تنتهي . وكل هذا الخلل في عبارة القديس بولس وسائر الرسل يدلّ على ان روح الله كان يقود روحهم لكن كل شيء فيها نبيل نشيط مؤَثّر وان كانت فيهِ هذه الاختلالات الصغيرة في البيان . واما كتاب الرؤيا ففيهِ نفس هذه الظرافة والحماسة التي في كتب الانبياء وعبارتهُ في الغالب على غطٍ وهذه العلاقة قد تجعل العبارات تتساعد على ان تكون مفهومةً . قد رأيتم اذًا ان

الفصاحة غير مختصّةٍ بالعهد العتيق بل هي ايضاً موجودة في العهد الجديد

٣ هَبِ الكتاب المقدَّس فصيحاً فماذا تنتج من ذلك

١ انتج ان دُعاتهُ يستطيعون بلا تردُّد ان يحتذوا على مثال فصاحتهِ بل أن يستعيروها

٣ هم يختارون ما يستحلون من الآيات

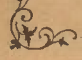
١ ان الكتاب المقدَّس يتشوَّه ان اقتُصر على تعليمهِ للمسيحيّين باقوال متقطّعةٍ وهذه الاقوال مهما بلغت من الجودة فلا تبلغ وحدها ان تجعل الجميع يرون جمالها اذا لم يعرفوا تمامها لأنَّ كل شيء في الكتاب متتابع وهذا التابع هو الاعظم والأعجب. فعدم معرفة هذه السلسلة المتتابعة يحمل على اخذ هذه الاقوال بخلاف معناها المقصود ويفسّروها كما يريدون ويكتفون ببعض تفاسير ادبيّة مطلقة ليس لها قوة أن تقنع الناس وتهذّب اخلاقهم

٢ ماذا تبتغي اذاً أأن يقتصروا على اتّباع نص الكتاب المقدَّس

١ رُويدكَ اقلُّ ما ابتغي من الوعَّاظ ان لا يكتفوا بان يؤلفوا مجموعاً من الآيات المنقولة ابتغي ان يفسّروا الاصول وسلسلة تعليم الكتاب المقدس وأن يتَّخذوا مقصد الكتاب وانشاءهُ ومجازهُ وان خطبهم كلها تكون لافهام معناهُ وتشويق الناس الى تلاوتهِ ولا يلزم للخطيب اكثر من ذلك ليكون فصيحاً لأنَّ جريهُ على ما ذُكر يكون اقتداءً بأتمّ نموذج للفصاحة

٢ فيلزم لهذا كما قلت لك ان يذكر النصّ ويفسّرهُ

١ لا اقصد ان أُخضع لذلك كل الوعَّاظ . يصحّ للواعظ ان يعمل



مواعظ على الكتاب المقدّس من دون ان يفسّر آيات الكتاب اثر ذكرها لكن ليس الامر من هذا القبيل اذا كان الرعاة بحسب العادة القديمة يتلون الكتب المقدَّسة للشعب ويفسّرونها . تصوَّر ايّ قوة تكون لانسانٍ لا يقول شيئاً من عند نفسهِ بل يتَّبع معاني كلام الله نفسهِ ويفسّرها للشعب . فهو بذلك يعمل شيئين معاً اذ يُفسّر حقائق الكتاب المقدَّس يفسر المتن ويعوّد المسيحيّين ان يجمعوا دائماً المعنى واللفظ يا لها من فائدةٍ لتعويدهم الاغتذاء بهذا الخبز المقـدَّس . السامع الذي يكون قد سمع تفسير الاشياء الاصلية من الشريعة القديمة يكون اكثر استعداداً للانتفاع من تفسير العهد الجديد من اكثر مسيحيّي هذا العصر فالواعظ الذي تكلَّمنـا عنهُ قريباً فيهِ هذه النقيصة بين صفاتٍ جليلة وهي ان مواعظهُ ذات براهين جميلـة على الديانة لكن هذه البراهين ليست هي الديانة نفسها فالوعَّاظ يكثرون من الاوصاف الادبيَّة ولا يصلون من تفسير اصول التعليم الانجيليّ الى حدّ الكفاية

٢ ان وصف اختلال العلم اسهل جدًّا من الاتيـان بتفسير صحيح لأساس المسيحية اما الاول فلا يحتاج الَّا الى اختبار معاملات الناس ومعرفة الكلام واما الثاني فلا بدَّ لهُ من تأمّل رصين للاسفار المقدَّسة وقليـل من الناس هم الذين يعرفون كل الديانة معرفةً كافيةً لان يجيدوا تفسيرها فمنهم من يُجيد في انشـاء المواعظ ولا يُحسن تفسير التعليم المسيحيّ بوجهٍ متين كما لا يُحسن ان يفسّر آيات الانجيل

١ قد اصبتَ شاكلة الغرض فان اكثر المواعظ هي براهين فلاسفة وقلَّما يستشهد الواعظ بآيات الكتاب المقدَّس الَّا متأخرًا وما استشهـادهُ هذا الَّا



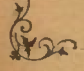
تأدُّباً ولأجل التحسين فحينئذٍ لا يبقى هذا كلام الله بل يكون كلام البشر واختراعهم

٣ لا ريب انك تقرّ ان اولئك النــاس يفرغون جهدهم ليبطلوا قوّة صليب يسوع المسيح

١ اسلم لك من جهة هؤلاء واقتصر على فصاحة الكتاب المقدَّس التي ينبغي للخطباء الانجيليين ان يحتذوا مثالها . ها قد اتفقنا بشرط انك لا تعذر بعض الوعَّاظ الغُيُر الذين بحجّة السذاجة الرسولية لا يدرسون بامعــانٍ تعليم الكتاب المقدَّس ولا الطريقة العجيبة لاقناع النــاس التي علّمنا الله اياها بهذا الكتاب فهؤلاء يتوهمون ان لا طريقة لاقناع الناس الّا الهتاف والّا الاكثار من التكلُّم في الشيطان وفي جهنم . نعم ينبغي ان تمسّ قلوب الشعب بالتصاوير الحيّة الهائلة لكن الخطيب لا يتعلّم الّا من الكتاب المقدّس ان يُثير القلوب ومنهُ ايضاً يتعلّم حسناً ابراز التهذيبات بصورة محسوسة محبوبة عند الشعب من دون ان يعدمها جلالها ويسلب قوتها وبدون هذه المعارف لا يصدر عن الخطيب غالباً الّا إقلاق الشعب اذ لا يبقى في ذهنه حقــائق جليّة حتى ان تأثيرات الخوف نفسها تزول سريعاً . فمثل هذه السذاجة التي يتكلّفها الواعظ ليست بعض الاحيان الّا جهالةً وغلاظةً تجرّب الله . ولا عاذر لاولئك الناس الّا استقامة مقاصدهم فينبغي للخطيب ان يُكبَّ طويلاً على مدارسة الكتب المقدّسة وتأمّلها قبل ان يعظ . فمن احسن من الكهنة معرفتها وكانت لهُ طلاقة لسان تنضمُّ الى قوّة الوعظ وحسن القدوة لا يكون محتاجاً الى طول استعداد لانشاء الخُطَب النفيسة حيث يسهل على المرء ان يطلق لسانه فيما

تمكّن من معرفتهِ وكان لهُ في نفسهِ تأثير . فان مبحثاً كمبحث الديانة يأتي بخواطر عالية ويهيج عواطف كبيرة وهذا هو قوام الفصاحة الصحيحة لكن ينبغي ان تجد في الخطيب أبًا يكلّم بنيهِ بحنانٍ لا متنطّعًا يتشدَّق بنطقه . وبناء على ذلك نتمنَّى ان الرعاة يخصّصون انفسهم غالبًا لاعطاء المرعى للقطعان حسب احتياجاتهم ولهذا لا يجوز عادةً ان نختار رعاةً الا الكهنة الذين أُوتوا طلاقة اللسان . واذا كان العكس حدث شرَّان احدهما ان الرعاة الخرس او الذين يتكلمون بلا ذكاء هم قليلو الاعتبار والثاني ان التطوُّع في الوعظ يجلب الى المنبر كثيرًا من ذوي المطامع والعقول السافلة . انت تعلم ان الوعظ كان مختصاً بالمطارنة عدةً من القرون خصوصاً في بلاد المغرب . انت تعرف مثال القديس اغوستينوس الذي كان قد كلّف وهو كاهن بعدُ خلافًا للقاعدة العامَّة بأن يعظ لان فاليروس سالفهُ كان غريبًا لا يُحسن الكلام فكان ذلك مبتدأ وعظ الكهنة في المغرب واما اهل المشرق فقد تقدَّمونا في هذه العادة وحسبك دليلًا على ذلك المواعظ التي ألقاها القديس يوحنا الذهبي الفم في انطاكية اذ كان لم يزل كاهنًا

٣ انا مثلك اقتناعاً بذلك فالاولى ألّا يعظ في الغالب سوى الرعاة . وهذا يكون الوسيلة التي تردّ للمنبر ما يحقّ لهُ من السذاجة والقوَّة لأن الرعاة الذين يضمُّون الى اختبار العمل قيادة النفوس والمعرفة بالكتاب المقدَّس يتكلّمون بوجهٍ أنسب لحاجات سامعيهم أما الوعَّاظ الذين ليس لهم الّا المعرفة النظريَّة فهم يُقلُّون من التعرُّض للمشكلات ولا يراعون طبقات العقول ويتكلّمون بوجهٍ اكثر ابهامًا فهذه هي الاسباب لتفضيل مواعظ الراعي على



مواعظ غيرهِ وذلك عدا ما في صوت الراعي من العذوبة عند الرعيّة فبأيّ وجهٍ يُباح الوعظ لكثير من الشبّان الذين لا اختبار لهم ولا معرفة ولا تقوى فالأَولى ان تكون المواعظ جيّدةً مفيدةً ولو قليلة

٢ ان كثيرًا من الكهنة الغير الرعاة يعظون المواعظ الكثيرة الفائدة كما ان كثيرًا من الرهبان يتبوَّؤن المنابر بأَهليَّة

٣ اني اوافقك على ذلك فيما حبَّذا لو جُعلوا رُعاةً فاولئك الناس ينبغي ان يُولَّوا رغماً عنهم خدمة النفوس. أما كانت الكنيسة تختار قديماً من الحبساء أُناساً لترقّيهم الى درجة الشمعداني في الكنيسة

١ على ان الأمر لا يتعلّق بنا فلكل زمانٍ عادات خاصَّة بهِ بحسب اتّفاق الحوادث لنحترم سيدي كل تسامحات البيعة وانتمّ من دون انتقاد تكوين واعظٍ حقيقيّ على رأينا

٣ يظهر لي ان عندي الرأي كلهُ في الشأن الذي تذكرهُ

١ قُل لي ما هو رأيك في ذلك

٣ رأيي ان المرء يدرس درساً راسخًا ايام شبابهِ أَفيد ما في شعر اليونانيين واللاتين وفصاحتهم

١ ليس هذا ضروريًا. لا جرم ان من يدرس هذه الدروس يتهيأ لهُ أَن يقتطف ثمرة كبيرة ليفهم الكتاب المقدَّس كما صرَّح بذلك القديس باسيليوس في المقالة التي انشأها في هذا الموضوع لكن مع ذلك يمكن الاستغناء عنها. في الاعصار الأُولى للكنيسة كانوا يستغنون عنها بالمرَّة. والذين كانوا يدرسون هذه الاشياء في تلك الاعصار كانوا يستخرجون منها فوائد كبيرة للديانة

حين يصيرون رعاةً على انهُ لم يكن يؤذن للذين يجهلونهما ان يتعلّموها عند انهماكهم في درسِ الاسفار المقدَّسة فقد كانوا مقتنعين ان الكتاب المقدَّس يكفي ومن هنالك أتى ما تراهُ في التراتيب الرسولية من تحريض المؤمنين ان لا يقرأوا كتب المؤلفين الوثنيين . قال هذا الكتاب اذا اردت التأريخ او الشرائع او القواعد الادبية او الفصاحة او الشعر تجد كل ذلك في الكتاب المقدَّس . حقًّا لا احتياج كما رأينا ان نطلب في كتابٍ آخر ما من شأنهِ ان يحسن الذوق ويثقف العقل للفصاحة نفسها . قال القديس اغوستينوس بقدر ما يكون المرء فقيرًا الى المعرفة بقدر ذلك ينبغي ان يستغني من هذه المناهل المقدَّسة وبما انهُ في نفسهِ صغير عن ان يوضح العظائم فهو محتاج الى ان ينمو بقوَّة الكتاب المقدَّس . لكن اسألك العفو عن مقاطعتي اياك الكلام فاتمَّهُ ان احببتَ

٣ هل نجتزئ بالكتاب المقدَّس أما نضيف اليهِ كتب الآباء

١ لا ريب في اضافتها الى الكتاب فانها مجاري التقليد وبها نتعرَّف المنهج الذي نهجتهُ الكنيسة في تفسير الكتاب الكريم في جميع الاعصار

٣ هل ينبغي ان نتقيَّد ابدًا بتفسير الآباء في جميع الآيات . يظهر لي ان الواحد يؤوّل الآية بمعنى روحيّ والآخر يؤولها بمعنى مختلف عنهُ كل الاختلاف فايّهما نختار لانهُ اذا أُريد ذكر كل تفاسير الآباء وتآويلهم فلا نبلغ النهاية

١ متى قيل يجب في تفسير الكتاب الجري على تعليم الآباء يُراد بذلك تعليمهم الثابت المتَّفق عليهِ فان بعضهم قد فسَّروا الكتاب بمعانٍ تُقوِيَة ليست في شيء من المعنى الحرفيّ ولا هي مستندة الى تعليم الاسرار

والتصوُّرات النبويَّة فهذه معانٍ اختياريَّة لا يلتزم المفسّر ان يتَّبعهم فيها حيث لم يوافق بعضهم بعضاً في تفسيرها. اما في الآيات التي يُفسّرون فيهـا رأي الكنيسة في تعليم الايمان او في قواعد الآداب فلا يُؤذن ان يُفسّر الكتاب بمعنىً مضادٍ لتعليمهم ففي هذا يجب التقيُّد برأيهم

٣ هذا يظهر لي واضحاً فينبغي للكاهن قبل أن يعظ ان يعرف اساس تعليمهم لكي يبني عليهِ وينبغي لهُ ايضـاً ان يدرس اصول سيرتهم وقواعد اعتدالهم واسلوبهم في التهذيب والتعليم

١ نعم ان هؤلاء هم معلّمونا · كانوا من اهل العقول العالية والنفوس الكبيرة الممتلئة شجاعةً ومن اهل الخبرة العجيبة بعقول الناس واخلاقهم · اكتسبوا سلطةً عظيمةً وسهولةً كبـيرةً في التكلُّم ويتبيَّن ايضاً انهم كانوا متهذبين عارفين بأُصول الآداب في الكتـابة وفي الخطابة في الجمهور وفي المخاطبات العاديَّة والقيام بكل وظائف الحياة المدنيَّة فلا شكَّ ان هذا كلّهُ يرفعهم الى اعلى مقامات الفصاحة ويجعلهم جديرين بان يكتسبوا الناس فترى في كتاباتهم من الأدب في الكلام بل وفي الوجدانات والاخلاق ما لا تراهُ في كتب اهل القرون التالية فهذا الادب الموافق للسذاجة المحبّبهم الى الناس قد جاءَ بفوائد جليلة للديانة فهذا ما يلزم ان يُستفاد منهم · فكتبهم بعد الكتاب المقدَّس هي الينابيع الصافية للمواعظ الحسان

٣ متى حصل الانسان على هذه العلوم واعجب الكنيسة بفضائلهِ الجديرة بالاقتداء بها يصير اهلاً لتفسير الانجيـل بسلطة وفائدة وقد يكون بالتعاليم العاديَّة والعظات التي تمرّن فيها على صغرٍ قد اكتسب حرّيَةً وسهولةً كافيتين

ليُحسن الكلام . ويظهر لي ايضاً ان مثل هؤلاء الناس بما انهم مجدُّون في كل امرٍ من خدمتهم اي خدمة الاسرار وارشاد النفوس وتعزية المنازعين والحزانى لا يكون لهم زمن يستظهرون فيهِ المواعظ المحكمة الاتقان فينبغي ان يتكلَّم الفم على حسب فيضان القلب اعني أن ينشر على الشعب كمال العلم الانجيليّ واحساسات الواعظ الودادية . فعلى ما قلت امسِ من المواعظ المستظهرة قد فتَّشت عن قولٍ في كتاب للقديس اغوستينوس قرأتهُ قديماً وهذا معناهُ . قال ينبغي للوعّاظ ان يتكلَّموا باسلوبٍ أوضح وأوقع من سائر الناس حيث ان العادة والحشمة لا تأذنان للناس ان يسألوهم فليحذروا ان لا يكون الكلام مناسباً لطبقة سامعهم ولذلك قال الذين يستظهرون خُطَبهم كلمةً فكلمةً ولا يقدرون ان يكرّروا ويشرحوا حقيقةً حتى يتبيَّن لهم ان السامعين فهموها يُحرَمون فائدةً كبيرةً . فقد رأيت من ثم ان القديس اغوستينوس كان يكتفي ان يستحضر الاشياء في عقلهِ بدون أن يضع في ذاكرتهِ كل كلمات مواعظهِ حتى حين تطلب قواعد الفصاحة الحقيقية شيئاً اكثر تمنعها منهُ فصاحة الخدمة الانجيلية . أما انا فقد كنت منذ زمنٍ طويلٍ على رأيك في هذا ولما كانت الاحتياجات الماسّة كثيرةً في النصرانية وكان الكاهن الذي يجب عليهِ ان يكون رجل الله مستعدًّا لكل عمل صالح ينبغي لهُ ان يسرع في استئصال الجهالة والشكوك من حقل الكنيسة وجدت انهُ غير لائق بهِ ان يقضي حياتهُ في منزلهِ عاكفاً على تركيب جمل متوازنة وتنقيح اوصافٍ واختراع تقاسيم . فمن كان على شاكلة هؤلاء من الوعّاظ لا يبقى لهُ زمنٌ ليشتغل بشيء آخر او بدرسٍ آخر او شغلٍ آخر حتى انهُ

لاجل راحتهِ كثيرًا ما يضطرّ الى ان يكرّر المواعظ نفسها . فماذا عسى تكون فصاحة رجل يعرف السامعون كل عباراته وحركاتهِ من قبل ان يتكلّم . حقًّا ان تلك هي الواسطة التي تذهل وتعطف وتؤخّر وتقنع الناس فهذا فنٌّ في اخفاء الصنعة وحمل الطبيعية على التكلّم . اما انا فاقول صريحًا كل هذا يشككّني . يا للعجب موزّع اسرار الله يكون متنطّعًا وانيًا حريصًا على شهرتهِ محبًّا للأُبّهة الزائلة . ألا يتجرأ ان يتكلّم في الله لشعبهِ بدون ان يركب كل كلامهِ ويستظهر امثولته كالتلميذ

١ سررتُ بغيرتك وما قلتهُ حقٌّ الا انهُ لا يسوغ التشدُّد فيهِ اذ ينبغي أن يُراعى من اهل البراعة حتى من اهل التُقى الذين تبعًا للعادة او اشتغالًا بالقدوة جروا بنية صالحةٍ على الاسلوب الذي تذمُّهُ بحقٍ . قد صرتُ خجلًا من كثرة ما قاطعتك من الحديث فاسألك ان تتمّ الكلام

٣ ينبغي للواعظ ان يفسر كل الديانة ويشرحها باسلوبٍ محسوس ويبيّن وضع الاشياء ويظهر نتيجتها وتقليدها وانهُ ببيان اصل الديانة وتأسيسها يهدم اعتراضات الضعفاء العقيدة بدون ان يشرع صريحًا في مهاجمتهم وذلك لئلا يشكّك سُذَّج المؤمنين

١ . قد اصبت فيما قلت لان الطريقة الصحيحة لاثبات حقيّة الديانة هي الاجادة في تفسيرها وهي متى ذُكر تعريفها الحقيقيّ تثبت من نفسها . فان جميع البراهين غير المأخوذة من مادّة الديانة نفسها ولا من احوالها هي كغريبةٍ عنها . فاحسن برهان على خلق العالم وعلى الطوفان وعجائب موسى مثلًا انما هو طبيعة هذه العجائب والاسلوب الذي اتّبع في تدوين قصّتها

فليس لعاقلٍ مجرَّد عن الهوى الا أن يقرأها ليعرف صحَّتها

٣ ينبغي ايضاً للخطيب ان يثابر على ان يفسّر للشعب بالتتابع ما عدا كل تفصيل الانجيل والاسرار اصل الاسرار ورسمها والتقاليد والقوانين وفرض الكنيسة واحتفالاتها ومن هنالك يحذّر المؤمنين من اعتراضات المبتدعة ويجعلهم اهلاً ليبرهنوا صحَّة ايمانهم وان يحرّكوا قلوب من ليسوا معاندين من المبتدعة . فكل هذه التعاليم تثبت الايمان وتعظم قدر الديانة عند الناس وتمكن الشعب من الاستفادة في تهذيبهِ من كل ما يراهُ في الكنيسة . أما اذا كان تعليمهُ سطحياً فكأنهُ لا يفهم شيئاً من كل ما يرى وقلَّ ما يدرك ما يسمعهُ من الواعظ . فلاجل متابعة التعليم ينبغي ان اناساً معيَّنين كالرعاة يعظون في كل رعيةٍ قد لاحظت مراراً ان لا صناعة ولا علم في الدنيا الا ويعلّمهُ المعلّمون بالتتابع بالاصول والاسلوب الا الديانة . فانهم لم يتَّبعوا في تعليمها للمؤمنين هذه الطريقة بل يضعون بين ايديهم ايام الصغر تعليماً مسيحياً جافياً يستظهرونهُ بدون ان يفهموا معناهُ وبعد هذا التعليم المسيحيّ لا يبقى لتعليمهم الّا المواعظ المبهمة المتقطعة . فينبغي كما ذكرت آنفاً ان يُعلَّم المسيحيون المبادئ الأُولى من ديانتهم وان يقتادوا بترتيب حتى الى اعلى الاسرار

١ هذا ما كان جارياً في القديم . كان يبتدأ بالتعليم المسيحيّ ثم يأخذ الرعاة في تعليم الانجيل بالمواعظ وقد كان هذا الصنيع يجعل المسيحيين متهذبين عارفين بكل كلام الله . وانت تعرف كتاب القديس اغوستينوس المسمّى تعليم الجهال كما تعرف ايضاً كتاب القديس قليمس وهو تأليف موضوع

التعاليم من يتنصَّرون من الوثنيّين آداب الفلسفة المسيحية وكان المكلّفون بهذه التعاليم اعاظم الرجال ولذلك كانت تأتي بثمار عجيبة تظهر لنا الآن كأنها مستحيلة

٣ على الواعظ مَن كان أن ينهج في مواعظهِ منهجًا لا يشقّ عليهِ حتى يتأتى لهُ ان يكثر من الوعظ فالاولى ان مواعظهُ كلها تكون موجزة حتى يتمكن من الوعظ كل يوم احد بعد تلاوة الانجيل من غير ان يتعب نفسهُ ويملّ الناس. ومن الظاهر ان الاساقفة القدماء المسنّين القائمين باشغال كثيرة لم يكن عندهم من التكلُّف مثل ما عند وعّاظنا للخطابة في الشعب في خلال قدّاسهم الاحتفالي ايّام الآحاد. أمّا الآن فيلزم الواعظ ان ينزل عن المنبر مبتلًّا من العرق منقطع النفس غير قادرٍ ان يتكلّم بقية النهار ذلك لكي يكون قد احسن الوعظ . فالحلّة الكهنوتية التي لم تكن حينئذٍ مقوَّرة عند الاكتاف وكانت متدلية باستدارة متساوية من كل الجهات (اي كانت بصورة الغفّارة)ولذا كانت تمنعهم ظاهرًا ان يحرّكوا ذرعانهم قدر ما يحرّكها وعّاظنا فكانوا يأتون بالمواعظ قصيرةً واداؤهم كان رصينًا معتدلًا . سيّدي أَلم يكن كل هذا منطبقًا على اصولك . أليس هذا رأيك في المواعظ

١ هذا هو رأي القدماء . كلما دخلتُ في التفصيل كلّما وجدتُ صورة المواعظ القديمة كانت اكمل . كان الرجال العظماء الجامعون بين القداسة والاستنارة في مادّة الديانة واسلوب الاقناع هم الذين يُعنَون بترتيب كلّ هذه الاحوال في طيّ السذاجة حكمة عجيبة حتى لا مجال للعاقل ان يتصور انهُ امكن فيما بعد ايجاد طريقة احسن . سيّدي قد فسّرت كل هذا باتمّ

الاصابة ولم تُبقِ لي شيئاً اقولهُ فقد عبَّرت عمــا في نفسي باحسن ممَّا اعبّر عنهُ انا

٢ قد اعليتَ كثيرًا فصاحة الآباء ومواعظهم

١ لا اظنُّني بالغتُ في ذلك

٢ قد عجبت ان اراك بعد ان تـكون متشدّدًا على الخطبـاء الدنيويّين الذين مزجوا النُّكت البديعية في خُطبهم ان اراك متساهلاً مع الآباء الذين مواعظهم ممتلئة بتلاعب الالفاظ والتضادّ والنكات المضادّة لكل قواعدك فاسألك ان توفّق بين حاليك وتشرح كل ذلك. فماذا تقول في انشاء ترتوليانوس (١) مثلاً

٣ ان لهذا المؤلف اشياء حريّة بالاعتبار فنبالة وجدانهِ عجيبة في الغـالب لكن تلزم قراءتهُ للاطلاع على بعض اصول في التقليد مستحسنة جداً وعلى حوادث التاريخ ولمعرفة آداب زمانهِ. اما من حيث العبارة فلا احامي عنهُ كم لهُ من معانٍ باطلة غامضة وكم لهُ من استعارات صعبة معقَّدة التركـيب. والرديء فيــهِ ان جلَّ قرّائهِ اشدّ طلباً لهُ حتى ان كثيرًا من الوعّاظ تفسد أذواقهم بقراءة تآليفهِ والدافع لهم الى مطالعتها انما هو ان يأتوا بشيء غريب. فان عبارة ترتوليانوس الغير المألوفة الممتلئة أُبَّهةً تبهرهم وتفتنهم فالاولى ان لا تتبعهُ في معانيهِ ومبانيهِ لكن استخرج من تآليفهِ نبــالة وجدانهِ ومعرفتهُ باحوال الزمان

(١) ترتوليانوس من مشاهير علماء الكنيسة وُلد بقرطجنَّة سنة ١٦٠ وتوفي سنة ٢٤٠ للميلاد



٢ ماذا تقول في القديس قبريانوس(١) ألم يكن كثير التنميق والتأنق

١ بلى اذ لم يكن ممكناً ان لا يكون كذلك في عصرهِ وبلدهِ لكن مع ما يتلمَّح في عبارتهِ من تنميق عصرهِ والخشونة الافريقيـة لهُ كثير من القوة والفصاحة. يُرى في كل موضع من كلامهِ نفسٌ كبيرة نفس فصيحة تعبّر عن حسّها باسلوب شريف حسن الوقع وقد تكلّف التحسين في بعض المواضع كما في رسالتهِ الى دوناتوس (٢) التي يذكرها القـديس اغوستينوس كأنَّها متدفّقة بالفصاحة. قال هذا الاب ان الله سمح ان هذه الفصاحة المتكلّفة تفوت القديس قبريانوس وذلك تعليماً للاعقاب كم يعاقب التدقيق المسيحيّ في سائر تأليفهِ ما كان يتكلّفهُ لعبـارتهِ من التحسين الذي لا طائل تحتهُ وان يحصره في حدود فصاحةٍ ارصن واكثر احتشاماً. ثمَّ قال القديس اغوستينوس ان هذا الوصف الاخير الظاهر في كل ما تبقَّى من رسائل القديس قبريانوس هو الذي لا خطر في اتباعهِ وتطلُّبهِ حسب أقسى قواعد الديانة غير انهُ لا يُستطاع الوصول اليهِ الَّا بعناء كبير ورسالة القديس قبريانوس الى دوناتوس وان كان للصنعة فيها مدخل كبير فهي جديرة حتى بحكم القديس اغوستينوس ان تُدعَى فصيحـةً لانهُ وان كان ثمَّة بعض تنميقات

---

(١) قبريانوس احد آباء الكنيسة اللاتينيَّة ومطران قرطجنَّة استُشهد سنة ٢٥٨ للميلاد

(٢) دوناتوس كان رصيف القديس قبريانوس في المحاماة في الدعاوي وقد تنصَّر معهُ فاستحكم الولاء بينهما وكانا يجتمعان في حديقـة لقبريانوس في ظاهر قرطجنة ويتذاكران في قواعد الايمان فاحب دوناتوس ان قبريانوس يكتب ما دار بينهما من الكلام في امر الايمان ففعل هذا ما يسميهِ رسالة الى دوناتوس

صناعيَّة متفرّقة فيتبيّن ان محمل الرسالة هو رصين ونشيط وخليق بان يُلقي في صدر الوثنيّ المراد تنصيرهُ الاجلال للنصرانيَّة وحيث تأخذ القديس قبريانوس الحدَّة يدع كل الصنائع اللفظية وينهج منهجًا حماسيًّا عاليًا

٢ وهل تحامي ايضًا عن القديس اغوستينوس المذكور كاتب العصر المالك لرقّ الكلام

١ كلَّا لم أُحامِ عنهُ في هذا. ذلك شائبة عصرهِ قادهُ اليها عقلهُ الذكيّ بميلٍ طبيعيّ وهذا يدل على ان القديس اغوستينوس لم يكن خطيبًا كاملًا على ان ذلك لا يمنع ان يكون مع هذه الشائبة ذا قدرةٍ كبيرة على الاقناع فهو فريد في قوَّة برهانهِ ممتلئ الذهن من التصوُّرات النبيلة وهو العارف بسرائر القلب الانسانيّ وهو المهذَّب المتيقظ للمحافظة على أدقّ الأَدب في كل خُطَبهِ وهو الذي يتفوَّه ابدًا باسلوب ودادي فاتنٍ بحسنهِ. أليس مثل هذا الرجل خليقًا ان تُغتفَر لهُ الشائبة التي نعرفها فيهِ

٣ حقًّا اني لم أجد الا فيهِ وحدهُ ما سأذكرهُ لك هو مؤثّر حتى ولو جاء بعبارات جارحةٍ واكثر ما توجَد عباراتهُ الجارحة في اعترافاتهِ ومناجياتهِ. لا بدَّ ان نقرَّ بأنها لينة وجديرة بان تليّن القارئ

١ فهذا القديس هو الذي يُصلح النكتة البديعيَّة بقدر الامكان بسذاجة حركاتهِ وعواطفهِ. وكل تآليفهِ عليها مسحة محبة الله ولم يكن يشعر بها فقط لكن كان يقدر ان يعبّر باسلوب عجيب عمّا كان يشعر بهِ من هذا القبيل فهذا الحنوّ جزء من الفصاحة. ومع ذلك نرى القديس اغوستينوس قد سبر غور القواعد الحقيقية فقال لا بدَّ للخطبة لتكون مقنعةً ان تكون ساذجةً طبيعيةً

لا تظهر فيها الصنعة والخطبة التي تظهر منمّقةً مليحة تجعل السامع غير ذي ثقةٍ . وقال في ذلك هذه الكلمات التي تعرفها « مَن يستعمل المغالطة يكن مكروهاً » وتكلّم ايضاً بسعة علم في ترتيب الاشياء واختلاط الانفاس المختلفة والوسائل التي تنمي ابداً الخطاب وضرورة كونهِ ساذجاً مبتـذلاً حتى في طبقات الصوت وهيئة القاء الخطبة في بعض المواضع ولو ان كل ما يقال في الانذار بالديانة هو عظيم . وتكلّم ايضاً في طريقة الاذهال وتحريك القلوب فهذا هو تصوُّر الفصاحة عند القديس اغوستينوس . لكن أتروم ان ترى كم كان لهُ في الاستعمال من الصنعـة للاستيلاء على العقول وكم كان يطلب ان يحرّك الاهواء حسب غرض الخطابة الحقيقيّ . اقرأ ما نقلهُ هو نفسهُ في شأن الخطبة التي خطبها على شعب قيسارية موريتاني ليُبطل بها عادةً بربريَّة بلغت باهالي تلك المدينة حدَّ القساوة الوحشيَّة . وكانت بغية القديس في موعظتهِ هذه ان يمنع الشعب من مشهدٍ كانوا يستحسنونهُ فانظر ما اصعب هذا المشروع . قال القديس اغوستينوس انهُ بعد ان تـكلّم زمناً هتف سامعوهُ وصفَّقوا لهُ ابتهـاجاً . لكنهُ رأى ان خطبتهُ لا تقنع الناس طالما كانوا يتفكهون بان يمدحوهُ عليها فلم يعبأ بسرور السـامعين وتعجّبهم ولم يبتدئ يأمل نجـاح مشروعهِ الّا حين رأى الدموع سائلةً واضاف الى قولهِ ان الشعب ابطلوا هذا المشهد ومرَّ ثماني سنـين ولم يعودوا يجددونهُ منذ ذلك . أليس هذا القديس خطيباً حقيقياً . هل لنا خطباء يوازنونهُ عملاً . وللقديس ايرونيموس (١) ايضاً شوائب في عبارتهِ على ان عبارتهُ قويّة فخمة

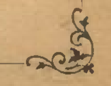
(١) ايرونيموس احد اباء الكنيسة اللاتينية وُلد سنة ٣٣١ وتوفي سنة ٤٢٠

ولم يكن يراعي الاقيسة الَّا انهُ ابلغ كثيرًا من جُلّ من يدَّعون البلاغة. واذا حكمنا على الآباء من حيث اللغة والتعبير يكون هذا احكم نحويّ حقير (لا بدَّ من التنبيه هنا ان البلاغة هي غير الفصاحة وتنميق التراكيب) والقديس امبروسيوس (١) ايضًا اقتفى طريقة عصرهِ وزيَّن خطبهُ بما كان يُعتبَر حينئذٍ من المحاسن البديعيَّة وربَّما ان هؤلاء الرجال العظماء الذين كانت لهم مقاصد اعلى من القواعد العامَّة للبلاغة كانوا يراعون ذوق العصر ليكون سماع كلام الله لذيذًا في آذان الشعب ولكي يلقنوا حقائق الديانة. اما ترى بعد كل ذلك القديس امبروسيوس رغمًا عن بعض النكت اللفظيَّة كتب الى ثاوادوسيوس (٢) كتابة فيها من القوَّة والاقناع ما لا مثيل لهُ. اي الحنوّ لم يبيّنهُ حين يتكلم في موت اخيهِ ساتير. ولهُ عندنا في الفرض الرومانيّ خطبة على رأس يوحنا الذي احترمهُ هيرودوس وهابهُ بعد موتهِ. واذا امعنت النظر في ذلك وجدتهُ قد بلغ غاية البلاغة. اماَّ القديس لاون فهو منمّق لكنهُ جزل العبارة والقديس غريغوريوس البابا كان في عصر اردإ ومع ذلك كتب كثيرًا من الاشياء بقوَّة وعظمةٍ فينبغي ان يفرّق بين ما وضعتهُ رداءة الايَّام في هؤلاء الرجال العظام كما في جميع من بقي من كتَّاب عصرهم وبين ما

للميلاد وقد ترجم الكتاب المقدس وترجمتهُ هي التي اعترفها مجمع ترنتينا في ٢٧ ايار سنة ١٥٤٦

(١) امبروسيوس من آباء الكنيسة اللاتينية رئيس اساقفة ميلان وُلد بمدينة تريف سنة ٣٤٠ وتوفي سنة ٣٩٧ للميلاد

(٢) ثاوادوسيوس الاوَّل عاهل رومانيّ وُلد سنة ٣٤٦ وولي الملك سنة ٣٧٩ الى سنة ٣٩٥

كانت قرائحهم وآراؤهم تُعدُّهُ لاقناع سامعيهم

٣ يا للعجب كل شيء متعلق بالبلاغة كان على رأيك قد فسد في تلك الاعصار التي نجحت فيها الديانة

١ لا ريب ان البلاغة واللغة اللاتينية قد دبَّ فيهما الفساد بعد ملك اغوستوس بقليل ولم يأتِ الآباء الَّا بعد هذا الانحطاط ومن ثمَّ لا يسوغ ان يتخذوا كقواعد راهنة في كل شيء على انهُ لا بدَّ ان يُعترَف ان اكثر ما عندنا من مواعظهم هو اضعف تآليفهم . لما بيَّنت لك بشهادة الآباء ان الكتاب المقدَّس بليغ كان عندي ان بلاغة هؤلاء الشهود هي احطّ من البلاغة التي لم تصدّقها الَّا بمقتضى كلامهم. فمن الناس من ذوقهم فاسد حتى لا يشعرون بطلاوة اشعيا النبيّ ومحاسنهِ ويستحسنون القديس بطرس الذهبيّ الذي مع حسن لقبهِ لا يسوغ ان يُتطلَّب في تآليفهِ الَّا اساس التقوى الانجيلية في طيّ كثير من التراكيب الرديئة. ان منهج الكلام والكتابة في الشرق بقي متعززًا وقد حافظت اللغة اليونانية على معظم طلاوتها وكان القديس يوحنا الذهبيّ الفم ينطق بها بفصاحةٍ وعبارتهُ كما تعلم ذات اطناب لكنهُ لم يكن يتطلَّب التحسين الذي لا فائدة لهُ فكلامهُ بكليتهِ كان يتَّجه الى الاقناع ووضع كل شيء بقصدٍ وكان مضطلعًا من معرفة الكتاب المقدَّس واخلاق الناس وكان يلج القلوب ويمثّل المعاني كأنها اشياء محسوسة وكانت لهُ خواطر عالية راهنة وكان شديد التحريك للاهواء وفي الجملة فهو خطيب كبير . واما القديس غريغوريوس النازينزي (١) فهو اخصر من الذهبيّ الفم

(١) غريغوريوس النازينزي من بلاد الكبادوك وُلد سنة ٣٢٨ ومات سنة ٣٨٩

عبارةً واكثر تخيُلًا لكنهُ قليل العناية بالاقناع على ان لهُ كلاماً شديد الوقع من مثل وداعهِ لقسطنطينيَّة وتأبينهِ للقديس باسيليوس . والقديس باسيليوس هذا هو رصين وذو حِكَم وامثال وقليل الطلاوة في التعبير وكان قد حرث الانجيل واطال تأمّلهُ في كل آية من آياتهِ وسبر غور امراض الانسان وهو معلّم كبير في علاج النفوس . ومن المستحيل ان تلقى ابلغ من رسالتهِ الى عذراء كانت قد سقطت وعندي انها من نخب الرسائل البليغة . فان لم يكن للرجل ذوق مصوغ على كل ذلك لايكون عرضةً لان يأخذ من الآباء ما هو اقلّ جودةً ويجمع شوائبهم فيما ينشئهُ من المواعظ

٣ كم بَقيت من الزمن هذه البلاغة الباطلة التي تقول انها خلفت البلاغة الصحيحة

١ بقيت الى أيَّامنا

٢ يا للعجب الى أيَّامنا

١ نعم الى ايامنا ونحن لم نتخلّص بعد منها بقدر ما نظنّ ستعرف السبب في ذلك فان البرابرة الذين اغاروا على المملكة الرومانيّة زرعوا في كل مكان الجهل والذوق الفاسد ونحن نازلون منهم . ولقد بدأت البلاغة تقوم في المائة الخامسة عشرة للميلاد غير ان قيامتها كانت بطيئة ولم يكن الرجوع الى الطريق القويم الَّا بمشقَّة ولم يزل كثيرٌ بعداء جدًّا عن معرفة ذلك الطريق .

وهو من آباء الكنيسة اليونانية وصديق القديس باسيليوس درس بمدينة الاسكندريّة ومدينة قيسارية وصار مطراناً على مدينة سازيما ثم نازينز ثم قسطنطينية ووضع كتباً خلَّدت ذكرهُ

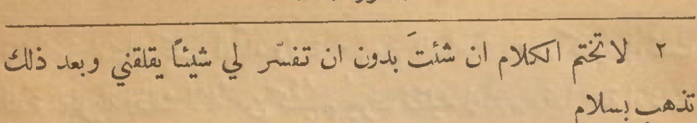
فلا يجوز امتهان كتب الآباء ولا غيرهم من الصالحين الذين كتبوا في تلك المدّة الطويلة وذلك لانهُ من كتُبهم يُعرف تقليد زمانهم وفيها جملة افادات أُخر كبيرة . اني اخجل من الحكم هنا بيننا لكن تذكّرا سيّديّ انكما اردتماهُ واني مستعدّ لان ارجع عن قولي اذا اراني احد اني مخدوع مغرور وقد حان وقت انتهاء هذه المحاورة

٣ لا ندعك تذهب الّا بعد ان تذكر لنا رأيك في طريقة اختيار الآية

١ تعلم ان السبب في الاتيان بالآيات انما هو ان الرعاة لم يكونوا يخاطبون الشعب قديمًا من علمهم بل كانوا يفسرون لفظ الآية من الكتاب المقدَّس ثم اعتادوا تدريجًا ان لا يتبعوا كل كلام الانجيل ولم يعد احدٌ يفسر منهُ الّا شهادةً واحدةً تُسمَّى آية الوعظ . فان كان الواعظ لا يفسّر بالتدقيق جميع اجزاء الانجيل فلا اقلّ من ان يختار الكلام المتضمّن اجلّ الحقائق وانسبها لحاجات الشعب ويجيد في تفسيرها . ولا بدَّ لهُ اغلب الاحيان لكي يفهم قوّة كلمةٍ ما أن يفسّر كثيرًا مما قبلها ومما بعدها وعليهِ ان يتحامى الاشياء الدقيقة . وما افسد ذوق من يحاول ان يظهر البراعة والحذاقة حين ينبغي لهُ ان يتكلّم برصانة وقوَّة روح القدس الذي يستعير كلامهُ

٣ اعترف ان الآيات المغصوبة لا تُعجبني . اما لاحظتَ ان الخطيب يستخرج من آيةٍ كل ما شاء من المواعظ ويحوّل المادّة بوجهٍ لا يشعر بهِ ليطابق بين آياتهِ والموعظة التي يحتاج ان يعظها وهذا اغلب ما يقع في الصوم ولا استصوبهُ





٢ لاتختم الكلام ان شئتَ بدون ان تفسّر لي شيئاً يقلقني وبعد ذلك تذهب بسلام

١ قل لعليّ استطيع ان أُريحك مما يقلقك اني مشتاقٌ الى ذلك واشدّ ما اتمنّى ان تستعمل قريحتك في انشاء المواعظ الساذجة المقنعة

٢ أينبغي للواعظ ان يفسر الكتاب المقدّس تفسيرًا حرفيًا متواليًا

١ إن فعل هذا يفعل حسنًا

٢ اذًا لايّ ما سبب جرى الآباء على خلاف ذلك فانهم لم يخرجوا على ما يظهر لي من المعاني الروحية فاذا راجعت كتب القديسين اغوستينوس وغريغوريوس وبرنردوس رأيتهم يستخرجون الاسرار من كل آية من آيات الكتاب في كل شيء ولم يفسروا الحرف

١ ان يهود زمن يسوع المسيح كانت قد كثرت عندهم المعاني السريّة والرمزيّة . يظهر ان الترابية الذين كانوا مقيمين على الخصوص باسكندرية ووصفهم فنيلون بانهم يهود فلاسفة وقال فيهم اوسابيوس انهم هم المسيحيُّون الاوَّلون كانوا كلهم منصبين على تفاسير الكتاب المقدّس السريّة والرمزيّة . والمعاني الرمزيّة ابتدأت في نفس مدينة اسكندريّة وهنالك اخذت رونقًا بين المسيحيين . واوَّل من تنكَّب المعنى الحرفيّ من الآباء أُوريجانس وانت تعلم ايّ شهرةٍ حصلت لهُ في الكنيسة . ان التقوى تفتتح على اهلها بادئ الامر مثل هذه التآويل وفيها شيء من الحذق والقبول وحمل الناس على التُقى . وجمهور الآباء تبعوا ذوق هذا العصر وتظاهروا باتّباع أذواقهم وقد اكثروا من استعمال هذه التآويل الّا انهم كانوا يلتجئون ابدًا الى المعنى الحرفيّ والنبويّ

الذي هو حرفيّ في نوعهِ في جميع الاشياء التي كان يُراد فيها ابانة آساس التعليم . فلما كانت الشعوب على تمام المعرفة بما كان لا بدَّ ان يعلّمهم ايَّاهُ المعنى الحرفيّ كان الآباء يعطونهم هذه التفاسير الروحيَّة ليبنوهم ويعزُّوهم وقد كانت هذه التآويل مناسبةً على الخصوص لذوق المشارقة الذين ابتدأت عندهم اذ هم يصبون طبعًا الى اللغة السريّة والرمزيّة . وتنوُّع المعنى بهذه الكيفية كان يسرُّهم جدًّا وذلك لكثرة المواعظ وتلاوة الكتاب المقدَّس الدائمة كما كانت العادة جاريةً في الكنيسة . لكن حيث الشعوب عندنا اقلُّ معرفةً لا بدَّ ان نأخذ بالأوكد ونبدأ بالتفسير الحرفيّ بدون ان ننتقص من احترام المعاني الروحية التي جاء بها الآباء فينبغي ان نحصل الخبز قبل ان نطلب الإدام . ولا شيء احسن من جهة تفسير الكتاب المقدَّس من الاقتداء بمتانة القديس يوحنا الذهبيّ الفم فجمهور عصرنا لا يتطلبون المعاني الرمزيّة لأنهم اتوا في تفسير المعنى الحرفيّ بما يكفي لكنهم تركوا هذا المعنى الحرفيّ لأنهم لا يدركون عظمتهُ ويجدونهُ جافًّا عقيمًا بالنسبة الى طريقة وعظهم . ان الحقائق والآداب اجمع هي في حرفية الكتاب المقدّس وهي هناك بقوةٍ وجمالٍ عجيب بل بغزارةٍ لا تُستنزَف . فمتى كان الخطيب يغترف من الكتاب المقدَّس يتوفر لديهِ بلا عناء كثير من الاشياء الجديدة الجليلة الشأن . انها لمصيبة مبكيةٌ أن يُرَى هذا الكنز مهملًا من نفس من هو بين ايديهم كل ايَّامهم . اذا تعلق الانسان بالمنهج القديم لانشاء المواعظ التفسيريَّة كان الخطباء فريقين . الفريق الاوَّل يفسّرون الكتاب المقدَّس بسذاجة بدون ان يتخذوا طريقةً شريفةً نشيطةً وذلك لخلوّهِ من النشاط وقوَّة التخيّل وهؤلاء

اذا جروا في ذلك على طريقة راهنة ومقتداة يكونون ولا ريب نبلاء الواعظين ويكون لهم ما يطلبهُ القديس امبروسيوس وهو عبارة مهذبة ساذجة واضحة ذات رصانةٍ ومتانةٍ بدون ان يتكلفوا لها الأناقة وبدون ان يتهنوا الحلاوة والتنميق . والفريق الثاني يفسّرون الكتاب المقدَّس بمثل عبارتهِ وتخيّلاتهِ وذلك لقوَّة ما عندهم من القريحة الشعريّة وهؤلاء يكونون من ثمَّ وعاظًا كاملين . والفريق الاوَّل يعلّمون بطريقة نشيطةٍ جليلةٍ . والفريق الثاني يُضيفون الى قوّة التعليم علوّ العبارة وقوَّة الكتاب المقدَّس وحماستهُ حتى يكون كلهُ بوجهٍ ما كاملًا ونشيطًا فيهم بقدر ما يمكن ان يكون فيمن ليسوا ملهمين من العُلى بوجهٍ عجيب

٢ قد نسيت فصلًا ذا بالٍ ألا تنتظر فما اسألك بعد الّا كلمةً

١ هل علينا ايضًا ان ننتقد على احدٍ

٢ نعم ننتقد على المادحين . ألا تظنّ حين يُمدَح قدّيس ينبغي للمادح ان يصف شمائلهُ ويحصر كل اعمالهِ وفضائلهُ كلها في مقصدٍ واحدٍ

١ هذا يكون لاظهار ما عند الخطيب من الاختراع والحذاقة

٢ قد فهمتُ كلامك لا تستحسن هذا الاسلوب

١ نعم ان هذا الاسلوب يظهر فاسدًا في معظم المواضيع وذلك لان ردّ المواد كلّها الى مقصدٍ واحدٍ هو بمنزلة الاغتصاب لها . لان في سيرة الانسان كثيرًا من الاعمال الآتية عن اصول متعدّدة الدالَّة على صفاتٍ شديدة الاختلاف فردّها كلّها الى سببٍ واحدٍ دقَّة مدرسيَّة تدلّ على خطيب بعيد جدًّا عن معرفة الطبيعة . فالوسيلة الصحيحة لعمل صورة قويَّة الشبه هي

ان تصف انسانًا كلّهُ اي ينبغي ان تمثّلهُ لعيون السامعين متكلّمًا عند الكلام وعاملًا عند العمل وفي وصف سيرتهِ ينبغي ان يتوكّأ بوجهٍ اخصّ على اكثر الاشياء اظهارًا لطبعهِ ولفضلهِ لكن لا بدّ ان تدع السامع يلاحظ هذه الاشياء من تلقاء نفسهِ واحسن وسيلةٍ لمدح القديس هي ان تذكر اعمالهُ الممدوحة فهذا هو الذي يُعطي المديح قوّةً ونشاطًا. وهذا هو الذي يهذّب السامعين وهذا الذي يؤثّر فيهم. ولكثر ما يرجع السامعون من الوعظ وهم لا يعرفون سيرة القديس الذي سمعوا الواعظ يتكلّم فيهِ ساعةً كلُّ ما كان من امرهم وهو انهم سمعوا كثيرًا من المعاني في شأن قليل من الحوادث المتفرّقة المذكورة بلا اتساقٍ والحال انهُ ينبغي بعكس ذلك ان يوصف القديس كما هو في الواقع انهُ يبيّن كما كان في كل طورٍ من اطوار حياتهِ وفي كل حالٍ من الاحوال التي تغلّبت عليهِ وفي اخصّ ما طرأ عليهِ من الحوادث. فهذا لا يمنع السامعين ان يلاحظوا شمائله والواعظ اذا ذكر اعمال القديس يصوّرهُ احسن ممَّا يصوّرهُ اذا جاء بعبارات تخيُّليَّةٍ

٢ تروم اذًا ان تروي ترجمة القديس لا مديحهُ

١ عفوًا اني لا اعمل روايةً ساذجةً بل اكتفي ان اذكر بنظام اخصّ اعمالهِ بل اروم أن تكون هذه القصة مختصرةً سريعةً نشيطةً ممتلئة حركات وان كل لفظة تعلي شأن القديسين وتعلّم السامعين. وأضف الى ذلك كل ما يخطر لي من الامور الادبية التي اراها اكثر مناسبةً للمقام. اما تظنّ ان خطابًا نُهِج بهِ هذا المنهج يكون شريفًا مستحسنًا بالقدوة الصالحة ساذجًا أما تظنّ ان سِيَر القديسين تصير اكثر انتشارًا وان الشعوب تصير اكثر انتفاعًا. أما

تظنُّ ايضاً بحسب ما وضعناهُ من قواعد الفصاحة ان مثل هذه الخطبة تكون افصح من كل هذه المدائح المتكلّفة التي يسمعها في اغلب الأوقات

٣ ارى الآن ان تلك المواعظ لا تكون اقلَّ تهذيباً ولا اقلّ تأثيرًا ولا اقلّ قبولًا من غيرها سيدي انا مسرور وهذا كافٍ . من العدل ان تذهب تستريح اما انا فارجو ان عنـاءك لا يذهب بلا فائدة فاني عزمت ان اترك كل المجاميع الحديثة وان اتوغل في درس كل اصول الديانة في ينابيعها

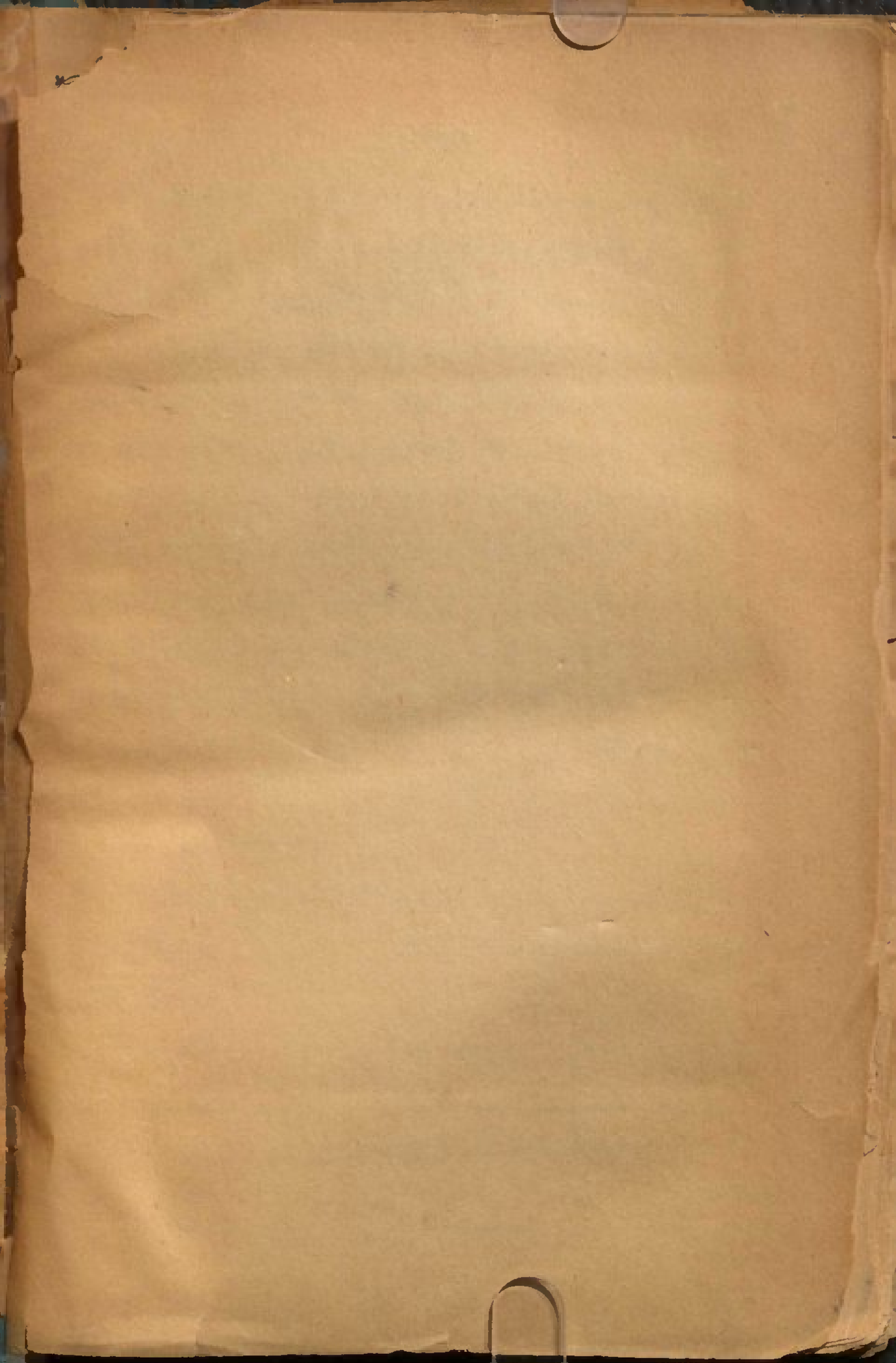
٣ خاطرك بكل شكرٍ اوكد لك اني اصدّقك

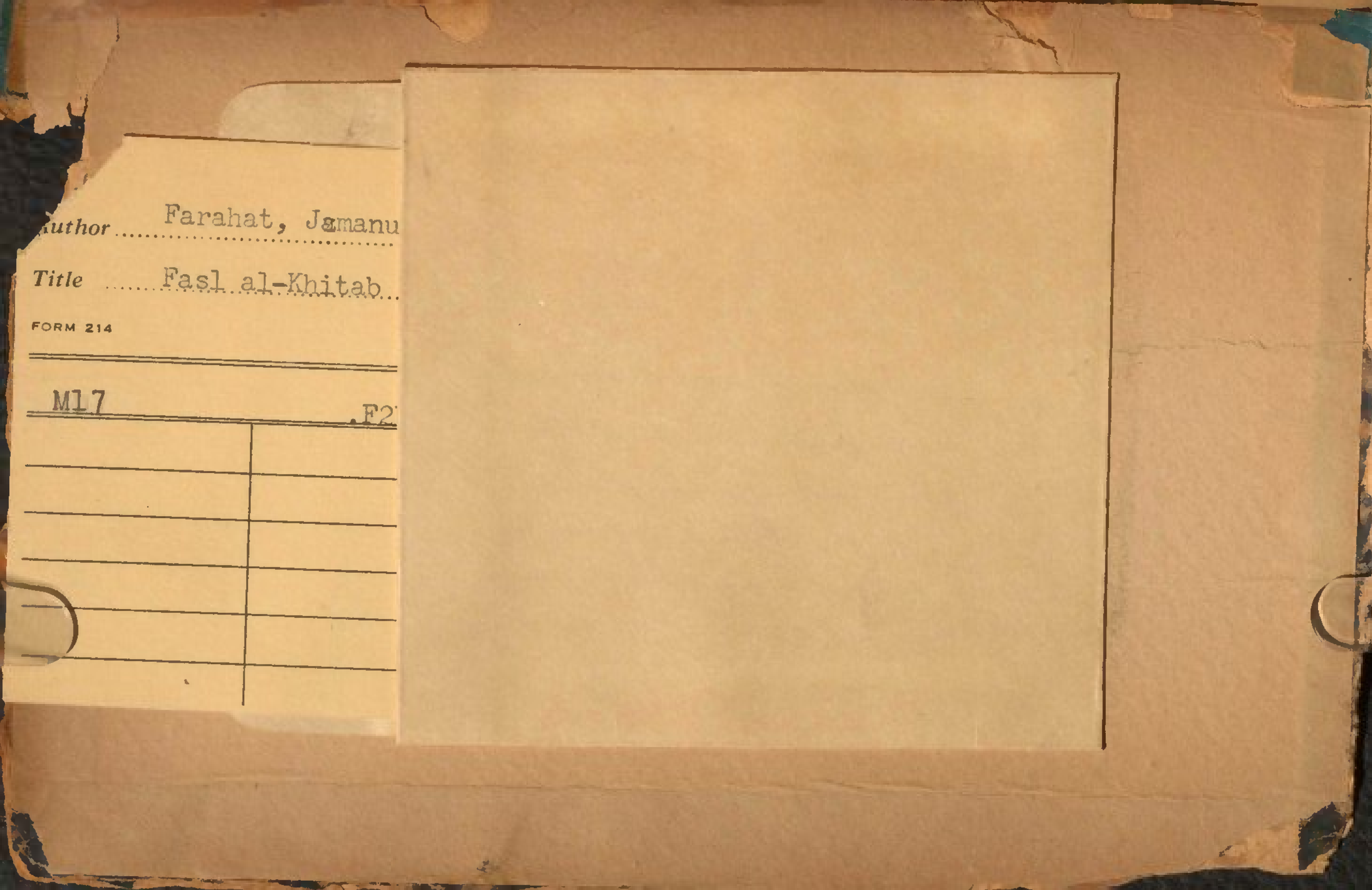
١ مساء الخير افارقك قائلًا لك ما قال القديس ايرونيموس لنابوتيان (١) « متى علّمت في الكنيسة فلا تهيج النـاس للتصدية والتصفيق بل هج فيهم النواح لتكن مدائحك دموع سامعيك » ينبغي ان تكون خطب الكاهن ممتلئةً من الكتاب المقدّس لا تكن متفاصحاً لكن كن خطيباً حقيقيّاً لاسرار الله

قال المترجم فرغتُ من ترجمة هذه المحاورات النفيسة في غاية حزيران سنة ١٨٩٦ للميلاد والحمد لله اولًا وآخرًا

---

(١) هو احد اصدقاء القديس ايرونيموس




uthor Farahat, Jamanu
Title Fasl al-Khitab
FORM 214
M17
F2

